المسيح فى إشعياء

تأليف ف. ب. ماير

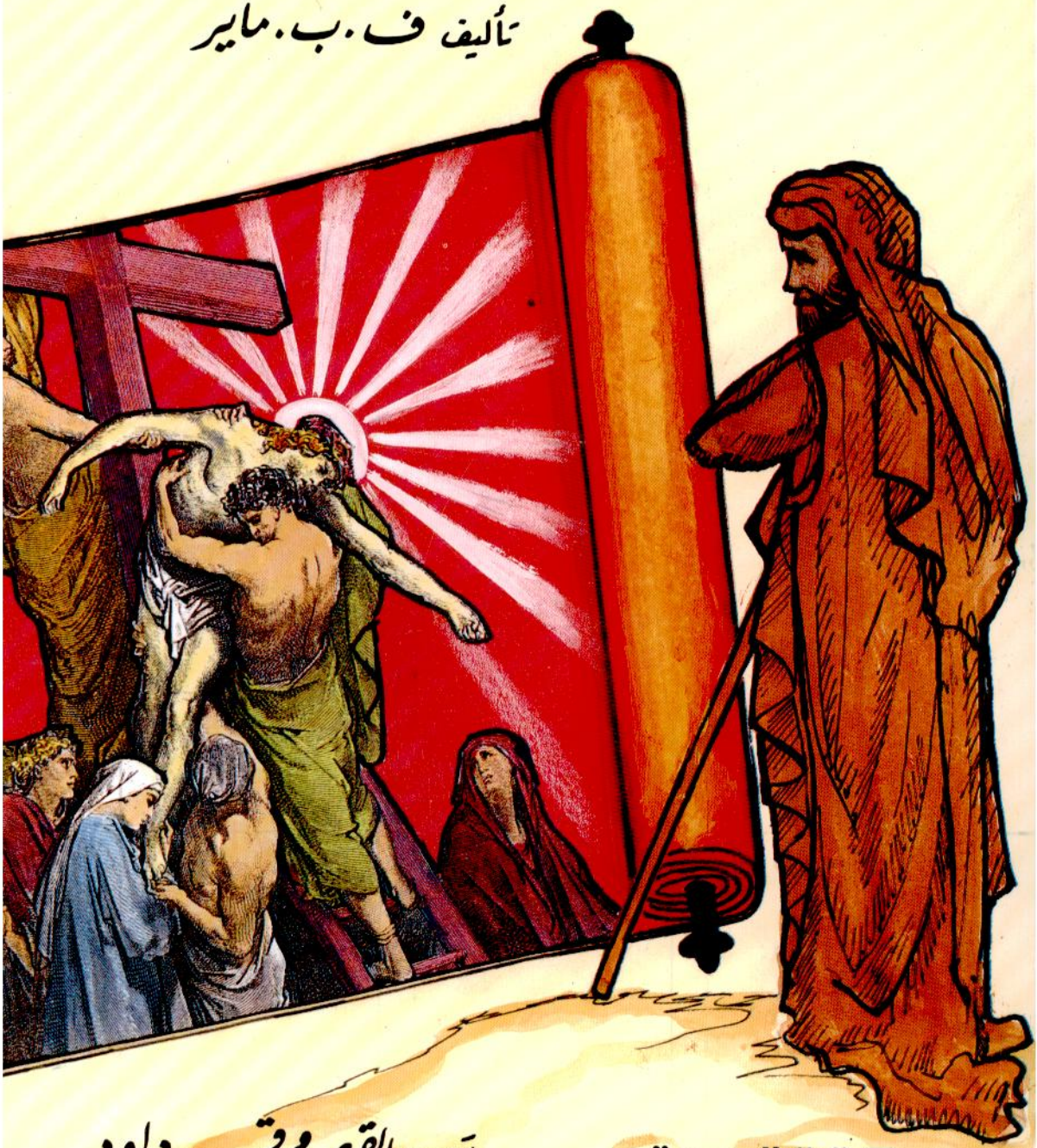

تعريب القمص مرقس داود

مكتبة المحبة

المسيح فى إشعياء

تأليف
الدكتور ف. ب. ماير

تعريب
القس مرقس داود

الناشر
مكتبة المحبة

مقدمة المعرب

باسم الآب والابن والروح القدس ، إله واحد آمين .

يطلق البعض على إشعياء النبى لقب « الإنجيلى الخامس » على أساس أنه تحدث بوضوح تام عن الرب يسوع المسيح ، عن ميلاده من عذراء ، عن حياته الفريدة واتضاعه العجيب ؛ عن آلامه المريرة وموته الكفارى ، عن قيامته المجيدة وصعوده إلى السماء ، عن عصره السعيد ؛ كما لوكان معاصرا له كأحد الإنجيليين الأربعة .

ويقتصر الحديث فى هذا الكتاب على بعض تأملات فى ستة عشر أصحاحا من نبوة إشعياء (ص ٤٠ - ٥٥) تتعلق بتدخل الرب بكيفية عجيبة لإنقاذ شعبه من سبى بابل وتُصور لنا كيف خُتمت العودة من السبى بتجسد ابن الله ، بل كيف أن العناية الإلهية التى تدخلت لتحرير عبده من عبودية المغتصب هى بعينها التى تتدخل لتحرير كل مستعبَد للخطية ، وكيف أن الدعوة التى وجهت لأورشليم فى القديم لكى تستيقظ وتلبس جمالها هى بعينها التى توجه للكنيسة اليوم لكى تستيقظ وتتزين بمجدها ، هى بعينها التى توجه لكل نفس مضطهدة ذليلة ، ولكل نفس نائمة متغافلة ، لكى تستيقظ وتلبس ثوب البر والخلاص .

وإننى أبتهل إلى القدير أن يلمس قلب كل من يقرأ هذه الصفحات بلمسة الروح القدس لكى يستيقظ فيرى نفسه كما هو ، ويرى الطريق الذى يسير فيه وإلى أين ينتهى ، ويرى المخلص الذى يقدم خلاصه للجميع ، ويسمع الصوت القائل : « إنها الآن ساعة لتستيقظ من النوم . فإن خلاصنا الآن أقرب مماكان حين آمنا . قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور » (رو ١٣ : ١١ و ١٣) .

وإنى أتقدم بالشكر القلبى الخالص لمكتبة المحبة التى شجعتنى متوسلا إلى الله أن يبارك كل جهودها فى هذا الميدان من الخدمة الذى اختارته وهو نشر الكتب النافعة للكنيسة .

القس مرقس داود

تـوت ١٦٨٠
سبتمبر ١٩٦٣

مقدمة المؤلف

إن خروج بنى إسرائيل من مصر لمن أبرز آثار الماضى ، ليس فقط بسبب قيمته التاريخية ، بل لأنه افتتح نهضة روحية قوية ، هى أقوى العوامل الجوهرية فى عالمنا الحديث .

لم يكن للخروج من بابل نفس الأهمية التى كانت لذلك الخروج . ولعل معظم السبب فى ذلك يعـزى إلى أن هذا الخـروج تم فى مدة أطول ثم أنه كان أقل تأثيرا . على أنه رغم هذا كان حدثا تاريخيا عجيبا . وكان مظهرا جليا لتدخل الرب بشكل ملموس لخير شـعبه . أما نتائجه التى تُوجت بظهور ابن الله فقد كانت فى غاية الأهمية .

لقد سـبق أن رأى إشعياء هذا الخروج . وتحدث إلينا مقدما فى الأصحاحات ٤٠ - ٥٥ من سفره . وهذه الأصحاحات هى موضوع بحثنا فى هذا الكتاب . على أن رواية الخـروج نفسها إن هى إلا مقدمة وتمهيد لموضوع آخر سرعان ما يجذب أنظارنا إليه . فإنه تتكشف أمامنا بشكل جلى تلك المناظر التى تم بها فداؤنا والتى تصور لنا بدقة لن يستطيع الوصول إليها إلا كاتب معاصر اتضاع المخلص وآلامه ، أوجاعه وأحزانه ، موته الكفارى ، قيامته وصعوده . ويندر أن نجد عبارة واحدة لا نستطيع أن نبدأ منها بالكرازة كما بشر فيلبس الخصى .

ف. ب. ماير

- ١ -

عـزوا .. عـزوا

إشعياء ٤٠ : ١ [١]

اطلبوا من الله أن يمنحكم حكمة فى خدمة التعزية .

لكى تستطيعوا أن تشتركوا فى عواطف الآخرين لأنه ما أثقل النفس المتألمة الحزينة .

وما أكثر الحاجة إلى معزين حقيقيين امتلأت قلوبهم بالعاطفة المسيحية .

(هاملتون)

« أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التى بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب » (١ بط ٤ : ١٢) بل افرحوا ، لأن هذه علامة أكيدة على أنكم سائرون فى الطريق المستقيم . إن كنت أسير فى بلاد غريبة ، وأُنبئت من قبل بأننى يجب أن أجوز واديا اختفت عنه الشمس ، أو أسلك طريقا صخريا ، لكى أصل إلى مَقرّى ، فإن كل دقيقة أقضيها فى الظلال لا أرى نور الشمس ، وكل صعوبة فى ذلك الطريق الصخرى تبيّن لى بأننى فى الطريق المستقيم . لذلك فإن أولاد الله لا يستغربون حين يجوزون طريق الآلام .

---

(١) « عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم » .

كان مما زاد آلام شعب الله الذين قضوا سبعين سنة غرباء فى أرض غريبة ، وشربوا كأس المر حتى الثمالة ، شعورهم بأن سببهم كان نتيجة آثامهم ومعاصيهم . فإن أمرّ ما يعانيه المرء أن يدرك بأن الآلام كان ينبغى أن لا تحدث ، وإنها إنما حدثت بسبب عدم الروية والتبصر والحكمة ، وأنه إنما يحصد ما قد زرع ، وأنه هو الذى قد ربّى الوحوش الضارية التى تفترسه . يا له من ألم محض .

إنه لا مفر من القصاص الإلهى فى هذه الحياة . من المستحيل أن يكسر المرء نواميس الضمير ، نواميس النفس والحياة البشرية ، دون أن ينال قصاصه . قد تُغفر الخطية ، قد تتحول نيران القصاص إلى نيران التمحيص ، قد تظهر محبة الله أقرب وأثمن مما كانت من قبل ، ومع ذلك يظل ضغط الألم الشديد باقيا ، ويبقى القلب منزعجا ، والعين كسيرة ، والنفس ذليلة ، وتظل الأعواد معلقة على أشجار الصفصاف ، وتأبى الشفاه أن ترنم ترنيمة الرب .

كيف نستغرب البلوى التى تحدث لنا ؟

تطلع إلى فوق :

ألا يكفى أن تكون شبيها بابن الله نفسه الذى جاز بوتقة الآلام . كشريك لإخوته فى اللحم والدم ؟ وإن كان قد جاء إلى الأرض ، وتعلم الطاعة مما تألم به ، فيقينا أنك لا يمكن أن تُعفى من الآلام . أتستطيع أن تتشبه به تماما دون أن تتكمل بالآلام ؟ يجب أن تجوز نيران البوتقة ، لا لكى تربح السماء ، بل لكى تتنقى من كل ما لا يتفق مع السماء . إن الأرواح المتجمعة على حدود العالم السماوى لتشجيعك فى رحلتك إلى السماء تخبرك أن المجد إنما قد أُعِدَّ لهم بنسبة شدة الآلام التى تحملوها هنا لإظهار بطولة الإيمان .

تطلع إلى أسفل :

أتظن بأن رئيس جهنم قد سُرَّ حينما هجرته لكى تتبع المسيح سيدك الجديد ؟ كلا وألف كلا . فى لحظة تجديدك أدرجَ اسمك ضمن الأشخاص الذين يصوب إليهم الشيطان كل جهوده ، وتعهدت كل قوات الظلمة أن تعترض سبيلك . اذكر كيف أبغض الشيطان أيوب . ألا يبغضك أنت أيضا ؟ إنه لا يريد أن يصب عليك جامات غضبه التى صبها على

ربك لو استطاع . إن لدينا حادثة واحدة على الأقل دوّنها لنا الكتاب عن السماح لقوات الجحيم بأن تجرب أحد القديسين ، ولكن فى حدود معيّنة .

تطلع حولك :

إنك لا تزال فى العالم الذى صلب ربك . وهو لا يتردد عن تكرار المأساة لو علم إنه عاد إليه . إنه لا يمكن أن يحبك . بل هو مستعد أن يدعوك بعلزبول ، ويخرجك من مجمعه ، ويعتبر أن قتلك خدمة لله . فى العالم سيكون لك ضيق . ولو أنك فى وسط الضيق تستطيع أن ترجو خيرا .

حينما تكون النفس فى فترة السبى والألم الممض ، يجب عليها أن تفعل ثلاثة أمـور :

يجب أن تتطلع إلى التعزية ، وتختزنها ، وتنقلها لغيرها .

(١) تطلع إلى التعزية

١- إنها آتية يقينا . حيث وُجدت التجربة الشديدة وُجد بجوارها ينبوع لا ينضب من التعزية ولو أمسكت أعيننا عن أن تراه كما حصل مع هاجر . ولكنه موجود يقينا طالما كان الله أمينا يقينا . حين دوّن يوحنا بنيان ، كاتب كتاب « سياحة المسيحى » ، اختباراته عن سجنه الذى ظل فيه ١٢ عاما ، كتب هذه الكلمات : « فى كل أيام حياتى لم أتغلغل فى أعماق كلمة الله مثل الآن ، مما جعلنى أقـول مرارا : أيحـل لى أن أطلب المزيـد من الآلام للحصول على المزيد من التعزية ؟ » . إن الله لا يمكن أن ينسى أى واحد من أولاده . لا يمكن أن يتركنا فى آلامنا وحدنا ، ودون تقديم المعونة . إنه يركض ليعانق الابن الضال ، ولكنه يركب على كروب ، بل يطير على أجنحة الريح لإنقاذ تلميذه من الغرق .

٢- إنها آتية نسبيا ، إن أباك يمسك بيده مقصا . يدعى أحد حديه « كما » ، وهذا لامتحانك ، ويدعى الحد الآخر « كذلك » ، وهذا لتعزيتك . وكلاهما فى مستوى واحد ، وبنسبة واحدة ، على الدوام . وكلما اشتدت المحنة ازدادت التعزية . « كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضا » (٢ كو ١ : ٥) .

٣- إنها آتية إلهية : يحسن حينما ننتظر صديقا « على محطة السكة الحديد النهائية » أن نعرف الطريق القادم منه لئلا يصل على رصيف بينما نكون نحن فى انتظاره على الآخر . هكذا من الضرورى جدا أن نعرف أين ننتظر التعزية . أنتطلع إليها فى الجبال ، وهى أرسخ ما فى أرض ، وأعلاها ؟ كلا . عبثا نتطلع إلى الخلاص فى مجموعة الجبال . أنتطلع إلى البشر ؟ كلا . لأنهم لن يستطيعوا الوصول إلى أعماق القلب أنتطلع إلى الملائكة ؟ كلا . فإنه بين الخدمات الكثيرة التى يأتمنهم الله عليها ، يندر أن يرسلهم للتعزية . ولعل ذلك راجع إلى قوتهم الزائدة ، أو لأنهم لم يتألموا قط . لكى تعصب قلبا كسيرا يحتاج الأمر إلى رقة اللمس التى لا يملكها الملاك . إن الله يحتفظ لنفسه بامتياز التعزية . فهذا فن إلهى . والتسمية المحبوبة التى أطلقت على الروح القدس هى « البارقليط » [أى المعزّى] . إن إلهك « هو إله كل تعزية » (٢ كو ١ : ٣) . وعندما يكون إسرائيل فى فرط الحزن ، ينادى الصوت من السماء فى نغمات موسيقية : « عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم . طيبوا قلب أورشليم . أنا أنا هو معزيكم » (إش ٥١ : ١٢) ؛ « كإنسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا » (إش ٦٦ : ١٣) .

٤- إنها آتية بالمسيح . كما كان النبى يتحدث بلسان الله ، وينقل إلى الشعب بنغمة بشرية تلك الإعلانات التى أُعلنت إليه من الله ، هكذا نحن لنا النبى الأعظم الذى لم يستحق أعظم أنبياء البشر أن يحل سيور حذائه ، وتعزيتنا أعذب لأنها آتية إلينا به . فى هذه الكلمات نستمع إلى الآب يقول للإبن : « عَزّ عَزّ شعبى » ؛ « بالمسيح تكثر تعزيتنا » (٢ كو ١ : ٥) .

٥- وهى تأتى بطرق منوعة . قد تأتى أحيانا بمجىء تيطس المحبوب ، بوصول باقة ورد ، عنقود عنب ، خطاب ، رسالة ، كرت ، قد تأتى بالاستناد على وعد . فيكون ذلك كوضع قطعة قماش باردة على جبهتك الحارة . وقد تأتى باقتراب الله إليك . تأمل فى هذا الأصحاح (إش ٤٠) فى الطرق المنوعة التى بها يعزى الله النفس البائسة ، والتى تتضمن بأن وقت الحزن قرب على الانتهاء « وجهادها قد كمل » (ع ٢) . إن الصوت السماوى يعلن تذليل كل الصعوبات واقتراب الفجر « كل وطأ يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض ويصير المعوج مستقيما والعراقيب سهلا » (ع ٤) . وإن العهد ثابت ووطيد ، وإن إله الكواكب وإله كل العوالم هو الراعى الشفوق الذى لا يسوق خرافه بسرعة أكثر من طاقتها . وإن الإنسان مهما عظمت قوته فإنه إنما هو عشب « أما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد » كالجبال الراسخة . إن فى الآلة الموسيقية الخاصة بالتعزية أوتارا كثيرة .

إن ما يعزينا وقت اشتداد الحزن ليس ما يقوله الصديق ، بل ما نجده فى الله الذى يعيننا . وإن من يستطيع أن يعزى كثيرا هو من يتكلم قليلا ، وإنما يقترب من الحزين المتألم ، ويمسك بيده ، ويجلس بجانبه صامتا فى عطف وإشفاق . هذه هى طريقة الله . « دنوت يوم دعوتك . قلت لا تخف » (مراثى ٣ : ٥٧) .

(٢) اختزن التعزية

هذه كانت رسالة النبى . كان ينبغى أن يتقبل التعزية قبل أن ينقلها للآخرين . وكان ينبغى أن يكون تلميذا قبل أن يكون معلما .

إن العالم ملىء بالقلوب التى تحتاج إلى التعزية . فالأيتام يصرخون فى الليل ، وراحيل تبكى على أولادها . والأقوياء يُسحقون فى المعصرة لأن دماءهم هى حياة العالم . وإلهنا يشفق عليهم . ولكنه لا يمكنه إيقاف تقدم هذه السنوات المروّعة حتى ينتهى « سر الإثم » . إنه لا يزال يشفق . ويريد أن يخفف من آلام البشرية بواسطتك . على أنه لا بد لك من التدريب قبل أن تؤهَّل لهذه الخدمة السامية . وهذا التدريب يكلفك

ثمنا غاليا جدا ، لأنك لا يمكن أن تقدم هذه الخدمة كاملة إلا إذا جُرت نفس الآلام التى تحز فى قلوب الآخرين الكثيرين جدا . وهكذا تصبح حياتك بمثابة غرفة التعليم فى المستشفى . تتعلم فيها فن التعزية الإلهى . فإذا جُرحت وامتدت يد الطبيب الأعظم لتعصب جرحك ، تعلمت كيف تسعف المجروحين فى كل مكان . وإذا كُسر أحد أطرافك وامتدت الذراع المقتدرة لتجبره ، اكتسبت خبرة شخصية فى تضميد القلب .

أتعجب لأنك تجوز وقتا أليما ؟ انتظر حتى تمر عشر سنوات ، وإنى أضمن لك بأنك لا بد واجد فى هذه الفترة كثيرين ممن يرزحون تحت نفس الآلام . فتتحدث إليهم كيف تألمت وتعزّيت . وعندما تتكشف لك أسرار آلامهم ، وتقدم إليهم البلسم الشافى الذى سبق أن ضمد به الرب قلبك ، وتزول عنهم مرارة الحزن ، وتتبدل عبوسة الوجه إلى بشاشة ، ويحل الرجاء محل اليأس ، فحينئذ تدرك لماذا سمح لك الله بتلك الآلام ، وتباركه من أجل التأديب الذى كان واسطة فى أن تختزن هذا القدر العظيم من الاختبارات والتعزية .

اختزن فى ذاكرتك كل الطرق التى بها يعزيك الله . ترقب عن كثب كيف يأتى بها إليك . احتفظ بمذكرة يومية إن أردت . وسجل فيها كل تصرفات الله معك التى تبيّن حكمته اللانهائية . تأمل فى طول كل جبيرة ، وثنايا كل رباط ، وتأثير كل دواء من العقاقير المختلفة . بذلك تجد بركة مزدوجة . الأولى إن تفكيرك يتحول من آلامك إلى التعزيات التى تزيد عنها . والثانية انتزاع ذلك الشعور بأن الوجود فى هذا العالم غير مُجدٍ وبلا غرض . وهذا أثقل عبء على نفس المتألم .

(٣) انقل التعزية التى تحصل عليها

على إحدى محطات السكة الحديد ، عثر رجل طيب القلب على تلميذ يبكى لأنه لم يجد ما يكفى لدفع ثمن التذكرة التى يعود بها إلى بلدته . وفجأة تذكر كيف أنه منذ سنوات كان فى نفس هذا الموقف الحرج ، وأن شخصا مجهولا قدّم إليه المساعدة اللازمة ، وأوصاه أن يصنع هذا الإحسان بغيره . فرأى وقتئذ أن الفرصة المنتظرة قد حلّت . ولذلك هذا أخذ الولد جانبا ، واستمع إلى روايته ، ودفع له ثمن التذكرة ، وأوصاه أن يصنع هو بدوره نفس هذا الإحسان لغيره .

وإذ تحرك القطار ، صاح الغلام متهللا : « سأنقل الإحسان لغيرى يا سيدى » . هكذا يتنقل فى كل أرجاء العالم صدى تلك المحبة العجيبة التى أحبنا المسيح بها ، وتتسع حلقاتها على مر الأيام ، ولا تتوقف حتى تجتاز كل المسكونة .

« اذهب أنت أيضا واصنع هكذا » (لو ١٠ : ٧ - ٣) ؛ « طيبوا قلب أورشليم ونادوها » . إن الله يعزيك لكى تعزى الذين هم فى كل ضيقة (٢ كو ١ : ٤) ، وإنك لن تجد صعوبة فى العثور عليهم ، فهم كثيرون . وآلامك الماضية تهيئك لاكتشافهم بسرعة ، بينما قد لا يستطيع الآخرون العثور عليهم . وإن لم تجدهم فابحث عنهم ، فالغزال الجريح ينتحى ناصية ويموت وحيدا . الأحزان تقصى الأصدقاء . فتقدم إلى « رجل الأوجاع ومختبر الحزن » واطلب منه أن يرشدك أين يختبىء الحزانى . لأنه يعرف مخابئهم التى ارتفعت منها أصواتهم إليه . وهو جاز نفس هذا الدور قبلك .

وعندما تقترب إليهم ، اصنع معهم كما صنع معك السامرى الصالح الأعظم حين ضمد جراحاتك وصب عليها زيتا وخمرا . « عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم » .

- ٢ -

أصوات تتحدث إلى القلب

إشعياء ٤٠ : ٢ [١]

إن لم تكن الكلمة كلمة الله
فهى كلمة جوفاء
ثقوا أن كل طير يغرد
وكل زهرة جميلة
وكل فكرة نبيلة
هى رسالة من الله

(كولردج)

حينما يكون القلب مكتئبا حزينا ، ولا تأتيه السنون بأية تعزية ، فعليك أن تتحول من الظروف المزعجة ، والحياة المضطربة ، والأصوات الكثيرة المنبعثة من الجموع المزدحمة حولك ، وأن تصغى بأذن مفتوحة حتى تميز تلك الأصوات الأخرى العميقة التى تتخطى حدود الحس آتية من أرض غير المنظور حيث يوجد الله ، وحيث توجد الحياة فى ملئها . قد لا يوجد شكل أو صورة ، ولا متكلم يمكن تمييزه ، ولا ملاك بضياء مجده وأجنحة قوته ، بل أصوات ، لا صوت أو صوتين ، بل أربعة أصوات على الأقل بعض الأحيان ، كما نرى فى هذه الآية العجيبة كل منها صوت الله ، على أن لكل منها أسلوبه الخاص ، ونغمته الخاصة .

---

(١) « طيبوا قلب أورشليم وناديوها بأن جهادها قد كمل . إن إثمها قد عفى عنه . إنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها » .

إن عدم معرفتنا لأصحاب الأصوات لا يقلل من قيمتها . فجدول الضرب لا يُعرف واضعه ، ومع ذلك فإن هذا لا يؤثر فى صحته . وبعض المزامير الرائعة ، ورسالة العبرانيين لا تحمل اسم كاتبها ، ولكنها تحمل دلائل صحتها ، وفى كل سطورها تستطيع أن تتلمس وحى الروح القدس . فإن كانت هذه الأصوات تأتينا من الفضاء ، وتحملها إلينا الريح من الأبدية ، دون أن نتبيّن حامليها ، فإن ذلك لا يقلل من قيمتها ، ولا يشكك فى صحتها ، ولا يضعف من التعزية التى تحملها . قد يكون النشيد جميلا ولو لم نعرف مؤلفه . وقد تكون الصورة رائعة الجمال ولو لم نعرف المصور . وقد يكون الكتاب صادقا ونافعا ولو لم يحمل اسم مؤلفه . وقلب الإنسان ، إذ خُلق على صورة الله ، يدرك بغريزته الأصوات التى يتحدث بها الله ، كما يدرك الطفل وهو بعيد عن بيته فى أحلك الليالى ، تلك الأصوات التى اعتاد أن يسمعها منذ كان فى المهد .

من مميزات الأصوات التى تصل إلينا من الله أنها تتكلم إلى القلب « طيبوا قلب أورشليم » [أو « تكلموا إلى قلب أورشليم » كما جاء فى هامش الكتاب] . والكلمة فى العبرانية تحمل معنى « التودد » وهى الصطلاح الذى يستعمل ليستميل الشاب قلب خطيبته . تستطيع المحبة أن تكتشف المحبة ، والقلب يدرك القلوب التى تتجانس معه حقا . قد تتحدث إليه أصوات كثيرة ، ولكنه يتحول عنها كلها ، ولا يصغى إليها ، حتى يأتى اليوم الذى فيه يتقدم الملك الحقيقى ويبوق بالصوت الذى ينتظره الجميع ، فتقوم العذارى النائمات لاستقبال عريسها وحبيبها الحقيقى . بهذه العلامة يميز قلبك فاديك الحبيب . « أنا نائمة وقلبى مستيقظ . صوت حبيبى قارعا » .

(١) صوت الصفح والغفران

إن حاجة النفس الأولى هى الغفران . فهى تستطيع أن تحتمل الآلام . وإن كانت هذه الآلام قد نسجتها هى بجهالتها وخطاياها كسبى اليهود ، فإنها تحنى رأسها تحت نيرها فى تواضع مرددة قول عالى الذى نطق به فى ظروف مماثلة « هو الرب ما يحسن فى عينيه يعمل » . ولكنها لن تستطيع احتمال الشعور بأنها لم تنل الصفح بعد ، وأن الله قد حجب

وجهه عنها . لن تحتمل الظلمة الكثيفة التى تجثم على القلب . لن تطيق عدم رؤية الشمس أو النجوم أياما كثيرة . ترزح تحت ثقل الخطية التى لم تغفر . وتتعذب حين تظن أن رحمة الله قد تركتها نهائيا ، وأنه سوف لا يتحنن عليها مرة أخرى . إن هذه المرارة والكآبة والحزن من أجل الخطية هى أولى العلامات لعودة الحياة . إنها لا تبرر الخاطئ ، ولكنها تعد النفس لطلب الله والتمسك بطريقة الله للحصول عليه . وقبل أن يبدأ الله بعمل الخلاص العظيم ، قبل أن يزيل الأنقاض المتراكمة ويجدد بناء الهيكل المتهدم ، قبل أن يعيد صورته ، يجب أن يؤكد للنفس التائبة المؤمنة « بأن جهادها قد كمل وأن إثمها قد عفى عنه ، إنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها » (ع ٢) .

لدى التأمل فى موضوع الخطية ونتائجها ، يجب علينا دواما أن نميز بين نتائجها الجزائية ونتائجها الطبيعية . يتبين هذا الاختلاف بغاية الوضوح فى حالة خطية السُكر أو الجرائم العنيفة . فالسلطات المدنيـة توقع قصاصات ، الغرامة ، أو السجن ، أو الجلد . ولكن فضلا عن هذه ، فقد يشكو المذنب من صداع فى الرأس ، أو ارتعاش فى اليد ، أو تحطم فى الجهاز العصبى . هكذا الحال فى كل خطية فإن كسرها لوصية الله المقدسة ، وتمردها على العناية الإلهية ، وإساءتها إلى الله شارع الشريعة ، لا يمكن التكفير عنها إلا بموت آدم الثانى ، الرب من السماء . فإنه حمل خطايانا فى جسده على الخشبة ، وأبطل الخطية بذبيحة نفسه . لقد حمل الخطية من أجلنا ، ولذلك فإن خطايانا لا تحسب علينا ، ولقد صالح الله العالم لنفسه فى المسيح .

على أن النتائج الطبيعية لا تزال باقية . فداود نقلت عنه خطيته ، ولكن السيف لم يبرح بيته . والسكيرون والفاسقون قد تُغفر لهم خطاياهم ، ولكنهم يجب أن يحصدوا ما زرعوا . وقد تعالج نتائج الخطية بعد الصفح عنها ، قد تعالج مياه مارة بشجرة الصليب فتصير عذبة (خر ١٥ : ٢٣ - ٢٥) ، ولكن يجب تحملها بالصبر طويلا . هكذا كانت أورشليم تتألم حين وصلتها هذه الكلمات العذبة . محبة أبدية أحبها الله . ورغم أن المدينة الفعلية كانت قد تهدمت ، وكان أبناؤها مشردين فى السجن ، إلا أنهم كانوا لا يزالون يدعون أورشليم « طيبوا قلب أورشليم » . ورغم ذلك كان يجب أن يقضى الشعب المتمرد المدة المعينة فى السبى ، ويتحمل نتائج التمرد الطبيعية والحتمية .

بعد ذلك سمعت هذا الإعلان الأول عن التعزية المضاعفة ، التى لا تتضمن بأن كل إثمها قد عفى عنه فقط ، بل أيضا بأن جهادها قد كمل ، وأنها قبلت من يد الرب ضعفين من القصاص الطبيعى . وفى هذا ما يكفى لإتمام القصد الإلهى نحو تطهيرها .

هل عانيت أنت أيضا الآلام المرة ؟ هل سببت لك تلك الأخطاء التى ارتكبتها فى فجر حياتك آلاما مريرة ؟ هل قضيت أياما كثيرة اكتوت فيها قدماك من السير فى طريق رُصف بحجارة نارية ؟ ثق بأن الله لا يمكن أن يسحقك تحت الآلام بصفة دائمة . والسيف لا يلتهم إلى الأبد ، وعواصف البحر لا تتبعك إلا إلى حدودها ، ولن تتخطاها . ووقت جهادك المضنى قد كمل ، وإثمك قد عفى عنه ، وقد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياك . كان يبدو بأن هذه الآلام آتية من يد الأعداء ، ولكن الرب هو الذى قدم لك الكأس ، وهو ذا يقول لك الآن : إن فى ذلك كل الكفاية .

(٢) صوت الخلاص والإنقاذ

بين بابل وفلسطين برية فسيحة الأرجاء يتطلب اجتيازها أكثر من ثلاثين يوما . على أن الصعوبات الطبيعية التى كان يبدو بأنها تجعل العودة من السبى أمرا خياليا ، كانت لا تقاس بالنسبة للصعوبات الناشئة من بعض الظروف الأخرى . فقد كان المسبيون فى قبضة يد تلك المملكة المتعجرفة التى أبت إطلاق سراحهم كما فعلت مصر من قبل مع آبائهم . وكانت تقوم بينهم وبين الحرية سلسلة من جبال الصعوبات ، وأودية سحيقة . ولكن عندما يقوم الرب لإنقاذ شعبه الصارخين إليه نهارا وليلا ، فإن « كل جبل وأكمة ينخفض » كما انفتحت الأبواب الحديدية أمام بطرس ، « وكل وطأ يرتفع ويصير المعوج مستقيما والعراقيب سهلا » (ع ٤ و ٥) .

عندما يتفقد ملوك الشرق بلادهم فإنه يسبقهم الرسل ، ليطلبوا من المدن التى سوف يجتازها الملوك ، تمهيد الطرق التى يسيرون فيها . كان هذا هو صوت الرسول الذى دوى وسط السكون الرهيب .

« صوت صارخ فى البرية . أعدوا طريق الرب . قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا » (ع ٣) . وهذا الصوت يعلن مقدما بأن كل الصعوبات تذلل ، كما تزيل السيدة بيدها كل التجاعيد من القماش ، أو كما تمهد الآلة البخارية الطريق .

إن كانت لك أذنان للسمع فاسمع هذا الصوت أنت أيضا : إنك تجلس وحيدا وكسير القلب ، وفمك لم يرنم ترنيمة الرب منذ مدة طويلة ، ويد الظالم ثقيلة عليك ، ويبدو إليك بأنه لا أمل فى الخلاص إلا بالموت وقد أصبحت كأيوب تتمنى الموت « لأنى قد كنت الآن مضطجعا ساكنا حينئذ كنت نمت مستريحا » (أى ٣ : ١٣) . ولكن الله قد احتفظ لك بشىء أفضل ينتظرك فى القريب العاجل حين يعلن مجده . فالفجر قريب على الأبواب ، ومع الفجر يأتى الخلاص .

قد يبدو بأن الخلاص مستحيل . فالأمور معقدة تعقيدا شديدا ، والصعوبات كثيرة ، وعبودية السبى قاسية . صحيح إنه توجد بعض العلامات تبشر بشىء من الأمل فى الطريق الوعر المسالك ، على أن جبال الألب تقف فى الطريق حاجزا منيعا يستحيل تخطيه ، والثلوج المتراكمة تزيد الطريق صعوبة . العالم ملىء بالمشاكل المعقدة التى لا حل لها ، والتى تعوقنا عن التقدم خطوة واحدة أخرى . ولكن ليس عليك إلا أن تنتظر الله ، وليكن رجاؤك فيه (مز ٦٢ : ٥) . فإنه سوف يأتى بذراعه المقتدرة ، وإذ يقودك ليخرجك من كل هذه الصعوبات ، كما قاد الملاك بطرس ، فإنك سوف تدهش إذ تجد أن هذه الصعوبات التى لا تقهر قد اختفت ، وأن البحر الأحمر والأردن قد صارا طريقا للعبور ، والجبال قد ملأت الأودية ، والجبال قد صارت كالمشاقة أمام النار ، والحبائل القوية قد صارت كخيوط العنكبوت التى تسحقها أقل لمسة .

(٣) أصوات الانحلال والقوة الخالدة

عندما تصمت نفس الإنسان فيستطيع أن يميز الأصوات التى تتحدث حوله فى ذلك العالم الأبدى الذى ينتسب إليه على قدم المساواة مع المتكلمين غير المنظورين ، فإن أول

وأكثر ما يستمع إليه هو رثاء الملائكة لسرعة زوال الحياة البشرية والمجد البشرى . فى السكون الشامل ، حينما تهجع النفس أخيرا ، تستمع إلى أحاديثهم إذ يتحدثون بعضهم إلى بعض . يقول أحد الرقباء لرفيقه « ناد » فيجيب الآخر على الفور « بماذا أنادى ؟ » فيستمر الأول فى الحديث :

لا توجد سوى فكرة واحدة عن البشر ، « كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبّت عليه » (ع ٦ و ٧) .

هذه الكلمة تنال استجابة عميقة من قلب كل رجل مفكر . « الإنسان يخرج كالزهر ثم ينحسم [يقطع] ويبرح كالظل ولا يقف » (أى ١٤ : ١ و ٢) ، « الإنسان مثل العشب أيامه . كزهر الحقل كذلك يزهر » (مز ١٠٣ : ١٥) . هذا ما اختبرناه جميعا . أولادنا الأعزاء ، بناتنا المحبوبات الجميلات ، أطفالنا الصغار ، قد ذبلوا أمام أعيننا وصاروا ترابا وسط عشب الأرض . وأورشليم ظلت طويلا فى السبى ، ومات فى السبى أبطالها واحدا بعد واحد ، وقادتها وأنبياؤها ، وأبناؤها وقتذاك كانوا من طبقة أضعف ، إذ حل نحميا محل إشعياء ، وعزرا محل أرميا ، وزربابل محل حزقيا . أين موسى لقيادة الشعب فى هذا الخروج الثانى ؟ أين يسوع ليستقر بهم فى أرضهم ؟ أين سليمان لبناء هيكلهم ؟

كان يبدو إنه لا جواب سوى صوت الأنين والتنهد الذى نادى به الريح من الأرض الموحشة . وهكذا وجدوا أن أبطال الأيام الأولى وجبابرتها قد عفا عليهم الزمن . ومن ذا الذى يخلص الآن ؟

لكن انصت إلى أصوات رقباء السماء . إن عجز الإنسان لن يعطل المقاصد الإلهية . قد يتخلى عنا الصديق والمحب ، أو يعجزان عن المساعدة ، قد يعجز السند القوى عن إتمام وعوده السابقة ، قد تتداعى دعامة الأسرة ، قد يلازم العائل فراش المرض ولا يستطيع إعالة زوجته وأولاده ، ولكن الله لا بد أن يفعل كما تكلم . فإن

أمانته لا تتوقف على البشر ، وقدرته لا تتوقف على الوسائط . هو يستطيع أن يسخر الغربان لتأتى بالطعام « ذبل الزهر . وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد » (ع ٨) .

جميل جدا أن نستمع إلى هذه الشهادة الملائكية عن ثبات كلمة الله . طبيعى إننا لا نشك فى كلمة الله قط . فبها خُلقت السموات وكل جندها ، وبها تدور عجلة الطبيعة بصفة دائمة . ومع ذلك فطالما كان كل كياننا يتوقف عليها ، وطالما كانت هى قاعدة رجائنا فى الإنجيل ، فلنا كل العذر إن كنا نحيى باغتباط تأييد الشهادة السماوية عن ثبات كلمة إلهنا إلى الأبد .

(٤) أصوات للمناداة بالملك الراعى

إلى صهيون ، حصن أورشليم ، يصدر الأمر لتصعد إلى أعالى الجبال القريبة ، وترفع الصوت عاليا بلا خوف ، منادية مدن يهوذا المضطجعة خربة حولها بأن إلهها قادم لإحيائها . « قولى لمدن يهوذا هو ذا إلهك . هو ذا السيد الرب بقوة يأتى » (ع ٩ و ١٠) .

تطلعت كل الأعين لتنظر قدوم الرب الإله ، سيما وقد أعلن أنه سوف يأتى بقوة . ولكن هو ذا « كراعٍ يرعى قطيعه » بخطوات هادئة متئدة عبر الصحراء . بذراعه يجمع الحملان . وفى حضنه يحملها . ويقود المرضعات برفق (ع ١١) . وهذا يتفق مع ما أعلن لرسول المحبة بعد عدة أجيال نحو انتظار « الأسد الذى من سبط يهوذا . . فإذا فى وسط العرش خروف قائم كأنه مذبوح » (رؤ ٥ : ٥ و ٦) .

لا تخف من الله . فإن له قلب الراعى وحكمته . وهو لن يقودك بأكثر من سرعتك . ومتى أخرج خرافه فإنه يقينا يتقدمها . وهى تتبعه (يو ١٠ : ٤) ، ويجعل سرعة مسيره مناسبة لسرعتهم . إن لغة البشر لتعجز عن وصف محبته لها وشفقته من نحوها . وإذا قادها فى طريق وعر المسلك ، فلأنه لا يوجد طريق آخر يوصل إلى المراعى

الخضراء الجميلة . وإذا خارت قواك فإنه سيحملك . وإذا تثقلت بالمطالب المضنية ، صار لك هو نفسه لطفا . فهو الراعى الصالح الذى يعرف خرافه كما يعرفه الآب .

هذه هى الأصوات التى تتحدث إلينا من غير المنظور ، فطوبى لمن يعرف كيف يقضى كل يوم فترة سكون وهدوء لكى يستمع إليها . قيل عن أحد خدام الله الأمناء إنه كان من عادته أن يجلس صامتا أمام الرب فترة معينة فى نهاية كل يوم لكى يستمع إلى ما يتحدث به الرب . فلنردد القول الذى صرخ به صموئيل : « تكلم يا رب لأن عبدك سامع » .

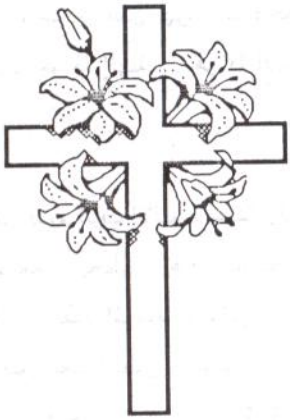

– ٣ –

لماذا تقول [1]

إشعياء ٤٠ : ١٢ - ٣١

اذهب وعد ذرات التراب التى تكون
الأرض وقطرات الماء التى تكون البحار
الفسيحة .
اذهب وعد نجوم السماء
واخبرنى كم عدد هذه وتلك
وحينئذ تدرك سر المحبة .

أوفام

يحسن بنا فى أوقات الشدة أن نتكلم قليلا لئلا نفرط بشفاهنا متذمرين مما أصابنا ، أو محتجين على الله ، كأنه قد نسى رأفته أو قفص برجزه مراحمه [2] . وكثيرا ما كان الكلام يزيد الحزن . فنحن نقول أكثر مما نعنى ، وفى تياركلماتنا الشديد نحن نغرق صوت الروح القدس الهادىء الخفيف الذى يتحدث الينا بالتعزية وكثيرا ما تكلمنا كأننا لا نعرف شيئا ، أو لا نسمع شيئا . لذلك فمن الحكمة أن نفصح عن الحزن بكلماتنا . والافضل أن نترك البحر المضطرب فى الداخل يهدأ من تلقاء ذاته ، « لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا اسرائيل » (ع ٢٧) .

أكان حقا ما قاله هؤلاء المسبيون ؟ لقد ظنوا بأن صبر الله نفذ من جهتهم ، وإنه لم يعد ينظر إلى طرقهم ، وإنه لم يعد يعنى بقضيتهم . لقد كانوا مستعدين للاعتراف بأنه

---

(١) « لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا إسرائيل قد اختفت طريقى عن الرب وفات حقى إلهى »(ع ٢٧) .
(٢) « مز ٧٧ : ٩ »

هو إله أبائهم ، ولكنه الآن نكث عهده ولم يعد يرحمهم . وقالوا أن هذا هو السبب فى أنه سمح لهم بأن يتعذبوا سنة بعد سنة فى سهول بابل . لقد تكلموا كأنهم لم يعرفوا قط الحقائق الرئيسية لطبيعة الله وطرقه ولا سمعوا عنها : « أما عرفت أم لم تسمع » (ع ٢٨) .

فى أحلك الساعات التى نجوزها حرى بنا أن نعود إلى التأملات التى ألفناها منذ الطفولة والتى تركناها أخيرا . مما يلاحظ بإهتمام أن الحزن يكشف معانى جديدة لأبسط الحقائق التى الفناها ، إنه يغوص مائة مرة فى أعماقها ، وبغتة يجد ملائكة جالسين . لنعدد بعضا من هذه الحقائق التى الفناها ، وعندما تتحول نفسك المتعبة من الناس ومن كل شىء من الضيق والألم وتلجأ إلى « اله الدهر الرب الخالق » ، فإنك تدرك أنه لم ينساك ولم يتركك ، وأنه لا يزال يسر بطريقك الذى يقودك من الغابة الكثيفة إلى نور الشمس ، وإنه يزن قضيتك بمنتهى الدقة .

كانت الطبيعة دواما ملجأ للمتألمين ، فايليا لجأ إلى حوريب والمسيح إلى جبل الزيتون وفى هذه الكلمات الرائعة التى تفوق كل بلاغة نجد أنفسنا مدفوعين للوقوف فى مظلة الرب ، لنصغى إلى تلاطم المياه ونرقب سير الكواكب .

حدثتنا إحدى الصحف بأسلوب جذاب عن أحد المفكرين المتألمين ، وعن تأثير الطبيعة فى نفسه . تحدث هذا المفكر عن شهر أبريل ، وبعد أن أشار إلى نضرة الحشائش ، وروائح الزهور العطرية ، ومناظر الجبال الخلابة وعن روعة جمال الربيع ، قال : « لقد إنقضت عدة أسابيع وشهور منذ ظننت أنى قد أصبحت كهلا ، ولكننى تركت نفسى تحت تأثير ما يحيط بى . لقد أحسست أن الأرض تطفو كسفينة فى بحر من الأثير ، ففى كل إتجاه توجد عدة أسرار والغاز بلا حدود وبلا حصر وبلا تغيير فقبلت هدب ثوب الله وشكرته لأنه هو روح وحياة . إن لحظات كهذه تعلن لنا الله وتجعل المرء يحس بالأبدية وتؤكد له بان الأبدية نفسها خليقة بأن تدفعنا لدراسة أفكار الله الأبدى وأعماله ، وتخلق فينا نشوة الفرح وتواضع المحبة » .

تصور لنا هذه الكلمات :

أولا : شهادة الأرض ع ١٢ - ٢٠ .
ثانيا : شهادة السموات ع ٢١ - ٢٦ .
وأخيرا : اختبارات أولاد الله فى كل العصور ع ٢٧ - ٣١

أولا : شهادة الأرض :

يبدو كأننا ندفع إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط . ونحمل إلى مكان قريب من موقع مدينة صور القديمة . أمامنا ينبسط البحر الكبير كما إعتاد العبرانيين أن يدعوه وعبر المياه ، بعيدا جدا يختلط البحر بالسماء فى دائرة الأفق يقول النبى : أذكر الآن أن يد الله قوية جدا ومتسعة للغاية حتى أن كل ذلك المحيط وسائر المحيطات الأخرى موضوعة فيها كنقطة فى كف رجل « من كال بكفه المياه » (ع ١٢) ، وأصابعه كبيرة جدا حتى إنها إذا إنبسطت تستطيع أن تقيس السموات « من قاس السموات بالشبر » (ع ١٢) . وذراعه قوية جدا حتى إنها تستطيع أن تمسك الميزان الذى إن وضعت فيه أعظم الجبال وكل جزائر الأرخبيل كانت بمثابة غبار دقيق فوق سنج التاجر النحاسية. وهذا الإله هو إلهنا من الدهر وإلى الأبد . إنه قد إتخذ لنفسه لا إسرائيل فقط بل يعقوب أيضا ، « وخالق أطراف الأرض » هو أبونا والخلقة إنما هى فى ضمن تفكيره أما أنت فانك إبنه ، ووارثه وحبيبه . تأمل كيف يعنى بالزنابق والطيور ، بأدق ريشة على جناح الحشرة وأدق حشيشة تنبت على الأحجار إذن فإنه لن يهملك ولن يتركك .

خلفنا تستقر الجبال ، وخلفها الجبال الأكثر إرتفاعا وخلف الكل جبال لبنان بقممها المغطاة بالثلوج . على أن كل أخشاب لبنان ، كل الأشجار التى زادتها السنون الطويلة صلابة والتى حطمتها الزوابع ، لا تعظم على أن توضع على مذبح الرب . وإذا أمكن جمع كل بهائمه ووضعت فوق هذه الأخشاب ذبيحة ، وإذا جعل لبنان نفسه مذبح الأرض العظيم ، فلا يكون هناك إسراف فى المحرقات العديدة التى تملأ السماء بنارها ودخانها . « لبنان ليس كافيا للإيقاد وحيوانه ليس كافيا لمحرقة » فعظيم هو الله الذى لا تعظم عليه أعظم تقدمة يستطيع البشر أن يقدمها ويا لها من حماقة أن نشبه الله بأى صورة منقوشة أو أى تمثال منحوت « فبمن تشبهون الله وأى شبه تعادلون به » (ع ١٨) .ولا مبرر للخوف مما

يستطيع أن يفعله الإنسان . ويقينا أن ذاك الذى لم يشفق على ابنه ، بل بذله لأجلنا على مذبح أعظم وتحت نيران أشد ، سوف يهبنا معه أيضا كل شىء مجانا .

قد يتجمع حولك كل البشر مسلحين ، ويحيطونك بتهديداتهم ، ويتآمرون لابتلاعك ولكن « هو ذا الأمم (قدامه) كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب . هو ذا الجزائر يرفعها كدقة كشىء تافه جدا وسكانها كالجندب » لذلك فلا مبرر للخوف . إذا إقترب اليك أعداؤك عثروا وسقطوا (مز ٢٧ : ٢) . « الرب قاضينا الرب شارعنا (مشرع لنا) الرب ملكنا هو يخلصنا » (إش ٣٣ : ٢٢) .

ثانيا : شهادة السموات :

ثم ينتقل المنظر إلى السموات وكل ما فيها . لقد أعلنت للنبى رؤيا سابقة عجيبة من دوران الأرض حول الشمس ، وصورت الرب « جالسا على كرة الأرض » ومتطلعا من هناك على كل سكانها ومن ذلك المكان السحيق يبدو عظماء بابل أنهم كلا شىء « يجعل العظماء لا شيئا » وأنه لا فرق بين الملك الجالس على العرش والعبد الجالس إلى الطاحون . هذا هو العلاج الشافى ضد الخوف . اجلس فى السموات لا تتطلع من الأرض إلى السماء ، بل من السماء إلى الأرض ليكن الله لا الإنسان هو بداءة إتجاه النظر .

على أن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد ، فإن النبى خيل اليه أن السموات الزرقاء « كسرادق » أو ستارة بسطها الله أو «كخيمة للسكن» يستريح فيها المسافرون (ع ٢٢) وإن كانت الخليقة خيمته ، يملأها فى كل جوانبها فما أحقر عظماء الأرض . « يجعل عظماء الأرض لا شيئا ويصير قضاة الأرض كالباطل » (ع ٢٣) ، فعلى كل أولاد الله أن لا يرهبوا أعظم حكام الأرض . قد يتجمع هيرودس وبيلاطس البنطى مع أمم وشعوب إسرائيل ، لكنهم لن يفعلوا إلا « كل ما سبقت فعينت يده ومشورته أن يكون » (أع ٤ : ٢٧) فإنهم ليسوا الا كالعصافة التى تذريها الريح .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد أيضا فالنهار يتغير إلى ليل ، وإذ يزداد الليل ظلمة تخرج الكواكب إلى مداراتها وعندئذ يسمو الخيال بالنبى فيبدو إليه بأن السماء قد تحولت فجأة إلى مزارع خضراء سار فيها قطيع وافر العدد من الغنم تتبع رعيها الذى « يدعو

كلها بأسماء » ياله من تفكير سام وخيال رائع . فان الله ، راعى الكواكب يقودها فى الفضاء ويرشدها بكل عناية وقوة حتى لايخرج أحدها عن حدودها ولايفقد أحد (ع ٢٦) .

« ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه ؟ من الذى يخرج بعدد جندها بأسماء لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لايفقد أحد . وإن كانت عناية الرب بالكواكب تصك إلى هذا الحد أفلا يعنى بأولاده ؟ ألايدعو كلا منهم باسمه ؟ ألايرشد كل واحد يحفظه ؟ الايحرص على أن لا يفقد منهم أحد » حينما يدخل خرافه إلى حظيرته فى آخر النهار ؟ إن الذى حفظ الكواكب مليئة بالنور ألوف السنوات الماضية ، وثبتها فى كل دوراتها العظيمة ، لا يمكن أن تقل عنايته بك يا من دعى إسمه عليك . « إن كنا قد صولحنا مع الله بموت إبنه فبالأولى كثيرا نخلص بحياته » (رو ٥ : ١٠) .

ثالثا : شهادة القديسين :

« ألم تسمع ؟ » (ع ٢٨) أين كانت أذناك ؟ هذا لم يخبر به فى السر ولا همس به فى ظلمات الأرض لقد كان أمرا شائعا ومألوفا لدى شعب الله فى كل الأجيال أن « إله الدهر لا يكل ولا يعيا » (ع ٢٨) . إنه لن يتعهد بشىء ثم يتغافل عنه ، ولن يبدأ ببناء أخلاق أى شخص ثم يتركها غير كاملة . إنه لا يكل ولا يعيا من تمرد أولاده وعصيانهم وارتدادهم وتقلبهم . لو لم يكن الأمر كذلك لخسرت السماء بعضا من أسمى شخصياتها . فيعقوب وداود وبطرس وعشرات الألوف غيرهم يقومون كعلامة على لطف الله وإمهاله وطول أناته التى يعامل بها كل الذين يقبلهم ضمن خاصته .

صحيح أنه قد يبدو بأنه ترك النفس ، أو دفع بها فى نيران التجارب بلا مبرر ، ولكن هذا ليس دليلا على أنه قد كلّ أو أعيا من مهمته ، بل هو دليل على أنه لا يمكن أن يصل بالنفس - التى أحبها - إلى أقصى حدود البركات إلا عن طريق أشد التأديب . « ليس عن فهمه فحص » (ع ٢٨)

هنالك ناحية أخرى يتفق فيها كل القديسين وهى أنه لا الكلل ولا الإعياء يمنعان الله عن إظهار قوته . بل العكس أنهما متى ظهرا فى أى إنسان صار هذا الإنسان أقرب إلى قلب الله . رأينا مرة طفلا ضعيفا يجذب اليه فى كوخه رجلا قوى العضلات ، كان وقتئذ بطل الألعاب الرياضية .

هكذا يستطيع الضعف أن يفعل فى القوة فعل السحر ، إن وصية الكتاب المقدس أن يحمل الأقوياء ضعف الضعفاء ، ولا يرضوا أنفسهم . وهذا هو ناموس الله . فإن كل شيء لدى الله إنما يحفظه لنا ، وكلما اشتد عوزنا إزدادت عطاياه لنا .

الواقع أن الكثيرين منا يشعرون فى أنفسهم أنهم أقوياء ويعتمدون على أنفسهم أكثر من اللازم لدرجة أنهم لا يستطيعون الحصول على كل ما يمكن أن يفعله الله . إنتظر قليلا حتى تبدأ قوتك أن تضعف تحت أثقالك الكثيرة ، وحتى تفتر همتك التى كنت تفخر بها ، وحتى ترى نفسك عديم القوة . وعندئذ يقترب اليك عزيز يعقوب ويمنحك قوة وشدة. يجب أن يخمع يعقوب على حق فخذه قبل أن يقتدر مع الله والإنسان .

« وأما منتظروا الرب فيجدون قوة » (ع ٣١) لكل مهمة جديدة ، ولكل تجربة جديدة ، يمنح الله قوة جديدة . كلما استجدت مهمة نالوا امتلاءا جديدا ومواهب جديدة من الروح القدس . يا له من فن نفيس (فن تجديد القوة) . كدنا نفقده هذه الأيام من كثرة المشاكل ولا شيء يعوض عنه ، حتى قوة الشباب وذكاء الشباب .

لاحظ التدرج هنا ، قد يبدو لأول وهلة أن الأمر ينتقل من المشى إلى الركض ، ومن الركض إلى الطيران ، أما هنا فنجد الترتيب عكسيا كأنه من الأيسر الأرتفاع بالأجنحة عن المشى بلا إعياء « يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون » (ع ٣١) . وهذا هو الحال فعلا فالجواد الذى يبدأ السبق بأقصى سرعة يندر أن يستمر فى سرعته ، والشخص المبتدىء فى ركوب الدراجة لا يستطيع المشى على مهل بل الوقوف . إن أعظم عمل نؤديه كمسيحيين هو أن نسير فى طريق الواجب اليومى العادى ، دون أن نتعب أو نعيا ، أن نفعل ذلك مع تقادم الأيام ، وحين تزول مرونة الشباب ، وحين لا يبقى أى أثر لمديح الناس . لأن هذه القوة الأرضية البشرية لا تجدى ، أما الله ففيه الكفاية « لا يكل ولا يعيا » هو شخصيا وهو يستطيع أن يمنح منتظريه هذه القوة التى لا تكل حتى إذا ما صعدوا « يرفعون أجنحة كالنسور » وإذا ركضوا فإنهم « يركضون ولا يتعبون » وإذا ساروا فإنهم « يمشون ولا يعيون » (ع ٣١).

- ٤ -

دعوة الأمم للاجتماع

إشعياء ٤١ : ١ [١]

أيها الإيمان المنتصر
يا من تحدق ببصرك من الأرض
إلى السماء مع بعدها السحيق
أنت تسير على الأمواج المتلاطمة
والنيران المتأججة
وتجتاز وادى ظل الموت
دون أن يمسك أقل أذى

تاتام

إن الفكرة التى تحملها الينا هذه الآية رائعة الجمال ، فإن النبى يمثل لنا الله وهو يدعو الأرض ، حتى الجزائر التى فى أقصاء الأرض ، لكى تقرر نهائيا من هو الإله الحق ، هل هو أو الأصنام التى يعبد منها عشرات الألوف فى كل أمة تحت السماء .

والمحك المقترح فى غاية البساطة ، فإنه يطلب من آلهة الأمم أن تتنبأ ببعض حوادث المستقبل القريب ، أو تبين أن لها دراية تامة بحوادث الأيام السالفة . « قدموا دعواكم يقول الرب . إحضروا حججكم يقول ملك يعقوب ليقدموها ويخبروننا بما سيعرض . ما هى الأوليات أخبروا فنجعل عليها قلوبنا ونعرف آخرتها أو أعلمونا المستقبلات ، اخبرونا بالآتيات

(١) « انصتى لى أيتها الجزائر ولتجدد القبائل قوة . ليقتربوا ثم يتكلموا ، لنتقدم معا إلى المحاكمة » .

فيما بعد فنعرف أنكم آلهة » (ع ٢١ ـ ٢٣). أما عبد الرب فكان مستعدا أن يبين كيف أن النبوات المحكمة الإغلاق التى اؤتمن عليها شعبه قد تحققت بحرفيتها فى الحوادث الراهنة ، كما كان مستعدا أن ينطق ببعض النبوءات القديمة عن كورش (الذى من المشرق) التى كان ينبغى أن تتحقق قبل إنقضاء ذلك الجيل . لم يكن الحال كما كان مع إيليا الذى طلب أن تنزل نار من السماء ، بل كان الطلب تحقيق النبوءة والإلمام بالحوادث التاريخية .

وللحال يحدث إضطراب عظيم ، فالجزائر تنظر وتخاف وأطراف الأرض ترتعد ، إنها تقترب وتجىء إلى كرسى الدينونة . وفى طريقهم اليه يأمر كل واحد صاحبه أن يتشجع ويتشدد ، ثم ترمم الأصنام المتهدمة بكل غيرة ، وتصنع أصنام جديدة . ويشدد النجار الصائغ والصاقل بالمطرقة يشدد الضارب على السندان . ويمتحنون « الإلحام » للتحقق من متانته ويمكنونه بمسامير حتى لا يتقلقل ، وحتى تكون الأصنام متينة (ع ٥ ـ ٧) . والرغبة التى كانت سائدة وقتئذ هى أن يعملوا لأنفسهم مجموعة من الأدلة تستطيع أن تثبت أمام تحدى الله ، كمن يحاول أن يستند إلى دعامة هى أوهى من خيوط العنكبوت .

يقدم لنا التاريخ بعض الأدلة القوية التى تؤيد هذا التباين بين نبوءات الوثنيين ونبوات العهد القديم الواضحة التى تحققت حرفيا بكل دقة . فمثلا يخبرنا هيرودوتس أنه عندما سمع « قارون » بقوة « قورش » المتزايدة انزعج جدا وخشى على مملكته حتى أنه أرسل هدايا نفيسة إلى الأنبياء الوثنيين فى دلفى ودودونا وغيرهما متسائلا عما ستؤول اليه غزواته . فرد عليه الأنبياء بهذه الرسالة الغامضة : إنه سوف يحطم إمبراطورية عظيمة ، ولكنهم لم يحددوا إن كانت هى امبراطورية كورش أو إمبراطورية قارون وبهذا كان يمكن لهؤلاء الأنبياء الكذبة أن يقولوا بعد إنتهاء المعركة إنهم سبق أن تنبأوا بمصيرها على الوجه الذى إنتهت اليه .

هذا مثل بسيط عن الطريقة التى كان يتنبأ بها هؤلاء الأنبياء عندما يلجأ اليهم الأفراد أو الأمم وقت الخوف والانزعاج يا له من فرق عظيم جدا بين نبواتهم وهذه النبوات الدقيقة جدا التى أمامنا فى هذه الصفحات التى تحدد لنا اسم الغازى ، الجهة التى يسطو منها على بابل ، سلسلة غزواته الموفقة العجيبة التى جعلت ملوكا كالتراب بسيفه ، وكالقش المنذرى بقوسه واحترامه لله ، وبساطته ونزاهة قصده (ع ٢ و٣ و٢٥ ، ص ٤٥ : ١) .

يعلمنا هذا أن ننظر إلى النبوات نظرة الإهتمام الشديد ، وعلى قدر اهتمام العصور السابقة بالمعجزات ينبغى أن يكون إهتمامنا فى هذا العصر بنبوات الكتاب المقدس . وإن أدلة النبوة لتزداد قوة على توالى العصور بين النطق وبين تحقيقها ، وذلك بعكس المعجزة . بين آثار مصر وبابل توجد أدلة منقطعة النظير على صحة بعض النبوات ، وقد تم كشف هذه الآثار فى الوقت الذى بدأ فيه المتشككون يوجهوا حملاتهم ضد الكتاب المقدس .

ومن الناحية الأخرى كم هو محزن وأليم جدا أن نرى بين الذين لم نكن نتوقع منهم قط ، إتجاه التفكير نحو خداع المخادعين والاصغاء إلى الأرواح المضلة ، وإنتعاش تلك الأرواح الكاذبة التى ذاعت فى العالم وقت تجسد المسيح ، والتى قال عنها ملتون فى قصيدته الخالدة انها قد تبددت إلى الأبد أمام آشعة شمس البر :

حين أشرقت الشمس على الشـــرق
بعد أن كانت تحجبها الغيوم القائمة
انقشعـــت كل الظلمـــات
وذعـــرت كل الأرواح المضـــلة
وولت هـــاربة بأقصـــى ســـرعة

وسط الإضطراب الذى أحدثته تلك الدعوة ظلت الأصنام فى صمتها وخرسها . وإننا لنتخيل كهنتها يحملون إلى الميدان فى ثياب زاهية براقة موشاة بالذهب والمعادن النفيسة ، ويضعونها فى صفوف ، ويتقدمون اليها بمجامرهم ، ومرددين صلواتهم التى يكررونها باطلا بطريقة مملة . ثم ينادى بالتزام السكون التام لإعطائها فرصة للتحدث فى المواضيع التى تعرض عليها ، ولكنها تظل فى جمودها المطلق ، فينطق الرب عليهم بحكمه الذى لا راد له « ها أنتم من لا شىء وعملكم من العدم رجس هو الذى يختاركم » (ع ٢٤) .

ثم يـردف الرب القـول : « ونظرت فليس إنسان ومن هؤلاء فليس مشير حتى أسألهم فيردون كلمة . ها كلهم باطل وأعمالهم عدم ومسبوكاتهم ريح وخلاء » (ع ٢٨ و ٢٩) .

إذا تقررت هذه الحقيقة العظمى فإن الحديث يوجه إلى شعب الله بكلمات مليئة بالتعزية العميقة . ولا تزال هذه الكلمات حية اليوم كما كانت حين النطق بها أو حين تدوينها .

(١) الظروف التى فيها يتحدث الله إلى شعبه

هم « البائسون والمساكين . طالبون ماء ولا يوجد . لسانهم من العطش قد يبس » (ع ١٧) . الهضاب جرداء والأودية عديمة الخضرة ، وسبيل حياتهم كائن وسط برية قاحلة ، وهم محاطون بأعداء أشداء يجاهدون ضدهم دواما ، وهم فوق ذلك عديمو القوة كالدودة . إن الله لا يجد مختاريه إلا وسط قوم كهؤلاء ليس الحكماء والفهماء بل الأطفال ، ليس العظماء والأقوياء بل المتواضعون والمجهولون . ليس الملك بل الغلام الصغير الذى يرعى الغنم ، ليس عالى بل صموئيل إنه يجدهم فى تواضعهم وحقارتهم حيث لا يعبأ بهم العالم وإذ يتخذهم له بنين فإنه بذلك يجعلهم لنفسه « إسما وفخرا ومجدا » (إرميا ١٣ : ١١) .

يجب أن يكون لله مجال للعمل ، يجب أن يفرغ القلب ليحل فيه ، يجب أن نعترف بالضعف لتحل علينا قوته . والكرمة لا تعطى عصارتها الا للغصن الخالى ، والماء لا يتدفق إلا فى الحوض الفارغ . وضعف الطفل هو الذى يعطى المجال لقوة الرجل للعمل وبؤس الجماهير الزاخرة التى كانت تلتف حول المسيح فى حياته على الأرض هو الذى قدم اليه الفرصة لإتمام معجزاته وإظهار قوته . وكلما إشتد البؤس قوى الدليل على مقدار ما يستطيع الله إتمامه للذين يتكلمون عليه ، إذن فتشجع إن كنت تجد نفسك وسط جماعة البؤساء والتعابى والخطاة ، فإن أعظم بركات ملكوت السموات مذخرة للمساكين بالروح ، للمضطهدين والمجربين ، للخراف الضالة ، وللأطفال الجائعين .

(٢) الضمانات التى يقدمها اليهم

لن يستطيع أن يفصلنا عن محبته أى عمق ، مهما كان عميقا ، أو علو مهما كان شاهقا . إنه يهمس الينا وسط الظلمات التى سادت حياتنا « لا تخف إنى معك » (ع ١٠) . لا مبرر للفزع من الأعداء مهما كثر عددهم أو إشتدت قوتهم ، لأنه لا يزال إلهنا المرتبط معنا بأوثق العهود ، والذى يستطيع أن يمد قلوبنا بقوات ذاخرة ، ويمدنا بخيل ومركبات نارية . إن فشلت الجهود البشرية فإنه يقوينا ويعضدنا وإن بدت الصعوبات مستحيلة التغلب عليها فإنه سوف يعيننا ، وإن أدمت الأقدام بسبب المسير فى البرية فإنه يضمد جراحنا بذراعه المقتدرة (ع ١٣ و ١٤) .

فى أحد المزامير نجد بعض الكلمات الرائعة التى تتفق مع إفتخار اليهود بأمجاد أورشليم مدينة الملك العظيم ، التى عرف الله فيها ملجأ . أراد الملوك المجاورون تخريبها فاجتمعوا وجازوا أمام حصونها المنيعة ، لكنهم إذ رأوا حماية الله التى لن تغلب تحيط بها بهتوا ، إرتاعوا فروا (مز ٤٨ : ١ ـ ٥) . هكذا حينما يجتمع الأعداء الأقوياء حول مختارى الله مهددين حياتهم أو طهارتهم أو مصالحهم ، فإن الله يبسط حولهم حصونه المنيعة التى لن تغلب ، حتى أن أعداءهم يصيرون « كلا شىء وكالعدم » (ع ١٢)أما النفس المحصنة بالحصون المنيعة فإنها تستمع الى صوت الرب مرددا تلك النغمة الحلوة المطمئنة المتكررة « لا تخف أنا أعينك » (ع ١٣) .

وعندما يمد الرب يمينه ليخلص أى واحد من قديسيه فإنه لا يكتفى بهذا ، بل يسير به الى مدى أبعد إذ يستخدمه لبركة الآخرين ولذلك فإنه لا يكتفى لتعزية « شرذمة [١] إسرائيل » بتأكيده لهم إستعداده لمعونتهم ، مرددا نفس الكلمات كمن لا يكل من ترديدها ولكنه يعدهم بأن يجعلهم « نورجا محددا جديدا ذا أسنان تدرس الجبال وتسحقها وتجعل الأكام كالعصافة » (ع ١٥) مهما كانوا محتقرين كالدودة .

---

(١) الجماعة القليلة العدد .

وهذه النبوة قد تمت بشكل عجيب فى تاريخ الأمة اليهودية التى كان لها هذا التأثير فى تاريخ العالم . وهذا ما يتممه الرب للذين يسلمون اليه تسليما كاملا . قد لا تكون فى نظر نفسك أكثر من دودة حقيرة ولكنك إن سلمت ذاتك لله تسليما كاملا فإنه يجعلك « نورجا محددا جديدا ذا أسنان » (ع ١٤ ـ ١٦) .

من ذا الذى لا يتوق أن يتجدد ، أن يمتلىء بالروح القدس إمتلاء جديدا ، أن يبدأ بداية جديدة فى الخدمة وفى كل نواحى نشاط الحياة ؟ من ذا الذى لا يريد أن يتخلص من البلادة والكلل والبرودة التى تنشأ من توالى الأيام ؟ من ذا الذى لا يريد أن يمنح قوة تدرس جبال الخطية والشر حتى تذرى كأكوام التبن المتراكمة فى البيدر أمام نسيم المساء ؟ ليت كل من كانت له هذه الرغبة يعزى نفسه بكلمة الرب هذه المطمئنة « أجعلك » . حينما يمسك بك « الرب فاديك قدوس إسرائيل » فإنه لن يعسر عليك شىء قط ولو كنت مثل دودة حقيرة .

(٣) والله يتكفل بسد كل إحتياجاتهم

ليست الحياة سهلة لأى واحد منا حين ينظر الى الظروف الخارجية ، ولكننا حالما ندرك الأسرار الإلهية نجد أنه قد فتح على الهضاب أنهارا تتدفق منها المياه ، فى وسط البقاع الصخرية ينابيع ، وجعل القفر أجمة ماء ، والأرض اليابسة مفاجر مياه ، وأنبت فى البادية أشجار مثمرة ، وفى البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت (ع ١٧ ـ ١٩) .

قد يبدو للعين المجردة أنه لم يحصل أى تغيير فى الحياة . فلا يزال المسكن متواضعا ، ولا يزال المرض شديدا ، ولا يزال الأبناء عليلين ، ولا تزال الحياة موحشة مليئة بالمتاعب ، ولا يزال الضيق خانقا ، ولا يزال الرجاء مماطلا . أما عين الإيمان فترى فردوسا رائع الجمال . سواقى تفيض ماء وتملأ الجو موسيقى شجية أشجارا مورقة تبسط ظلالها المحببة .

وما السر فى هذا التغيير ؟ ماذا يرى الإيمان ؟ كيف يستطيع أن يحدث هذا الانقلاب ؟

١- إن الإيمان يثق بأن الله موجود ، وأن وجوده هو الضمان لسد كل إحتياج وعين الإيمان ترى العليقة فى البرية تشتعل من حضرة الله .

٢- والإيمان يدرك أن الله قد إختارنا فعلا منذ الأزل ويثق بأنه قد إرتبط معنا بأوثق العهود التى لن تنقض ، وإن محبته وأمانته ملتزمتان بإتمام العمل الذى بدأ به .

٣- الإيمان يدرك بأن مقاصد الله السامية المشبعة بالمحبة تلازم كل تجربة ، وأن المطهر الأعظم له قصد من كل درجة حرارة يرفع البوتقة اليها ويرى مقدما تلك اللحظة التى فيها سوف يرى ما كان الله يراه كل الزمان ، والتى من أجلها كان يعمل الله .

٤- والإيمان يثق بان الآخرين يتعلمون من إختباراته (إختبارات الإيمان) دروسا لا يمكن تعلمها من سواه ، وأن كل شىء يؤول الى مجد الله فى الأعالى ، لأن البشر والملائكة « ينظروا ويعرفوا وينتبهوا ويتأملوا معا أن يد الرب فعلت هذا وقدوس إسرائيل أبدعه » (ع ٢٠) .

لعل بعض القراء قد أضناهم التعب والملل لعبورهم البرية يوميا « يطلبون ماء ولا يوجد ، لسانهم من العطش قد يبس » (ع ١٧) .ولكنهم إن تطلعوا الى العلاء بعين الإيمان لرأوا آبار الماء كما رأت هاجر وخصب أرض بعولة . يجوز الكثيرون من السائحين تلك الأرض ولا يرون فيها شيئا مما وصفه لنا يوحنا بنيان فى كتابه (سياحة المسيحى) لا يرون شمسا تضىء لهم ، ولا طير يغرد ، ولا جمالا يسحر الألباب ، كل هذه المباهج محيطة بنا ولكنها لا تدرك ولا ترى ، بينما يرى الآخرين فراديس فى أردأ الأماكن . والسر فى هذا الاختلاف يعزى الى توفر أو إنعدام الإيمان الذى يستطيع أن يغترف من الكنوز السماوية والينابيع الأبدية التى لا تنضب .

لذلك عز قلبك . إنتظر صابرا ، دع الإيمان يعمل عمله ، إنتظر الى النهاية تلك النعمة يؤتى بها اليك تأمل فى هذه الحقائق حتى تختبر أنت أيضا بأن ما يبدو برية قاحلة فى نظر الآخرين قد صار لك أنت جنة الرب .

— ٥ —

هوذا عبدى

إشعياء ٤٢ : ١ [١]

إنه لا يتخلى عنك بسبب عدم صبرك
بل يقف بجوارك فى صبر كامل
حتى تتعلم أنت أيضا الصبر
ولا تفقد جدة الإيمان
الذى يؤكد أنه بجوارك
(هـ . هاملتون كنج)

حين اتخذ المسيح شكل العبد ، وتمنطق وبدأ يغسل أرجل التلاميذ فإنه لم يفعل شيئا مستغربا لأنه إنما جاء ليخدم لا ليخدم . وهو يسود الكل لأنه يخدم الكل ، ولأنه هو الأرفع فكان ينبغى أن يكون الأكثر إتضاعا لكى يعلمنا ناموس الحياة الروحية الأزلى الأبدى . إذن فخدمة المسيح كانت إعلانا لخدمة السماء ، وإذا أتيح لنا أن نتعلم قواعد تلك الحياة التى ملأت مئات والوف البيوت بالبركة والغبطة والسعادة فى تلك السنوات السعيدة التى قضاها على الأرض ، وجدنا المثل الأعلى الذى نحتذيه فى خدمتنا لله وللإنسان ، ذلك لأن حياة المسيح وخدمته أعطتنا المثل الأعلى فى للخدمة .

لا سبيل الى الشك فى أن هذه الفقرة تنطبق على السيد المسيح ، فإن الروح القدس متحدثا بلسان متى البشير ، يطبقها مباشرة على المسيح ويبين أن معناها قد تم إتماما

(١) « هوذا عبدى الذى أعضده مختارى الذى سرت به نفسى . وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم » .

عجيبا فى تلك الحياة المنعدمة النظير التى بهرت العالم بضيائها الكامل فترة وجيزة (مت ١٢ : ١٨) .ليت ذاك الذى أخذ صورة عبد ، الذى كان بين تلاميذه كمن يخدم ، والذى يعتزم أن يخدم يوما ما خدامه الذين تعبوا فى خدمته حين يجتمعون معا على مائدته فى ملكوته - ليته يحل فى قلوبنا بشخصه لنستطيع على قدر طاقاتنا البشرية أن نعيد تمثيل حياة خدمته على الأرض ، فيغدق علينا من مواهب الروح القدس ويتعاون معنا فى الخدمة « وضعت روحى عليه » « فأمسك بيدك » .

إن الصفات التى يدعونا الرب لمشاهدتها فى عبده ومختاره الذى سرت به نفسه منقطعة النظير : وداعة إلهية . تواضع إلهى . مثابرة إلهية .

(١) مثل أعلى فى الوداعة

إن الله دائم العمل فى عالمنا هذا . فهو يضبط الكواكب فى دوراتها ويسقط الندى على العشب . ويرسل لنا أشعة الشمس كل صباح ، ويمد الحباحب (ذباب منير) بضيائها الوهاج ، هو الذى يسيج حولنا فى مسيرنا ورقادنا ، وهو الذى يحدد سقوط الأصداف الى قاع البحار .على أن كل أعماله تتم بهدوء .. بلا جلبة أو ضوضاء ودون أن ينطق بأية كلمة يبين بها أنه هو الذى فعلها ، حتى أن الكثيرين يدعون بان لا يوجد إله على الإطلاق .

هو الذى يقدم طعام الإفطار الى ربوات من البشر فى الغابات والبحار والبيوت ولكنه ينسحب قبل أن نرى ذاك الذى ندين له بكل شىء ، نحن نعلم أنه هو الذى كان يعمل لكى يمدنا بالطعام لكنه إنسحب دون أن ينطق بأية كلمة ، ودون أن يترك أى أثر لوقع أقدامه ، لكنه ترك فقط الأثر الواضح .

هكذا كان الحال مع عمل المسيح . فإنه إنتهز أولئك الذين أعلنوا ألوهيته وأذاعوا صيته . وهو طالما طلب ممن كان يصنع معهم الرحمة أن لا يتحدثوا عنه شيئا ، وقد إعتزل عن الجموع التى كانت مكتظة عند أروقة بيت حسدا ، حتى أن المفلوج الذى شفى لم يعلم من الذى شفاه . وقد بقى فى مرتفعات الجليل حتى قاومه إخوته ، كان « لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته » (ع ٢) .

هذه الصفة هى طابع يد الله على أسمى الأعمال . إن أمهر الفنانين لا يسجلون أسماءهم على صورهم ، ولا يحشرون صورهم الشخصية وسط مجموعة الصور التى يرسمونها بل يكفيهم أن يشهدوا للكون وجماله ، وهم لا يطمعون فى شىء أكثر من أن يذيعوا ما رأوه فى قدس أقداس الطبيعة ، أو فى جمال الوجه البشرى . فربح نفس الله ، وتطهير الأبرص من برصه ، وفتح عينى الأعمى ، وإقامة الميت وتقديمه لأمه وأخته أو صديقه ، هذا أسمى جزاء ينالونه . وتحويل النظر عن عمل الرحمة الذى يتم الى وجه الله ، والثقة بأنه قد رضى عن خدمتنا ، وقبول الجزاء من الآب الذى فى الخفاء . هذه هى السماء بالنسبة الى مدح الناس الذين لا قيمة لمدحهم ولا قيمةأيضا لإنتقادهم .

هل أنت واثق يا شريكى فى الخدمة أن هذه هى طبيعة نفسك ، وصفة خدمتك ؟ إن كان الأمر بالعكس . إن كنت في خبيئة نفسك تطلب المدح من الناس ، إن كنت تحس برغبة داخلية فى الإعلان عن نتيجة عملك على صفحات الجرائد ، وأن تصبح حديثا عاما على ألسنة الناس ، فثق بأن خدمتك آيلة للإنهيار سريعا . لقد حان الوقت لكى تعتزل فى مكان خلاء لكى تتنقى نفسك مما علق بها من أدران . إن العمل الوحيد الذى يرضى الله ، والذى يكتب له الدوام والتوفيق ، والذى يشترك فى طبيعة المسيح ، هو الذى لا يحتاج الى إعلان ولا يطلبه . فالطير يكتفى أن يغرد ، والزهرة تكتفى بأن تكون جميلة والطفل يكتفى بأن يكشف طبيعته لعين المحبة ، والخادم الأمين يكتفى بأن يتمم إرادة الله .

(٢) مثل أعلى للتواضع

إن أسمى أعمال الله قد تمت مع غلمان رعاة أغنام أخذوا الى العرش من حظائرهم مباشرة ، مع أصغر الأبناء الذين لا شهرة لهم قط ، مع عذارى مجهولات فى إحدى القرى . لقد أنزل الله الأعزاء عن الكراسى ورفع الودعاء والمتواضعين . هذا ما فعله الرب يسوع ، فإنه تجاوز قصر هيرودس وإختار بيت لحم بهدها فى مزود البقر ، ورفض العروش العالمية مفضلا طريق الصليب ، وإختار رسله وتلاميذه من طبقة الفقراء ، وأعلن أعمق أسراره للأطفال ، وترك معاشرة الفريسيين والكتبة ووجه كل جهده للقصبة المرضوضة والفتيلة المدخنة ، للص على الصليب والنسوة الساقطات ، ولفلاحى الجليل .

« قصبة مرضوضة » يا له من تشبيه ينطبق تمام الانطباق على القلب المنسحق تحت المظالم والقسوة . لا شيء من الجمال فى أوراقها الداكنة ، ولا شيء من القوة فى ساقها النحيف . ولا شيء من الجمال فى المستنقع الملىء بالميكروبات الذى تنبت فيه . وإن كنت لا تجد شخصا يرتحل الى مسافات شاسعة للبحث عن قصبة فإنك بالأحرى لن تجد من يجد فى البحث عن قصبة مرضوضة حطمتها أقدام البهائم والفلاحين . هكذا تتحطم قلوب البشر فإنها هشة ، سهلة الإنكسار ، لا تقوى على مقاومة ضغط الإنفعالات الجنونية التى تبعثها محبة الذات ، أو ضغط المعاملات القاسية . وحين تنكسر فإنها لا تحدث صوتا ، وعندئذ تطرح خارجا كأنها لا قيمة لها ، ولا تستحق التفكير فيها .

« فتيلة خامدة » (أو مدخنة) :

كيف تحترق مدخنة بغير لهب ؟ كيف تسرى شرارة النار الواحدة بعد الأخرى ببطء فى نسيجها ؟ كيف تعجز عن أن تشعل النار فى أرق قطعة من القماش ؟ هكذا تكون المحبة فى القلب فاترة جدا كفتيلة مدخنة ، حتى إنه لا يدرك وجودها إلا ذاك الذى يعرف كل شيء . قد تكون متقلبة ، شاذة ، عديمة الاشتعال . أيها القارىء العزيز ، لقد مرت عليك ساعات اختبرت فيها معنى فتور المحبة كالفتيلة المدخنة بدل قوتها المشتعلة الوهاجة .

إن خادم المسيح ، الذى ليست له إلا الحياة السطحية يتجاهل هذه الحقائق بتعجل ويتجاوزها باحثا عن مواضيع أخرى تتفق مع قوته ، ويقول إعطنى مجالا فأخلق فيه نفوسا طيبة نبيلة ، بل أخلق فيه أبطالا . إعطنى ميدانا أنازل فيه أعدائى الجديرين بمبارزتى . كلفنى بمهمة تبرز فيها خزائن معرفتى . وإذا فشل إدعى أنه قد أسىء اليه ، وكثيرا ما تسمع منه هذه الكلمات « لن أفعل شيئا إن كنت لا أستطيع أن أتمم أفضل شيء » يا لها من كلمات ملينة بالجهل والغباوة . إن أجل عمل وأنبله أن تنحنى بتواضع نبيل لخدمة أولئك الذين يحتقرهم العالم ، مظهرا مهارة سامية وحذقا مقدسا ، أن تخلق من القصبة المرضوضة آلة موسيقية أو قصبة مقياس لأورشليم الجديدة ، أن تشعل بصيص النار فى الفتيلة المدخنة ، حتى تصبح تلك التى كادت تنطفىء فى قلب بطرس واسطة لإشعال النيران فى قلوب ثلاثة آلاف نفس فى ظرف سبعة أسابيع من تاريخ تهديدها بالانطفاء .

هذا أيضا محك الخدمات الصادقة . ما هو موقفك يا شريكى إزاء هذا المحك ؟ هل أنت تطمع فى مجال أوسع أو مركز أرفع ؟ هل تتذمر بسبب الجهود المضنية اللازمة لتقديم الإنجيل للجهلاء ، أو للمثابرة أمام نكسات الضعفاء المتكررة وارتدادهم المتوالى ، أو لمحاربة مخاوف الجبناء والشاكين ، أو فض المنازعات المستمرة بين حديثى الإيمان أو النزول الى مستوى الضعفاء ؟ حذار ، فإن خدمتك فى خطر الحرمان من أسمى الصفات . إختل بالله - قبل أن تضيع الفرصة - لكى تتعلم أن أنبل الشخصيات توجد أحيانا فى الأجساد المرضوضة ، وأن أجل الأعمال كثيرا ما تصدر عن فتيلة مدخنة .

(٣) مثابرة إلهية

رغم أن الله يعنى عناية تامة بالقصبة المرضوضة والفتيلة المدخنة فإنه هو شخصيا ليس هذه ولا تلك . إنه لا ييأس ، ولا يفشل « لا يكل ولا ينكسر » . فى بدء تكوين العالم كانت الفوضى والإضطراب يعملان عملهما ، ولكن طول أناة الله تجلت حتى خلقت السموات والأرض التى نراها اليوم فى أبدع صورة ، مما استحق أن يصدر النطق الإلهى « ورأى الله كل شىء حسن » . هذا هو الحال فى عالم الروح فإن الأجيال التى تعاقبت بعد مشهد الصليب وتقديم الذبيحة العظمى قد تخللتها فقرات من الفوضى وأخرى من النظام ، فترات من الهمجية وأخرى من المدنية الراقية . وفى القرن الثامن والقرن التاسع والقرن العاشر بنوع خاص كان يبدو كأن ينابيع الدموع وأنهار الدماء التى سكبت فى القرون السالفة قد ذهبت أدراج الرياح . ولكن السيد لم ييأس قط ولم ترتخ يداه بل تمم قصده ، ساءت الظروف أو أحسنت .

هذه أيضا صفة أجل الخدمات . إن ما يصدر عن الجسد يكون مشبعا بروح الحدجة والغضب ، ويوعز بإنقاذ بنى إسرائيل بالقوة التى تقتل المصرى وتدفنه فى الرمال . ولكنها سرعان ما تكل وتعيا وتنطفئ .

إن التخلى عن أى عمل بدئ فيه بتسرع وعجلة ، يدل على أن الدافع اليه لم يكن اقتناع الروح بل قوة الجسد . أما المثابرة إزاء التغيير والصعوبات ، والانتقاد المر والبغض القاتل ، فإنها دليل على أن المهمة قد أتت من الله وإن النفس الملتهبة غيرة تستمد قوتها

من المصادر الإلهية . إن كانت هذه المثابرة تنقصك فإمعن التفكير فى مهمتك حتى تتأكد إن كانت من الله أم من إختيارك الشخصى . وفى الحاله الأخيرة إتركها أما فى الحالة الأولى فانتظر الله حتى يجدد قوتك . وحينئذ تجد أنك أنت أيضا لا تيأس ولا تفشل « لا تكل ولا تنكسر » .

على أن هذه الصفات مهما كانت سامية لا تفيد - معنا على الأقل - ما لم تمنح فوقها قوة من الأعالى « أضع روحى عليه » . لقد تم هذا الوعد عند مياه الأردن ، لأنه « عندما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد إنفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه » وعندئذ فتح فاه وبدأت خدمته العلنية ، لقد ظل ثلاثين عاما فى الناصرة لا يشاء الظهور أما الآن فقد تقدم الى العالم قائلا « روح الرب على لأنه مسحنى لأبشر » (أش ٦١ : ١ ، لو ٤ : ١٨) .

هكذا أيضا عمل الروح القدس فى الكنيسة ، فإنها مسحت لإتمام رسالتها الإلهية بين البشر . وإستقرت عليها مسحة القدوس على أن تدوم وتتمجد على مر الأجيال . ومع ما تم مع الكنيسة يجب أن يتم مع كل عضو فيها . إن ملء الروح القدس مقدم للجميع . ويتم الحصول عليه بالإيمان ، وهو يعدنا بصفة خاصة الى الخدمة . هل حصلت على نصيبك ؟ وإن كنت لم تحصل فهل تشعر أنك مخطئ لمحاولتك إتمام عمل الله بدونه ؟ إلبث حتى تنال ملئا جديدا .

هل عرفته ؟ إطلبه فى بدء كل عمل جديد ، لا تقتنع الا بأن تنال ملئا جديدا ومع ذلك فإن هذا ليس كل شئ . فهذه الكلمات « أمسك بيدك وأحفظك » تتضمن تعاون الروح القدس مع كل خادم أمين . فإننا عندما نبدأ التكلم بكلمة الله يستقر الروح القدس على السامعين . وحينما نشهد لموت المسيح وقيامته ومجده فإنه يشهد أيضا للضمائر والقلوب . وعندما ينطق الصوت من السماء على شفاهنا فإن الروح القدس يقول آمين . وهكذا يؤيد الروح القدس كل كلام الله الذى ننطق به ، كمن يحاول أن يثبت عمليا ما شرحه المحاضر شفويا لسامعيه .

إن ضرورة الإعتماد على معاونة روح الله القدوس فى الخدمة الروحية أمر يحتاج إلى تأكيد . فإنه لا يقتصر على أن يحرر الخادم من التفكير المضنى الذى لا مبرر له قط بالقاء كل المسئولية على شريكه الإلهى ، بل أيضا يمده بقوة لن تقهر قط . هذا ما يعنيه الرسول بقوله « شركة الروح القدس » (٢كو ١٣ : ١٤) . سعيد هو الشخص الذى تعلم شركة كهذه فى القصد والخطة مع الروح القدس . لكى يستطيع أن يستمد أكبر معونة ممكنة من تعاونه .

هذه هى المبادىء الإلهية للخدمة . وهى جديرة بالدرس من كل واحد منا أردنا أن نستمع الى الله يقول عنا ، على قدر طاقاتنا البشرية ، « هو ذا عبدى الذى أعضده . مختارى الذى سرت به نفسى » .

- ٦ -

أنتم شهودى

إشعياء ٤٣ : ١٠ [١]

حول عينى عن أباطيل الحياة المتزعزعة
وارفع قلبى وروحى الى السماء
التى ليس فيها تغيير ولا ظل دوران
دعنى أرى قصدك الذى هو للخير
لكى أتمسك به وحده
أما العواطف غير الثابتة
فحررنى منها بالتمام
(كامبل شارب)

إن الفكرة الرائعة التى يفتتح بها الإصحاح ٤١ تتكرر فى هذا الإصحاح . فهنا تتكرر نفس الدعوة العامة التى توجه الى العالم لكى يقرر إن كان الرب هو الله أم الصنم هو الله . فى الساحة تصف بضع تماثيل لا حول لها ولا قوة ، منقوشة نقشا بديعا ولكنها لا قدرة لها على النطق وتنتظر حتى يحملها كهنتها الى بيوتهم . وقبل أن ينفض الاجتماع يوضح الرب مطالبه ، ولذلك يدعو شعبه المختار الى موقف الشهادة ، لكى يخبروا الناس بما عرفوا ويشهدوا بما رأوا .

هذه دعوة جديرة بالإهتمام فى ص ٤٢ : ١٩ يوجه إليهم التوبيخ لأنهم عمى وصم ، بل لأنهم قد وجه اليهم الحديث كأنهم قادرون على الشهادة بما سمعوا . ورغم انهم

---

(١) « أنتم شهودى يقول الرب وعبدى الذى اخترته لكى تعرفوا وتؤمنوا بى وتفهموا إنى أنا هو . قبلى لم يصور إله وبعدى لا يكون »

فوتوا على أنفسهم فرصا كثيرة ، ولم يتقدموا فى معرفة الله كما ينبغى ، إلا أنهم يعرفون عنه أكثر من أية أمة أخرى على وجه الأرض . ويتحدثون بأسرار تخفى على أحكم الحكماء « أنتم شهودى يقول الرب وعبدى الذى اخترته » .

تأمل اليهم ، إنهم يجتمعون ويقفون وجها لوجه أمام الممالك التى سلبتهم وأخربتهم بكل قسوة ليشهدوا لذاك الذى طالما أهين إسمه بسبب خطاياهم . وفى الفترة التى دعوا فيها ليقدموا شهاداتهم كانوا فعلا فى السبى ، وعددهم قد تناقص ، نفوسهم مستكينة ذليلة بسبب الآلام التى لحقتهم ، والمظالم التى حاقت بهم . ومع ذلك فهكذا تكون قوة الشهادة للحق . لأن شهادتهم كانت ستخرس كل الأصوات الأخرى ، وتقضى على كل الإدعاءات الأخرى ، وتثبت بأن الرب هو الله « وليس غيره » . إن كانوا قد قهروا أو إندحروا من ناحية القوة العالمية فإنهم أقوياء وفى غاية السمو من ناحية الحق . هكذا وقف المسيح فيما بعد موثقا أمام ممثل روما العظيمة شاهدا للملكة التى ليست من هذا العالم ، والتى كان ينبغى أن تتلاشى أمامها روما ، ويطوح بها فى أرض النسيان .

تأمل إذن إلى اليهود يدخلون الميدان حاملين كتبهم المقدسة الموقرة . وكان المحك كما رأينا هو :

† « هل نطق الرب بنبوات تحققت ؟ »
† « هل تحدث إلهكم عن المستقبل ؟ »
† « يقينا »
† « قدموا بعض الأمثلة »
† « فى أقدم كتبنا قال لأبينا إبراهيم أن نسله سوف يقضون فترة طويلة فى العبودية فى مصر . وكان ذلك قبل حصوله ببضعة أجيال . ثم أنبأه بأنهم سوف يخرجون وسط احكام عظيمة ليسكنوا الأرض التى كان متغربا فيها . وهذا تم فعلا بكل دقة . »

« وأيضا سبق أن أنبأ الرب هاجر أن ابنها إسماعيل سيكون « إنسانا وحشيا » ويعيش فى نزاع مع كل جيرانه (تك ١٦ : ١٢) وهذا ما تم أيضا فى تاريخ أدوم .

« وأيضا عندما أطلع ملكنا العظيم حزقيا رسل ملك بابل على خزائنه فى ذلك اليوم الخطير تنبأ الله على لسان أشعياء بأننا سوف نحمل أسرى الى تلك الأرض . ويصير رؤساؤنا متقدمين فى قصر الملك الذى أسرنا . وهذا ما هو حاصل اليوم . »

لقد احتفظ اليهود بهذه الشهادة فى كل العصور . تأمل فى بابل اليوم وهى مهجورة فى وسط الصحراء ، لا يقيم فيها إعرابى خيمته ولا يرعى راعى قطيعه . بل أصبحت مأوى للوحوش الضارية ومسكنا للشياطين (إش ١٣ : ٢٠ و ٢١) .

تأمل فى صورالتى يعيش مكانها جماعة من الصيادين معيشة وضيعة ينشرون شباكهم على خرائبها ، أما الميناء الجميلة التى كانت فى أيام ناحوم تتدفق اليها ثروة العالم ، فقد أصبحت أطلالا دارسة .

تأمل فى أدوم التى تعشش العصافير فى بيوتها المنحوتة فى الصخر بكميات وافرة جدا ، والتى أصبحت مهجورة لا يدخلها إنسان . لن يستطيع العقل غير المتحيز مقارنة هذه الوقائع بنبوات العهد القديم دون أن يقوم لديه الدليل القاطع على صحة الكتاب المقدس .

بل أن نفس وجود الشعب اليهودى مشتتا فى كل أرجاء العالم ومع ذلك محتفظا بشخصيته دون أن تبتلعه الشعوب التى زج بنفسه فيها ، وكونهم لا يجدون قرارا لأقدامهم ، بل يحملون قلوبا مرتجفة ، وعيونا كليلة ، ونفوسا ذابلة ، ترتعش فرائصهم فى الليل والنهار ولا يأمنون لحياتهم كل هذا يتفق مع كلمات موسى فى سفر التثنية (٢٨ : ٦٥ و ٦٦) .

على أن مهمة الشهادة لله ليست محصورة فى الشعب اليهودى ، بل يجب أن تشترك فيها الكنيسة ، كما يستفاد من كلمة الرب الصريحة . فالكنيسة والروح القدس يشتركان فى الشهادة لموت وقيامة ابن الله . « فتكونون لى شهودا فى أورشليم اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض » . وكما شهد الملك للحق ينبغى أن تشهد رعيته للحق الذى فى يسوع ، حينما غربت حياته المنقطعة النظير خلف الجلجثة وتوارت عن أعين البشر ، شهدت الكنيسة أنه حى الى دهر الدهور ، وذلك إذا امتلأت واستضاءت بروح الشركة معه . يصح أن يقال عنها كما قال المرنم عن الأجرام السماوية : « يوم إلى يوم تذيع كلاما . وليل إلى ليل تبدى علما . لا قول ولا كلام . لا يسمع صوتها . فى كل الأرض خرج منطقها وإلى أقصى المسكونة كلماتها » .

هذه أيضا مهمة المؤمنين كأفراد لا أن يتحاججوا ويتناقشوا ، لا أن يوضحوا ويبرهنوا ، لا أن يعملوا كوسطاء ومحامين ، بل أن يعيشوا وفق ما يعلنه الروح القدس للأتقياء القلب والبسطاء ، ثم يخرجوا شاهدين بأن الأمور هى هكذا .

وكما أن البديهيات الرياضية لا تدعو الى شرح ولا تحتاج الى نقاش بل أنها تذكر كحقيقة راهنة ، وفى مجرد ذكرها كل الكفاية لتقريرها نظرا لصلة القرابة بينها وبين تشكيل العقل البشرى ، هكذا تكفى الشهادة للحق وسط أباطيل الحياة وأغلاطها وأخطائها وخداعها وفى اللحظة التى ينطق فيها به يجد قبولا فى العقل المستنير بالروح القدس ، الذى ينهض ويصرح بأنه هو نفس حق الله .

هنالك ثلاث نواح يطلب من كل مسيحى أن يشهد لها . وهذه تستفاد من الكلمات الرائعة اللامعة التى احتلت هذه الدعوة للشهادة مكان الصدارة فيها . وليس هنالك أي مبرر للتردد فى تطبيق الكلمات التى وجهت أولا لليهود على أنفسنا ، لأن الرسول يخبرنا بصراحة « إننا لم نعد أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد .. بل رعية مع أهل بيت الله » (اف ٢ : ١٢ - ١٩) . وقد أكد الرسول أيضا أن « الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن » وأن « بركة إبراهيم فى المسيح يسوع تصير للأمم » (غل ٣ : ٩) .

(١) لنشهد للمحبة التى لن تكل

فى ختام الأصحاح السابق نرى صورة مرعبة عن حالة إسرائيل « كشعب منهوب ومسلوب قد اصطيد فى الحفر كله وفى بيوت الحبوس اختبأوا .. سكب عليهم (الرب) حمو غضبه وشده الحرب » . وفجأة يلتفت إليهم الله ويقول : « لا تخف لأنى قد فديتك . دعوتك باسمك . أنت لى . صرت عزيزا فى عينى مكرما وأنا قد أحببتك » .

« أنت لى » هاتان كلمتان بسيطتان جدا . قد تستمع اليهما من فم الأم إذا ضل أبنها الطريق ثم وجدته واحتضنته . إننا نعبر عن أعماق عواطفنا بأبسط الكلمات . والأم تفصح عن أرق عواطفها وأعمقها بأبسط التعبيرات . كثير عليك أيتها النفس المهجورة فى

السبى ، المنهوبة والمسلوبة ، إن الله مازال يعترف أنك له ، ولا يهدأ له بال حتى تجيبى قائلة « أيها الإله العظيم الصالح أنت لى » لا الخطية ولا الأحزان تستطيع أن تفعل تلك الرابطة التى ربطتها يد القدير بين نفسك الضعيفة ومحب البشر الأبدى .

« **عزيز** » لم يستطيع إسرائيل أن يدرك عمق معناها . ويقينا أن أى شخص غير خبير بطرق الله لا يخطر بباله أن الله حسب شعبه عزيزا وثمينا ، . ولكن رغم ذلك فلا تزال هذه الكلمات المكتوبة بحروف من نور تضىء بضيائها البهيج « صرت عزيزا فى عينى » نعم ، أيتها النفس البشرية ، أنت هى اللؤلؤة كثيرة الثمن التى لأجلك باع التاجر طالب اللآلئ النفيسة كل ما كان له وإشترى العالم الذى كنت منبوذة فيه كحجر عادى لا قيمة له . إن كنت عزيزة فذلك يعزى الى المتاعب التى إحتملت ، الثمن الذى دفع ، والوقت الذى أنفق ، والمجهود الذى بذل فى الصناعة . وهذه النواح الثلاث قد تجلت بشكل عجيب فى تصرفات الهك معك .

« **مكرم** » . إن أصلنا من تراب . كان أبونا أموريا ، وأمنا حثية . وفى يوم ميلادنا لم يشفق علينا أحد ، بل كنا مطروحين فى الخلاء ومنبوذين . وكم هو عجيب جدا أن نعرف إن الله مستعد أن يقيم أشخاصا كهؤلاء من التراب ، ويرفعهم من المزبلة ، ويجعلهم يجلسون مع الرؤساء ويرثون عرش المجد . ما أحقر ألقاب العالم فى نظر من يدعوهم الله مكرمين . فإن أسمى الملائكة نفتخر بأن نخدمهم . وحاضنوهم ملوك (ص ٤٩ : ٢٣) . فاحسب نفسك كمن يسر الله بأن يكرمه .إنه لا يليق بأمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى أن يلقوا بأنفسهم فى المزبلة .

« **وأنا قد أحببتك** » . هذه الكلمات لا تحتاج الى شرح أو إيضاح ، فعلينا أن نجلس للتأمل فيها ، ونفتح قلوبنا لتأثيرها العجيب . علينا أن نثق فيها ، وفى أحلك الساعات حين لا ترى الشمس أو القمر أو النجوم ، علينا أن لا نشك قط أن محبة الرب لنا قوية كالموت .

إن مهمة المؤمن هى أن يعرف كل هذا ، ويشهد له ، أن يبرزه فى مواجهة كل الظروف الأليمة ، أن يستمر فى شهادته وسط هذا العالم رغم ما يوجهه اليه من أسئلة مليئة بالتشكك والتشاؤم ، أن لا يتعثر ولا يصغى للشكوك التى يحاول بها العدو أن يبتلع نفسه ، أن لا يحكم من المظهر الخارجى لأعمال الله بأن الله قاس فى تصرفاته .

(٢) لنشهد للمقاصد الأزلية التى لن تتعثر

الله لا يقول « تأملوا فيما عمل بالأمس » . بل يعود الى المقاصد الكائنة منذ الأزل ، يشير الى ما تم فى بيت لحم والجلجثة ، الى العهد الأبدى ، الى الإتجاه العام لتصرفاته معنا . إنه يقول إقرأ كل الكتاب ، إرجع بذاكرتك وتأمل كل الحقائق على حقيقتها ، حدق بنظرك وإنظر الجذور القوية التى تدعم شجرة حياتك المتواضعة . « لا تخف لأنى فديتك ، دعوتك بإسمك ، أنت لى ، لمجدى خلقتك ، وجلبتك وصنعتك » (ع ١و٧) .

أيعقل أن المقاصد التى تتصل جذورها بالأزلية تتعثر بسهولة ؟ قد تتطاير محبة الأمس كما يتطاير الندى من الأرض ، قد يعدل بسرعة عن المقاصد التى دبرت بتسرع ، واليقطينة التى بنت ليلة كانت ؛ فى ليلة تهلك . أما إختيارك فهو مدبر وفق الفكر الذى كان يملأ عقل الله قبل أن تخلق الشمس ، وقبل أن تخلق الملائكة .

هذا يتطلب أيضا شهادتنا . إن الناس يسيئون الحكم على الله لأنهم لا يرون إلا نواح ضئيلة من أعماله ، وينتقدون الخطط التى لم تتم بعد . إن قصر البصر والتعجل والتسرع والحكم المقلوب ، يجب أن تصحح بالحكم الهادئ المتزن الناضج الذى يجب أن يرى خطة الخليقة فى كمالها ، وإدارة الكون فى حكمته . فواجبنا أن نلجأ الى هذا ونشهد للمقاصد البعيدة الأمد ، التى تتحرك ببطء حتى تصل الى كمالها .

(٣) ولنشهد للخلاص الذى لن يفشل

الله لا يبعد أولاده عن المياه والنيران ، ربما نظن العكس ، ونتوهم بأن الله لن يسمح لنا بإجتياز المياه والأنهار أو المشى فوق النار . لكن كلا ، فالمفروض أنه يجب أن تكون هنالك المياه والأنهار والنار ، طوفان من الأحزان ، ونيران من البغض والحقد .

« إذا إجتزت فى المياه فأنا معك . وفى الأنهار فلا تغمرك . إذا مشيت فى النار فلا تلذع واللهيب لا يحرقك » (ع ٢) . إن شعب الله لا يخلصون من التجربة بابعادهم عنها بل يخلصون وهم فيها . والنار والمياه عناصر مطهرة لا غنى عنها . فالذهب والفضة ، النحاس والحديد والصفيح ، وكل شئ يحتمل النار ، يجب أن يجتاز النار ليصفى ، « وأما كل ما لا يدخل النار فتجيزونه فى الماء » (عد ٣١ : ٢٣) .

يتعجب العالم أحيانا إذ يرى شعب الله يكابدون المتاعب كباقى البشر ، غير عالم أن الملك نفسه جاز المياه والأنهار ، وغير عالم أيضا أن فى الأنهار معابر ، وفى النار مسالك . إن الله لا يأخذنا الى المدينة التى لها الأساسات فى طريق سهلة المسالك .

يجب أن نشهد لهذا أيضا ، لكى نبين صفات الله ونزيح عنها كل شبهات الأشرار . وهو لا يشهد لنفسه بل يجب أن نشهد نحن له .

ومكان الشهادة هو البيت ، محل العمل ، المصنع . أى مكان يداس الحق فيه أو يساء الظن فيه . هنالك نحن مدعوون للشهادة للرب إلهنا بقوة الروح القدس الشاهد .

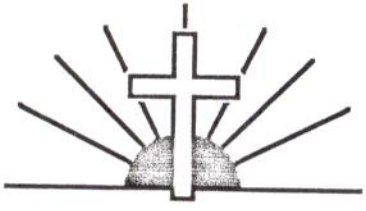

- ٧ -

تغيير المقاصد الإلهية

إشعياء ٤٣ : ٢١ [١]

ليس للمؤمن المختار أن يختار العمل الذى يؤديه
ليس له أن يقول سأفعل هذا أو ذاك
فهناك يد تمتد اليه فى الخفاء
لترشده إذا أمسك بها بدون تردد
وتبين له الخدمة التى يؤديها لله

لويل

تشير هذه الآية بصفة مبدئية إلى إسرائيل . إن الحقيقة الرئيسية التى يبرزها لنا الوحى فى سفر التثنية هى أن الله إختار نسل إبراهيم ليكونوا شعبا خاصا من بين كل الشعوب على وجه الأرض . لأجل هذا أخرجهم من مصر ، بيت العبودية ، وأتى بهم إلى أرض كنعان . كان ينبغى أن يكونوا ميراثه . كثيرا ما نجد هاتين الكلمتين « شعب » و « ميراث » مرتبطين معا فى الكتاب المقدس « وأنتم قد أخذكم الرب وأخرجكم من كور الحديد من مصر لكى تكونوا له شعب ميراث كما فى هذا اليوم » وكأنه قد تطلع الى شعبه كما الى قطعة أرض فلحت بكل عناية لتعطى محصولا من المسرة بعد محصول (تث ٤ : ٢٠ ، ٧ : ٦) .

بل أن موسى - المشرع العظيم - فى نشيده الأخير يذهب الى أبعد من هذا فيقول أنه حين أعطى العلى للأمم ميراثهم عين نصيبهم وحدد حدودهم مراعيا فى ذلك نصيب الأمة

---

(١) « هذا الشعب جبلته لنفسى . يحدث بتسبيحى » .

التى كانت كحدقة عينه (تث ٣٢ : ٨ و ١٠) . ألست ترى الى البستانى حين يعزل كمية قليلة من النباتات ويحصر فيها كل عنايته ، ليس من أجل خاطرها فقط ، بل لكى تتوفر لديه كمية من التقاوى أو الشتل ، فيبذرها ويزرعها فى كل الأرض الفسيحة التى يمتلكها « إن قسم الرب هو شعبه . يعقوب حبل نصيبه » (تث ٣٢ : ٩) .

فى النصف الثانى من الآية موضوع التأمل فى هذا الفصل يتبين قصد الله بكل وضوح « هذا الشعب جبلته لنفسى . يحدث بتسبيحى » لقد درب الله هذا الشعب تدريبا طويلا دقيقا ، وكان القصد من هذا أن يجعل تاريخهم يلفت أنظارهم الى مجد الله وجماله ، فيقدموا اليه سبحا مستديمة وعبادة مستمرة . كان يجب عليهم أن يخرجوا الى كل أرجاء العالم معلمين الناس عن محبة وصلاح الله الذى وجدهم فى البرية الجرداء ، وبعد أن كانوا عبيدا وجهلاء جعلهم أمة كهنة ، أمة مرنمين بمزامير شجية وأنبياء يذيعون جمال الإله الواحد أما اليهود فقد أقاموا أنفسهم لمقاومة إتمام هذا القصد الإلهى ، وذلك بآثامهم المتكررة . ففى ثلاث مناسبات مستقلة وقفوا حجر عثرة فى سبيل هذا القصد الإلهى ، فكانوا أقرب الى التجديف من التسبيح . وأعطوا البشر فكرة خاطئة عن صفات الله . وفى ثلاث مناسبات مستقلة كان يجب أن يتعلموا إرجاء إتمام قصده وقتيا (عدد ١٤ : ٣٤) .

المناسبة الأولى فى البرية إذ تذمروا على الله فأتاهم فيها أربعين سنة . والثانية حيث سبوا الى بابل سبعين سنة بعد أن جلس على عرش داود تسعة عشر ملكا . والثالثة والأخيرة حيث تشتتوا فى كل العالم وصاروا مثلا ودهشة ؛ وذلك منذ أن رفضوا إبن الله . لقد ظل قصد الله مرجأ تسعة عشر جيلا . لكن لا شك فى إنه سيتم إتماما كليا فإن الشعب المختار سوف يكون لله « شعبا وإسما وفخرا ومجدا » ولكن فى نفس الوقت قد دعى الأمم ليحل محلهم ، وقتيا ، ولكن لغرض سام فيما يتعلق بهم ، الى أن يعود تطعيم الأغصان الطبيعية فى زيتونتها « وهكذا سيخلص جميع إسرائيل » (ار ١٣ : ١١ ، رو ١١ : ١١ - ٢٦) .

وهذا التغيير فى القصد من جانب الله قد حصل لفتح الباب لنا ؛ وبذلك أصبحت الكلمات التى وجهت أصلا لإسرائيل تطبق علينا الآن . فإننا نجد الله يتحدث الينا مرتين على الأقل على لسان بطرس وبولس بأن يسوع « بذل نفسه لأجلنا ليفدينا من كل إثم

ويطهرنا لنفسه شعبا خاصا » ولذلك فنحن الآن « جنس مختار وكهنوت ملوكى ، أمة مقدسة ، شعب إقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة الى نوره العجيب »(تى ٢ : ١٤ - بط ٢ : ٩) .

لقد صرنا ما نحن عليه الآن لكى نخبر بتسبيح الله ولكن إن قصرنا فى تحقيق غرضه لابد أن يتم معنا نحن أيضا إرجاء إتمام القصد . وعوضا عن إتمامه بسهولة وغبطة فإنه لابد أن يتم بالدموع والدماء ، كما حصل مرارا مع إسرائيل .

(١) قصد الله

« يحدث بتسبيحى » قبل أن الكلمة التى ترجمت تسبيح هى من نفس الأصل الذى تنتسب اليه كلمة « هلل » فى « هللويا » وأن معناها أولا ضياء واضح بهيج ، وثانيا صوت موسيقى شجى . ،من ذلك نتعلم أن شعب الله يجب أن يعكسوا مجده حتى يشع من حياتهم ويجذب الاخرين اليه . كما يجب أن يتحدثوا بتسبيحه بأصوات شجية رنانة تجذب كل أذن تسمع . قال أحدهم لأخيه « ما أجمل ذلك الذى ملأت خدمته هذه النفوس بهجة كهذه تعال نطلبه لكى يفعل معنا ذلك نحن أيضا » .

إننا نستطيع أن نحدث بتسبيح الله بالآلام كما بالخدمة الفعالة . فتحملنا الآلام يوما بعد يوم بلا شكوى أو تذمر ، راضين بما يرضاه ومعتزمين أن نتألم حسب مشيئة الله دون أن تخرج من شفاهنا كلمة تذمر واحدة ، وهذا يذيع تسبيح الله ربما أكثر من كتابة مزمور يحرك الأجيال المتتابعة لتسبيح ذاك الذى رحمته الى الأبد .

فى كل حياة توجد ثلاث مناطق . الأولى منطقة النور حيث يتبين فيها الواجب بكل وضوح ، والثانية منطقة الظلمة حيث يتبين فيها الخطأ بكل وضوح أيضا ، والثالثة منطقة الغبش (بين النور والظلمة) حيث لا تتبين الأشياء فيها بالوضوح الكامل ، وحيث لا يمكن تمييز الخير من الشر ، وحيث لا ينبغى لكل إنسان أن يثبت قبل أن يخطو خطوة واحدة وأن يكون ضميره مقتنعا تمام الإقتناع قبل القيام بأى عمل . هنا محك النفوس ، هنا تتخذ القرارات التى تؤدى بنا الى الضعف والقوة . هنا إما أن ننجرف الى الظلام ، أو

نسلك الطريق الذى يصعد بنا الى الأرض التى لا يغيب عنها النور . وحينما نخطو طريقا شائكا ضمن هذه الطرق الغامضة فاننا لا نجد ما يعيننا على التأكد من أسلمها سوى أن نتساءل عن أى الطرق هو الذى يؤدى الى تسبيح الله . وأن كل ما يقف حجر عثرة فى هذا السبيل ينبغى تجنبه ، وكل ما يؤدى اليه ويزيده ينبغى سلوكه مهما عزت التضحية .

وينبغى أيضا أن نضئ « وهذا التعبير يعنى أكثر من مجرد السلوك باستقامة » لكى يرى الناس أعمالنا الحسنة ويمجدوا أبانا الذى فى السموات ويقدموا اليه سبحا . إنه بواسطة الكنيسة يعرف الرؤساء والسلاطين فى السموات حكمة الله المتنوعة (اف ٣ : ١٠) .

نحن نميل الى حصر التأمل فى البركات التى فى أيدينا فقط من الله . والواقع أنه خليق بنا ألا تغيب عنا هذه الحقيقة الجوهرية وهى أن كل بركات الله (أو كل ملء الله ، كما يدعوها بطرس الرسول) تحت تصرفنا . بل يجب أن لا ننسى الناحية الأخرى لهذه الحقيقة الجوهرية . ثم نتقدم لكى نعرف غنى مجد ميراثه فينا نحن قديسيه ، يجب أن لا ننسى أن نسلمه كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا الداخلية ، وكل دقيقة فى أوقاتنا ، لكى يستطيع الكرام الأعظم أن يخرج منها محصولا بعد محصول من تسبيحه ، ويتعهدها كلها بالزرع الى أن تقدم حقول الحنطة فى الأرض الواطئة ؛ والرمان فى الجنات ، والكروم فى المرتفعات ، سبحا وحمدا كل بحسب طاقته .

(٢) إمكانية تعطيل قصده

« فتعرفون ابتعادى [١] (عدد ١٤ : ٣٤) ليس شئ أشد هولا ورعبا فى تاريخ النفس من أن تحبط القصد الإلهى من خلقتها وفدائها ، وتحرم الله من أن يستقى منا ما خلصنا لأجله . قد يكون هذا حالك يا شجرة التين التى تعترضين طريق إبن الإنسان الذى يأتى لكى يطلب فيكى ثمرا . لذلك فاحترس وتعلم من هذا الدرس علامات إنحراف إسرائيل وانحطاطهم . إتعظ من هذه ، لئلا يكون حالك أنت أيضا تعطيل القصد الإلهى .

---

(١) أو « انتقامى » حسب ترجمة اليسوعيين أو « نقض وعدى » حسب الترجمة المنقحة الإنجليزية أو « أنت لم تدعنى يا يعقوب ، بل أنت مللت منى يا إسرائيل » حسب الترجمة الإنجليزية » .

١- عدم الصلاة :

« وأنت لم تدعنى يا يعقوب حتى تتعب من أجلى يا إسرائيل [١] (ع ٢٢) . لا يوجد مقياس لحياتنا الروحية أضبط من صلواتنا ، قد يكون العقل متعبا كرد فعل لإجهاد الأعصاب ، ومن الحكمة ألا نحاول الضغط على الأعصاب ، حينما يكون القلب والعقل مجهدين بسبب إنهاك الجسد ، ويتعذر على العين أن تنفتح لأن النعاس يغالبها ، ويتعذر على العقل أن يفكر ، فمن الحكمة عند النوم الا تكون صلاتنا طويلة . على أن هذا يختلف كل الإختلاف عن الصلاة الجافة القصيرة التى تنشأ من إنشغال العقل بأمور الجسد ، أو من إنقطاع الصلة بين النفس والله بسبب الخطيئة . فإن كان هذا الفتور قد بدأ يتسلل الى قلبك فإحذر كل الحذر .

٢- إغفال الأمور الصغيرة :

« لم تحضر لى شاة (أو عجلا صغيرا) محرقتك » (ع ٢٣) . وكل الأهمية منصبة على كلمة صغير . ولعل الشعب كان حريصا على الأمور الأعظم فى الطقوس اليهودية ، ولكنهم غفلوا الأصغر . لم نجد إنسانا بدأ بكسر الوصايا الكبرى . والفساد يبدأ عادة بتعطن بسيط جدا فى الفاكهة ، والخطر يبدأ بثغرة بسيطة فى شاطىء النهر . فعلينا ألا نستهين بشئ صغير يتعلق بالله أو يتصل بالنفس . ولنحترس كل الإحتراس من أقل إهمال أو أقل إنحراف عن الأخلاق السامية الجليلة . ومن أقل عبث بالضمير . إن انحراف الأولاد فى الأمور الصغيرة يصحح فى الحال الوالد الحكيم الذى يدرك ما يؤدى اليه من أضرار وأخطار .

٣- انعدام الحلاوة :

« لم تشتر لى قصبا » (ع ٢٤) . من الممكن إتمام بعض الأمور الحسنة لمجرد الشعور بأنها مشروعة ، ولكنها قد ينقصها مع الأسف الحلاوة والطلاوة ورقة الشعور التى

---

(١) « لكنك لم تدعنى يا يعقوب وسئمتنى يا إسرائيل » حسب ترجمة السبعينى .

تنبعث من التدين الحقيقى . وما أكثر المرات التى فيها نتمم بعض الأمور لأن الواجب يقضى علينا بها ، لا بسبب دافع محبتنا الملتهبة لإلهنا العزيز . هذا ما يسميه الرسول الإرتباط بالناموس بدلا من الإتحاد بذاك الذى أقيم من الأموات ، والذى يجب أن تكون محبته غايتنا الأسمى . إن خدمته حرية كاملة ونيره حمل خفيف .

ما أكثر الأمثلة التى تبين لنا تغيير القصد الالهى . فشاول إستبدل بداود ، وادونيا إستبدل بسليمان . والشعب اليهودى إستبدل بالكنيسة . روت الأنباء أن كنيسة بالولايات المتحدة قررت بأغلبية الأراء عدم قبول الأمريكيين الوطنيين (الملونين) ضمن عضويتها . وبعد بضعة سنوات إنحطت حالتها إنحطاطا مزريا ، وفترت الحياة فيها فتورا معيبا حتى آل الأمر الى عرض البناء للبيع . فاشتراه جماعة الوطنيين الذين سبق وطردوا منه . هكذا ينتزع الله ملكوته من أيدى الذين يبرهنون على أنهم غير جديرين به ويسلمه لمن يتممون قصده ويحدثون بتسبيحه « لا تستكبر بل خف ، لأنه إن كان الله لم يشفق على الأغصان الطبيعية فلعله لا يشفق عليك أنت أيضا » (رو ١١ : ٢٠ و ٢١) .

(٣) إتمام قصد الله عن طريق آلامنا

« يحدث بتسبيحى » . إن قصد الله لا يمكن أن ينبذ نهائيا . قد يتوقف بسبب إلتقائه فى الطريق ببعض الجبال من الشكوك والانحراف ، ولكنك إن دققت البحث عنه فقد تعثر عليه متابعا السير فى طريقه على الجانب الآخر من الجبل ، بعد أن يكون قد حفر لنفسه نفقا ؛ أو تسلق بعض القمم ، أو دار حول الجبل هكذا سوف يكون الحال مع إسرائيل ، ومع كل واحد منا وما أغلى الثمن .

إن قصد الله فيما يختص بالبشرية ، نحو منح آدم ونسله سلطة على كل أعمال يديه ، قد إعترضت سبيله الخطية التى جلبت على العالم الويلات والآلام المبرحة مدة أربعة آلاف سنة . فضلا عن قطرات الدم فى چثيمانى ، وموت الصليب فى الجلجثة . ولكن قصد الله فى خلقتنا لابد أن يتم رغم هذا الإنتظار مدة أربعة آلاف سنة . ولابد أن يسود المستقيمون فى الفجر « مز ٤٩ : ١٤ » . وكل أعدائنا يوضعون تحت أقدامنا ، ونسل المرأة يسحق رأس الحية ولكن يا له من ثمن غال سواء أكان لله أو للإنسان أو للخليقة التى تئن وتتمخض معا .

هكذا الحال مع الشعب المختار فإنهم لابد أن يضيئوا كالكواكب ويرنموا ترنيمة الرب وتسبيحه كجوقة ملائكية . على أن الثمن كان غاليا جدا . فإنهم قد كابدوا آلاما لم يسمع العالم بمثلها قط ولا رآها ، وهى بوتقة التمحيص لتطهيرهم من رجاساتهم ، والقالب الذى يصاغون فيه ليخرجوا فى الشكل الذى حدد لهم منذ فجر التاريخ .

وهكذا يكون الحال مع كل شخص من أهل بيت الله ، فإن أفكار قلبه لابد أن تقوم ، ومثله الأعلى لابد أن يتحقق . ومقاصده لابد أن تتم نهائيا ، قد يتم هذا عن طريق طاعة النفس وحياة التسليم الكامل وحينئذ لا يكون هناك مجال للجهاد أو الصراع أو الآلام . بل تمنح القوة بنسبة كل مهمة ، ويكون الظهر مستعدا لحمل كل نير ، والحياة مستعدة لكل طارئ ، ودرجة الإنحدار مناسبة للماكينة التى تتسلق الجبال شديدة الإنحدار . أما إذا كان هنالك العناد والتمرد والتذمر والشكوى والأنين ، كما كان الحال دوما مع دولة إسرائيل فلابد أن تكون هنالك آلام السبى والتشريد ، البرية بمن فيها من جفاف وسآمة وملل والانتظار الطويل ، ولا يمكن أن تعود النفس للوقوف على أبواب كنعان وتدخل الى ميراثها ، وتقدم الى الكرام الأعظم التسبيح والمجد اللذين لأجلهما خلقت إلا بعد سنوات طويلة من التأديب .

أهذا هو تاريخ حياتك الى الآن ؟ إذن فارجع وتب . إن الله يصرح بأنه لن يذكر الماضى بما فيه من فشل مرير وفرص ضائعة ، وأن يعوض الفرص الضائعة بالبركات التى هو مستعد أن يمنحها ، وأن يجعل البرية طريقا ويفجر فيها ينابيع مياه حية ، ويبسط عليها حلة سندسية ، وإن أنت طوحت بنفسك فى لبرية فإنه يعيدك ثانية الى كنعان ، ويعطيك كرومك من هناك ويجعل من وادى عخور بابا للرجاء ، وتغنى هناك كأيام صباك (هو ٢ : ١٥) . ولأنك خلقت له فلابد أن تحدث بتسبيحه ، فسلم له ذاتك لكى يستطيع أن يأخذ منك فى الحال وبسهولة كل ما قصده .

سلم له الآن . لأن هذا خير لك .

- ٨ -

شهية مقلوبة الأوضاع

إشعياء ٤٤ : ٢٠ [١]

كل جمال جزئى عربون للجمال الكامل
ولكن طالما كان العربون كافيا لحالتك
فاستبقه واحتفظ به
وليكن الجمال الكامل
من نصيب من يرفعون أعينهم إلى فوق
(براوننج)

تعلم شعب الله فى السبى درسين : أن الله فيه كل الكفاية ، وأن عبادة الأوثان سخافة ما بعدها سخافة . وهنا نجد أشعياء يتحدث عن كل من هاتين الناحيتين بكلمات رائعة تبدأ من الآية السادسة من هذا الإصحاح وتنتهى بالآية العشرون .

وفى الآيات ٦ و ٧ و ٨ يتحدث عن الموضوع الأول : إن الله فيه كل الكفاية . وفى الآيات ٩ - ٢٠ يتحدث عن سخافة عبادة الأوثان . ولنتأمل الآن فى الموضوع الأخير هنا يأخذنا اشعياء إلى مصنع الأوثان كما كان وقتئذ . وإذ نبدأ مشاهداتنا يقدم الينا هذا التحذير مقدما « إن الذين يصورون صنما كلهم باطل ومشتهياتهم لا تنفع » وإنهم ولو اجتمعوا كلهم وصاروا جبهة واحدة فإنهم « يرتعبون ويخزون معا » خزيا كاملا ويضطربون اضطرابا شاملا .

---

(١) « يرعى رمادا . قلب مخدوع قد أضله فلا ينجى نفسه ولا يقول أليس كذب فى يمينى » .

بهذا التحذير السابق ندخل المصنع ، حيث نجد المعادن تصهر لكى تصاغ صنما تحت طرقات المطارق الثقيلة وتحت ذراع الحداد القوية . كان المفروض أن ما يصنع بمثل هذه القوة يقوى على مساعدة الآخرين . ولكن أرايت الصانع نفسه قد تعب وعطش بعد أن عمل بضع ساعات . فواضح إذن أنه يعجز عن أن ينتج ما يستطيع مساعدة الآخرين فى شدة حاجتهم . لأن المعلول لا يمكن أن يكون أعظم من العلة ، والصنم لا يمكن أن يقدم مساعدة دائمة إن كان صانعه يكل ويعيا بهذه السرعة « يصنعه بذراع قوته . يجوع أيضا فليس له قوة ، لم يشرب ماء وقد تعب » (ع ١٢) .

ثم يقودنا النبى الى مصنع الأصنام الخشبية ، حيث نجد النجار جادا فى عمله ، وقد « مد خيط » للمقياس ، ورسم الشكل الذى أراده بالمغرة الحمراء على قطعة الخشب ، ليصنعه « كشبه رجل » . إمتلأت أرضية المصنع بفضلات الاخشاب ، وإنتشرت نشارة الخشب فغطت كل أدوات المصنع . وصارت يد النجار تلعب بكل إستخفاف بالصنم الذى يجب أن يملأ نفوس عابديه رهبة (ع ١٣) .

وأخيرا ينتقل بنا شخص آخر الى الغابة حيث نجد شخصا من عامة الشعب يتخذ لنفسه أرزا ليسويه ، أو بلوطا ، أو يختار صنوبرا زرع منذ سنوات طويلة ، لأن خشبه المتين يصلح للغرض . أخذ جزءا من الخشب « للإيقاد ويأخذ منه ويتدفأ ، يشعل أيضا ويخبز خبزا » والباقى صنعه إلها ليسجد له . يا له من تناقض غريب جدا تأمل اليه وهو يتدفأ بهذه الأخشاب ويطهو بها طعامه ، ثم تأمل اليه بعد ذلك وهو يسجد لبقيتها ويتوسل اليها كآلهته لكى تنقذه .

لماذا يتصرف القوم بهذه الغباوة منقطعة النظير ؟ وكيف لا يدركون سخافة تصرفاتهم ؟ إن النبى لا يعرف شيئا عن النظرية الحديثة القائلة بأن الناس لا يعبدون الحجر أو الخشب بل يقيمون الصنم ليساعدهم على تركيز فكرهم وصلواتهم . ولو علم هذا لأكد بأنه وهم باطل وخداع كاذب ، وأن العبادة لا يليق أن تقدم لما يرى أو يحس . إن العبادة الوثنية تعزى الى سبب أبعد مدى . « يرعى رمادا . قلب مخدوع قد أضله فلا ينجى نفسه ولا يقول أليس كذب فى يمينى » .

(١) هنالك فى الإنسان تعطش لله

١- إنه تعطش عام :

كل البشر خلقوا بقصد واحد وخطة واحدة ، سواء من الناحية الجسدية أو من الناحية الأدبية . وكما يتطلب الجسد الطعام هكذا يتعطش العقل الى الحق ، وتتعطش الروح إلى الله . هذا ينطبق على كل العصور والأجواء . وهذا التعطش يتطلب الإرتواء على الدوام فى كل مكان . لذا فإنك تجد بجوار مساكن البشر حقول الحنطة وبساتين الفاكهة ، وعلى رمية حجر تجد الكنائس أو المعابد التى يقصدونها بصفة دائمة .

٢- وتعطش ظاهر :

إننا نستطيع أن نكون فكرة عن بعض العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان بالرجوع إلى عناصر الغذاء التى يتطلبها لاعالته ، بنفس هذه النظرية نستطيع القول بأن صفات النبل والسمو والشرف الكافية فى الإنسان تفصح عن ذاتها بالتعطش الذى يحس به دوما . حينما تحصل البهائم على كفايتها من الغذاء ترقد على الحشيش مستريحة مكتفية ، أما الإنسان فإنه لا يكتفى بأفخر الطعام ، بل يخرج فى طلب أزهى الألوان الطبيعية ، وأشجى الأصوات الموسيقية وفى طلب الحق ، وفى طلب الله ألا ينقض هذا نظرية المادية الشائعة فى بعض النواحى ؟ لأنه لو كان الإنسان لا يتكون إلا من المادة ، لو كان التفكير ليس إلا تحرك الجزء المختص من المخ ، لو كانت الروح غير موجودة ، ولو لم يوجد عالم آخر ، فلماذا لا يستطيع العالم المادى أن يشبع النفس ويقدم اليها أسمى ما تصبو إليه ؟ وحين تتوفر لديها كل الخيرات الزمنية ، كما حصل لسليمان ؛ فلماذا تتحول عنها وتعتبرها باطل الأباطل ، وقبض الريح ، وسراب الصحراء ، وتبنا لا يستطيع إشباع الجوع ؟ ألا يدل هذا على أن هناك عناصر أخرى فى طبيعة الإنسان ؛ وهذه العناصر الأسمى التى تنتمى الى العالم الأبدى غير المنظور لأنها لم تجد كفايتها وشبعها وراحتها فى أمور هذا العالم الوقتى المنظور ؟ وإن كان الإنسان يتعطش الى الله أليس هذا دليلا على أنه لابد أن يكون فيه شئ إلهى ؟ وإن كان لا يمكن أن يسد حاجته من الأمور الروحية الأبدية ، أليس هذا برهانا على أنه لابد أن يكون فيه شئ روحى أبدى ؟

٣- وهو تعطش محتم :

يؤدى الطعام ثلاث وظائف للجسد : فهو ضرورى ليعوض عن الإجهاد المستمر الذى يدمر الخلايا الطبيعية بصفة دائمة ، ولكى يحتفظ الجسد بدرجة الحرارة الطبيعية (٣٧ درجة مئوية)، ولكى يقدم اليه عناصر النمو ولكل من هذه الوظائف نظير فى دائرة الحياة الروحية . فإننا نحتاج الى الله لنفس هذه الأسباب الثلاثة التى لأجلها يحتاج الجسد إلى الطعام .

أولا : إننا نحتاج الى الله ليعوضنا عن الإنفاق المستمر فى قوانا الروحية . فى كل مرة نتكلم أو نعمل نحن ننفق جزء من طاقاتنا ، يتحطم جزء ولو ضئيل من الأعصاب والعضلات ، تتضاءل بعض قوى آلة الجسد الميكانيكية . وهذه يجب تجديدها وتعويضها - إذن فالحياة صراع مستمر ضد عوامل الضعف والفناء التى تعمل فى داخلنا .

وهذا هو الحال أيضا فى دائرة الحياة الروحية . فإن كل عمل ينبعث عن إنكار الذات وكل مقاومة للخطية ، وكل جهد يبذل فى نيل الطهارة والسلام والحق ، كل تفكير قويم وعمل سليم ، كل زيارة لمريض ، كل حديث جليل وعمل نبيل يتطلب الإنفاق من قوانا الروحية . إننا معرضون دائما للإجهاد وإستنفاذ طاقاتنا الروحية ولذلك فإننا فى أشد الحاجة إلى الساعات الهادئة التى نقضيها فى حضرة الله ، والتى فيها نجدد إنتعاشنا ، ونسترد قوانا المستنفذة .

ثانيا : ونحتاج إلى الله للدفء والحرارة . فى الطقس البارد يحتاج إلى كمية كافية من الكربون ، يحتاج إلى كفايته من الوقود . وفى كل نقطة من دورة الدم البديعة يجب أن تكون هناك نارا مشتعلة بصفة دائمة لكى تحرق الفضلات التى تخنق الأعصاب ، ولكى تحفظ للجسم حرارته اللازمة . هكذا نحن أيضا نحتاج إلى تعزية الروح القدس المعزى ، تجديد الإيمان والرجاء والمحبة ، إلى نيران المحبة المتأججة التى تحدث عنها العروس (نش ٨ : ٦) وهذه أيضا لا نجدها إلا فى الشركة الكاملة مع الله .

ثالثا : ونحتاج إلى الله للنمو . كما يحتاج الطفل إلى اللبن للنمو ، وكما أن شهية الفتى أو الفتاة فى دور النمو تفصح دواما عن حاجة الطبيعة إلى المادة اللازمة لبناء الجسد ؛ هكذا يتوقف نمونا الروحى على مقدار ما نحصل عليه من ذات الله وصفاته فى كياننا . إن البعض لا يتعدون حدود الأطفال بسبب نقص هذا الطعام الروحى . والشركة الوثيقة العميقة مع الله هى التى تبنى الحياة الداخلية .

(٢) وقد تقلب أوضاع هذه الشهية

« يرعى رمادا » [١] قد تكون الشهية سليمة فى حد ذاتها ، ولكنها قد يقدم إليها طعام غير مناسب . ففى أوقات الفاقة يستعمل الصينيون نوعا من الطمى بدل من الطعام . والعبيد فى ساحل إفريقية يتغذون على الطين الأصفر المخلوط بالدقيق الخشن . والوطنيون فى جزيرة جاوة يعجنون الطين فى شكل كرات ويأكلونه كطعام نفيس . بهذه الطريقة يفسد القوم شهيتهم الطبيعية . إنهم فى الواقع يزنون فضة لغير خبز ، ويتعبون لغير شبع (اش ٥٥ : ٢) .

على أن هنالك أوجه للشبه قريبة جدا بين تصرفاتهم وذلك التعطش العجيب للامحدى غير المنظور الذى هو جزء من كياننا ، التعطش للطعام المثالى ، والجمال المثالى ، والحق المثالى ، التعطش الذى قد نقاومه ونغفله ، ولكنه يظل طالبا الإرتواء . وإن لم تطلب النفس هذا الإرتواء من الله فإنها تطلبه فى « رماد » العبادة الوثنية .

لا يزال البشر يعبدون الأصنام فالغارق فى شهواته الجسدية يقدم عبادته فى هيكل فينوس القديم ، ولو لم يستمع قط إلى أصوات بحر إيجه الذى يرغى ويزبد حول الجزيرة التى كرست لأشر أنواع الفجور تحت ستار الدين . إنه يحاول أن يروى عطشه للمحبة الإلهية برماد اللذة الجسدية .

والغارق فى محبة العالم يعبد المال ، والصيت ، والمراكز الرفيعة ، وهو مستعد أن يضحى بكل شئ فى سبيل الحصول عليها . صباحا وظهرا وليلا ينفق أنفس مواهبه على مذبح هذا العالم ، طالبا معونته ومتحاشيا غضبه ، وساعيا وراء رضاه .

لا يزال العجل الذهبى مركز دائرة العبادة ، مزينا بأكاليل الغار ، تزدحم حوله الجماهير لترقص وتلعب . أمامه تقدم التضحيات الثمينة بالرغم من أن جبل سيناء حافل بالسحابة الرهيبة التى ترمز إلى حضور الله .

---

(١) «الرماد طعامه » حسب الترجمة الإنجليزية .

والمندفع فى حب الظهور يعبد فى هيكل آراء البشر ، ويتغذى على رماد مديح الآخرين ، ومع أن هذه الشهية قد قصد بها ألا ترتضى إلا بمديح القدير . والطالب الذى يتشكك فى وجود القدير أو ينكره يعبد فى هيكل العلم ، ويغذى برماد آراء البشر ، تلك الشهية التى قصد بها أن تتغذى على الحق الأبدى .

والجندى الذى امتلأت جوانبه بأعمال المخاطرة والبطولة يعبد فى هيكل المريخ (إله الحرب) ، ويغذى برماد الثورات الحربية ، تلك الشهية التى قصد بها أن تدفع إلى أعمال البطولة لإنصاف المظلومين وإنقاذ المضطهدين .

إن العبادة الوثنية متفشية بيننا اليوم بأشكال مختلفة كما كانت فى العصور السابقة ، سواء روعيت الرموز المادية أم لم تراع . وفى كل الحالات إن هذه العبادات التى يستعاض بها عن عبادة الله والتى يحاول بها البشر أشباع أنفسهم لا يمكن أن تشبع القلب كما أن الرماد لا يمكن أن يشبع الجسد .

(٢) الخبز الحقيقى

١- هو عطية الله :

« أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء » . إن الله الذى خلق فيك الجوع للخبز خلق الخبز لإشباعك ، صحيح أن الإنسان يقوم بدوره نحو زرع القمح وتهيئته طعاما ، ولكن هذا لا يذكر قط بجانب الدور الذى يقوم به الله « تعهدت الأرض وجعلتها تفيض ، تغنيها جدا . تهئ طعامهم لأنك هكذا تعدها . تبارك غلتها » (مز ٦٥ : ٩) فى كل أرض ينبت النبات اللازم للخبز والمناسب لتربتها ، أما النباتات الأخرى فلكل منها خواصه التى لا تناسب كل المواطن . فأشجار الزيتون لا تنبت فى لبرادور وأشجار الصنوبر لا تنبت على شاطئ نهر الأمازون ، لكن الحنطة تنبت فى كل أرض وتصلح لها كل تربة .

هو أيضا قد أعد للذوق جمالا ، وللفكر حقا ، وللقلب محبة ، وجمع كل هذه فى عطية واحدة ، يسوع المسيح ربنا الذى يتوفر فى شخصه وفى جسده ودمه الأقدسين ، كل ماهو لازم لحياتنا الداخلية ؛ كما يتوفر فى القمح كل ما هو لازم لتغذية الجسد .

٢- والطبيعة تقدم مؤونتها للإنسان عن طريق الموت :

إن جيوش عيدان القمح المنتصبة تحصد بالمنجل والنباتات الرقيقة تقدم كنوزها لخدمة الإنسان بحد السلاح ، أو ضغط الطاحون ، أو لهيب النار . والبهائم تقدم لحومها بمد عنقها للسكين ، والبهائم البرية فى الغابات بالبندقية أو أية طريقة من طرق الموت السريع . هكذا عن طريق الموت صار المسيح طعاما للبشر . والعشاء الربانى يمثل لنا دوما هذه الحقيقة ، فجسد الرب ودمه الذين نجد فيهما غذاءنا يمثلان لنا دوما موت الرب من أجلنا ، وفى تلك الوليمة المقدسة نذكر دائما موت ذاك الحى إلى الأبد . ونبين أن تلك الحياة التى تغذى أرواحنا قد اجتازت الموت لكى تبعث فى أرواحنا الحياة الأبدية . وإشارة المسيح الدائمة للجسد والدم تمثل لنا هذه الحقيقة وهى إننا عن طريق موته ، واشتراكنا معه فى موته ، يصير لنا جسده ودمه مأكلا حقا ومشربا حقا (يو ٦ : ٥٣ - ٥٧) .

يجب أن لا ننسى أبدا أننا لا يمكن أن ننمو إلى مقياس قامة الإنسان الكامل عن طريق كلمات أو مثال أو أعمال المسيح وحدها دون موته . بل الإشتراك معه فى موته ، وبالتأمل الدقيق فى كلماته « كنت ميتا وها أنا حى إلى أبد الآبدين » (رؤ ١ : ١٨) إنه عن طريق الموت والقيامة صار الرب يسوع خبزا لطبيعة الإنسان الروحية .

٣- يجب أن نتمثل طعامنا [١] :

لا يكفى أن يوضع المسيح أمامنا مصلوبا ، بل يجب أن نتغذى به بالإيمان يجب أن نتأمل بدقة فى شخصه المبارك ، وفى كل ما تممه . يجب أن نتقبله فى قلوبنا . يجب أن نتحقق إننا قبلناه فعلا وقت العشاء الربانى . وإننا نمتلكه ، يجب أن نلجأ إليه فى الظروف الخاصة التى تستدعى رفقته كظروف التجربة والفشل ، بذلك نصير أقوياء ويعظم فرحنا . وتصير الحياة فى مقياسها الكامل مهيأة لنا . ونأكل من شجرة الحياة التى فى وسط فردوس الله . ونعرفه كما عرفنا .

---

(١) مثل الطعام أى هضمه وحوله إلى أنسجة حية .

- ٩ -

نطّقتك

إشعياء ٤٥ : ٥

قبل أن تبدع الشمس والقمر
قبل أن تصف الكواكب فى كبد السماء

فكر الله فى أنا إبنه
وهيأ لى حياتى
ورتب كل ظروفها صغيرها وكبيرها
بل رتب حركات اليدين والرجلين
(براوننج)

كان كورش الذى ينطق إسمه هنا لأول مرة من أنبل الشخصيات فى التاريخ القديم . فان هيرودوتس وزينوفون يشيدان بمدحه ، وبينما كان الأخير يجول بآسيا الصغرى بعد موت كورش بمائة سنة كان الأثر الصالح الذى تركته صفاته النبيلة وسياسته الرشيدة لا يزال حيا حتى إنه وصفه وصفا دقيقا . لابد أن كورش هذا كان رجلا صالحا وعظيما حتى أن ذلك الشاب اليونانى « زينوفون » إتخذه مثالا أعلى يجتذبه فى القوة والبساطة ، والأنانية والطهارة وكبح جماح النفس . هكذا كانت الآنية التى اتخذها الله لهذه المهمة الخطيرة وهى تحرير شعب الله وإعادتهم إلى أرضهم .

سبق أن رأينا أن الرب أكد للشعب رجوعهم من السبى بعد انتهاء سبعين سنة . وإن أورشليم ستعمر . ومدن يهوذا تبنى وتسكن (ص ٤٤ : ٢٦) . ولعلهم توقعوا أن الرجوع سيكون محفوفا بمعجزات عظيمة كتلك التى فتحت باب التحرر من عبودية مصر . توقعوا أن ترتد المياه إلى الخلف مرة أخرى وينشق النهر ، أن يتناثر المن فى البرية ، وتتفجر الينابيع فى الصخر . على أن تحررهم هذه المرة لم يكن مكتوبا له أن يتم بنفس الطريقة ، فالمعجزات كان ينبغى أن تتم فى عالم العقل لا فى عالم المادة . كان ينبغى أن تتم المقاصد الإلهية بسلسلة متتابعة غير متوقعة من العناية عن طريق ملك وثنى لا يعرف ذلك الذى منطقه بالقوة وأعد طريقه .

كان كورش فى بداية حياته قائدا لفرقة من الجنود خاملة الذكر فى بلاد الفرس . وكان أول نجاح أحرزه هو الحصول على قيادة فرقتين من جنود الجبال الوعرة المجهولين وقتئذ بسبب تشتتهم فى جبالهم ، وإما أن يكون ذلك تم عن طريق الدبلوماسية أو عن طريق القوة . بهاتين الفرقتين بدأ غزواته التى إكتسحت كل البلاد الواقعة بين حدود الهند ومياه بحر إيجة بل أخضع حتى قارون ملك ليديا الذى تضرب بثروته الأمثال . تفتحت أمامه أبواب الفرس بشكل عجيب ، وذللت أمام وجهه كل الصعاب ، ووصلت ليده الكنوز المخبوءة وتحطمت مصاريع النحاس أمام كل إنتصاراته (ع ٢ و ٣) ورغم أنه كان متدينا ، حسيما أعطى من نور ، ومواظبا على عبادة آلهة شعبه ، إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن يعرف الرب الذى منطقه ، والذى كان يستخدمه فى يده .

وأخيرا ؛ بعد إنتصارات متوالية دامت بضع سنوات ، وقف على باب بابل طالبا من إبن نبوخذ نصر وحفيده الإعتراف بسلطانه . لم يكن يخطر بباله هو أو اليهود أن هذه الدعوة كانت إتماما للمقاصد الإلهية نحو تحرير اليهود من سبيهم ، وإعادتهم لمدينتهم المقدسة ليكونوا قادة العالم فى الناحية الروحية ، والعنصر الذى يخرج منه عبد الرب ومسيحه .

ظلت بابل صامدة أمام الحصار بضعة أشهر مليئة بالمتاعب ، وهزأت بكل الجهود التى بذلتها القبائل البربرية لهدم أسوارها المنيعة أو إختراق أبوابها الحصينة . ولكن فى إحدى الليالى ، حينما توهم بليشاصر أنه قد أصبح فى مأمن من عدوه ، وضع وليمة لألف شخص من عظمائه ، وتراخى الحرس فى حراستهم . دونت اليد الرمزية على جدران قاعة الوليمة

فى القصر الملكى ذلك الحكم الرهيب بإنهاء ملكه وإنتقاله لأيدى مادى وفارس . فى تلك الليلة حاول كورش النهر العظيم الذى كان يشق المدينة ، إلى خزان متسع لإختزان المياه ، وإذ تحول النهر عن طريقه القديم سار جنوده فى قاعه الملئ بالوحل وهاجموا المدينة بصراخ مرتفع أزعج الحراس الساهرين وأقض مضاجع النائمين ، وبذلك بدأت أيام القتل والسلب والنهب .

كان دانيال وقتذاك متقدما في الأيام ، وكان بلا نزاع محور الإرتكاز . وفى ليلة سقوط المدينة وبخ بليشاصر من أجل خطاياه ، وأعلن إنتهاء الحصار . وكان يحمل فى يده المفاتيح لسياسة الإمبراطورية ، ولذلك سعى اليه فى الحال كورش وعمه داريوس (دانيال ٦ : ٢ ؛ ١٠ : ١) .

لقد كشف اليه أن فترة السبعين سنة أوشكت على الإنتهاء (دانيال ٩ : ٢)ويبدو أنه أسرع وإنتهز الفرصة - كما يتحدث لنا يوسيفوس - لتعريف كورش عن تاريخ شعبه ، وعن تلك النبؤات العجيبة المدونة منذ أحقاب طويلة فى كتبهم المقدسة ، التى تنبأت بكل دقة عن تاريخ حياته (حياة كورش) ، بل حتى عن إسمه ثم بين له ما تضمنته هذه النبوات عما سيفعله فيما بعد . ورغما عن نبوات علماء الفلك الكلدانيين فقد أتى به الي عرش بابل ؛ ورغما عن كل الصعوبات بل المستحيلات الظاهرية فإنه سوف « يتمم رأى رسله القائل عن أورشليم ستعمر لمدن يهوذا ستبنين » (اشعياء ٤٤ : ٢٦) . وكم كان مدهشا جدا حينما وضع النبى الشيخ أمام الغازى الشاب مثل هذه الكلمات : « أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أسهل . وهو يبنى مدينتى ويطلق سبيى لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود » (ص ٤٥ : ١٣) .

إذن فلا يستغرب إن كان فى السنة الأولى من حكمه قد أطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا « هكذا قال كورش ملك فارس . جميع ممالك الأرض دفعها لى الرب إله السماء . وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا ، من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي فى يهوذا فيبنى بيت الرب » (عزرا ١ : ٢ ، ٣) .

يا لها من فكرة متسعة تتكشف أمامنا هنا عن تدخل العناية الإلية فى توجيه غايات الإنسان كما تريد . هنالك قصد معين وراء الغموض الظاهرى الذي نراه فى الأمور العالمية ، وهذا القصد لابد أن يتم يوما ما ولو ببطء . حتى ولو كان الأشخاص الذين يستخدمهم الله لاتمامه لا يحسون قط بما هو جار . تحدث نبوخذ نصر ، أعظم ملوك عصره الذى شبهه برأس من ذهب . والذى كانت له فرصة مناسبة للتحقق من إستنتاجاته . فقال أن الله « يفعل ما يشاء فى جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده ويقول له ماذا تفعل » (دانيال ٤ : ٣٥) .

(١) مقاصد الله فيما يختص بالمجتمع

١- إنها متسعة المدى :

تمتد من جيل إلى جيل ، تتسع إلى آلاف السنين . تبدأ من تكوين الأرض وتنتهى عند ظهور السماء الجديدة والأرض الجديدة فى نهاية الزمن .

على أنها محدودة وخاصة . إن أى قائد حربى عظيم لا يتم له النصر إلا إذا كانت له سعة الصدر للعناية بأتفه الأمور . والله لا يحتقر أى شخص صغير أو أى شئ دنئ . والعصفور لا يسقط إلى الأرض دون إذنه . وأصغر الحوادث تدخل ضمن برنامج أعمال عنايته ، بل إنه يجعل خطيئة وغضب الإنسان يعملان على إتمام مقاصده .

٢- وهو يعمل عن طريق الأفراد :

إن الجزء الأكبر من رواية البشرية يقرأ من تواريخ حياة الأشخاص المختلفين . وعن طريق البشر يتمم الله مقاصده الصالحة وأحكامه العادلة . بواسطة كولمبوس يزيح الستار عن شاطئ أمريكا ، بواسطة واط وستيفنسن يلفت نظر العالم إلى قوة البخار وإستخدامها لخيره ، بواسطة جلفانى وإديسون يلفت نظره إلى قوة الكهرباء ، بواسطة دليسبس يوصل بين مياه بحر الشرق ومياه بحر الغرب ، يتحد الشرق بالغرب . بواسطة نابليون يحد من قوة البابا الزمنية ، وبواسطة ويلبرفورس يحرر العبيد . إن البشر لا يرون مقاصد الله فيما يؤدون من أعمال . إنهم ينهضون ويسيرون فى طريق النجاح بلا توقف . إنهم يتعودون

تحطيم المتاريس وفتح الأبواب المحكمة الإغلاق (ع ١) . إنهم يتوقعون ، بل ينالون من العالم أسمى المراكز ، والكرامة والجزاء ، إنهم يؤهلون أنفسهم للمدح بسبب ما يؤدون ، وينسب أصدقاءهم مظاهرهم وخططهم إلى قوتهم العظيمة . وهم لا يدرون أنهم فى الواقع ليسوا إلا آلات فى يد الله ، ودعوا بإسمهم وتمنطقوا بواسطة ذاك الذى لم يعرفوه (ع ٤ و ٥) .

٣- واستخدام الله للبشر لا يدخل فى حرية التصرف التى يملكونها :

هذه الحقيقة يوضحها لنا الكتاب المقدس فى أكثر من مناسبة . فإخوة يوسف تصرفوا بدافع قلبهم الشرير ، ولم يقصدوا إلا الشر ، أما الله فقد كان طول الوقت يقصد ويتمم الخير ليوسف ، ولهم ولأرض مصر . وهيرودس وبيلاطس وقادة اليهود الروحيون كانوا مدفوعين بدافع الحقد والحسد ، وبأيدى آثمة صلبوا وقتلوا رب المجد ، ولكنهم إنما كانوا يتممون مشورة الله المحتومة ، ويؤدون ما سبق وعينته يده ومشورته أن يكون . نحن لا نستطيع أن ندرك هذا السر ، ولا نستطيع أن نعلل تحركات الكواكب السيارة فى هذه المجموعة العظيمة ، وهذا ناشئ من قصور مواهبنا المحدودة فى هذا العالم المحدود . على أننا ينبغى أن نقبل هذه الحقيقة كما هى كحقيقة ثابتة : وهى أن الكتاب المقدس يعلمنا بكيفية قاطعة بأنه قد يقدم رجل مثل كورش ويبذل أقصى جهده لتنفيذ خططه وتحقيق مطامعه ، بينما يكون طوال الوقت قد تمنطق وإستخدم من ذاك الذى لم يعرفه .

كل هذه المبادئ خليقة بأن نتعلمها ، ونتأمل فيها بروح الصلاة . إنها تتدخل فى حياة الجماعات وحياة الأفراد أيضا .

(٢) مقاصد الله فيما يختص بالأفراد

كلنا نستطيع أن نحس بعنصر فى الحياة لا نستطيع تعليله . لقد بدأ غيرنا حياتهم فى ظروف أحسن ، وإمتيازات أوفر ، لكنهم تعثروا فى ميدان السباق ولم نعد نراهم بعد . لم تكن صحتنا يوما من الأيام متزايدة فى القوة ، ولكن أيام العمل والكفاح فى حياتنا كانت أكثر من أقراننا الذين كانوا أبطالا فى الألعاب الرياضية أيام الدراسة . لقد تعرضنا

للأخطار بصفة دائمة ، وقضينا أوقاتا طويلة فى السفر ، ولم نصب فى حادثة واحدة ، بينما قضى غيرنا نحبهم فى أول رحلة ، لماذا نجونا نحن حيث سقط الكثيرون ؟ لماذا صارت حياتنا أوفر ثمنا وأعمق أثرا بينما فشلت حياة الكثيرين الذين كانوا أقدر منا ؟ لماذا احتفظنا بالسمعة الحسنة بينما أنتنت سيرة الآخرين ممن كانوا أفضل منا ، وسقطوا حيث لا قيام ؟

لا يوجد بيننا من لا يستطيع أن يذكر فى أيامه السالفة بعض الظروف التى كانت تؤدى بحياته ، وبعض المزالق كادت تنزلق فيها قدماه ؛ هاوية إقترب الليل من حافتها إقترابا خطرا جدا ولما استيقظ فى الصباح أدرك مقدار الخطر الذى تعرضت له حياته . كم كدنا نخطو خطوة مميتة لم يكن بيننا وبينها إلا قيد شعرة ، كم مرة كدنا نخضع لتجربة خطرة ، كم مرة كدنا نعقد صفقة مع الشيطان تجلب ضررا كبيرا ، وهذه عمليات تتكرر على الدوام . كم مرة أوشكنا أن ننجرف فى ذلك التيار الشديد . كم كان مدهشا جدا أن ننتزع من وسط هذه الجماعة الشريرة . كم كان عجيبا أن نتخلص من التزوج بتلك الفتاة ، أو من تلك العملية المالية الخاسرة ، من السفر مع تلك السفينة أو ذلك القطار ، من شراء أسهم من تلك الشركة .

هنالك أمور تحتاج إلى تفسير فى حياة البشر لا يستطيعون تعليلها . إنهم يطلقون على هذا العنصر المجهول إسم « الحظ » أو « النصيب » أو « القسمة » ، ولكن هذه مجرد أوهام لا يقصد بها إلا راحة الضمير . أما التعليل الصحيح فهو أن الله كان يمنطقنا ولو لم نعرفه .

فالله هو الذى فتح باب هذه الفرصة ، هو الذى مهد تلك الطرق الخشنة لكى لا تبقى حصاة واحدة تعثر ، هو الذى أعطى الكنوز بينما كانت مخفاة عن أعين الجميع ، هو الذى فتح مصاريع النحاس التى كانت تسد الطريق . من ضمن النعم التى ننعم بها لما تتقدم بنا الأيام أن نتطلع الى كل الطريق الذى قادنا فيه ، وإذ نرتفع إلى أعالى السماء ونتطلع إلى طريق الحياة كلها نقدم إليه سبحا ومجدا وشكرا . وإذ نقف مع الله هناك يبين لنا كيف أن إعدادنا للمهمات العظيمة كان يعزى إلى أنه منطقنا بقوته ، ومد إلينا ذراعه المقتدرة التى أحاطنا بها ووضعها فوق رؤوسنا .

إنه على الدوام يمنطق أولاده للقيام بمهمات التى يدعوهم إليها . إنه لا يمكن أن يتغافل عن أولئك الذين كلفوه ثمنا غاليا . لابد أن يتمم ما قد بدأه . لابد أن يقودك أثناء اجتياز الصخور العالية والتيارات الجارفة حتى ينتهى الليل . إنه لا يفوت عليك خيرا واحدا . وحينما تقف على حافة الأبدية ترى ، مع يعقوب ، الملاك الذى خلصك من كل شر (تك ٤٨ : ١٦) .

حين وقف بطرس مع يسوع على شاطئ بحر الجليل بين له يسوع الفرق بين حالته الأولى إذ كان يعتمد على نفسه ويمنطق ذاته ويمشى حيث يشاء ، وحالته فى الأيام الأخيرة إذ يعتمد على غيره ويمد يديه وآخر يمنطقه ويحمله حيث لا يشاء . نطق المسيح بهذه الكلمات مشيرا إلى نوع الموت الذى كان بطرس مزمعا أن يمجد الله به (يو ٢١ : ١٨ ، ١٩) ، وما كان ينطبق على عجز بطرس بسبب شيخوخته وعلى استشهاده يجب أن ينطبق على كل واحد منا بالنسبة إلى ما تقصده نفسه وتختاره . فلنكف عن أن نمنطق ذواتنا بقوتنا الشخصية ، ولنمد أيدين طالبين من الرب أن يمنطقنا ويحملنا حيث يشاء هو ، حتى إلى الموت إن كنا بذلك يتمجد الله أكثر .

- ١٠ -

اسألونى .. أوصونى [١]

إشعياء ٤٥ : ١١ [٢]

أتسأل عن معنى الصلاة ؟
إنها دعاء القلب الأكيد
فى وقت العوز الشديد
فالإنسان الذى يصلى
هو الذى يندفع بقوة
من ظلمة نفسه إلى نور الله
(ترنش)

يا لها من صورة رائعة يبرزها لنا الكاتب فى مقدمة الفقرة التى تحوى هاتين الكلمتين . إنه يخيل للناظر كأن الأرض مكشوفة أمام السماء كحقل حنطة فسيح الأرجاء انبسطت فوقه سحب السماء ، وهب عليه نسيم الهواء وسلطت عليه الشمس أشعتها . هذه السحب عظيمة « بالبر » وهذا هو الإصطلاح المستخدم فى هذا السفر للتعبير عن أمانة الرب . وإستجابة للصلاة تسكب السماء كنوزها الثمينة وتتفتح كل مسام الأرض لتقبل المطر الغزير . وللحال تجد كل قطعة من الأرض تثمر الخلاص . وينبت البر فى قلوب البشر استجابة لطلب إنسكاب بر الله . هذا هو تزوج السماء بالأرض ، إتماما لنبوة المرنم « الحق من الأرض ينبت والبر من السماء يطلع » (مز ٨٥ : ١١) .

---

(١) « إأمرونى » حسب الترجمة الإنجليزية .

(٢) « هكذا يقول الرب قدوس إسرائيل وجابله اسألونى عن الآتيات من جهة بنى ومن جهة عمل يدى أوصونى » .

إن جمال هذه الفكرة وهذا الخيال المنقطع النظير . فالنبى يصور لنا السماء وهى ترفرف فوق الأرض ، ثم يصور لنا الأرض وهى تستجيب نداء السماء . غمر ينادى غمرا . طبيعة الله تنشئ وتبدع وتبعث الحياة ، وطبيعة الإنسان تلبى النداء ، وحيثما وجد قلب الإنسان المؤمن المتلهف يتقبل نعمة الله النازلة من السماء أصبحت النتيجة « الخلاص » . وفى بعض الترجمات نقرأ الآية على هذا الوجه « لتثمر السموات الخلاص ولتنبت الأرض برا معا » . إن المحور الذى يدور حوله الحديث فى كل الإصحاح هو « الخلاص » . هل يخبئ الله نفسه ؟ هل هو إله إسرائيل ، المخلص (ع ١٥) هل خزى وخجل صانعوا التماثيل ؟ إلا أن إسرائيل يخلص بالرب خلاصا أبديا (ع ١٦ و ١٧) . هل صارت التماثيل المحفورة للخزى والعار ؟ ذلك لأنها آلهة لا تخلص (ع ٢٠) هل أكد الله ألوهيته بصفة قاطعة ؟ ذلك لأنه إله بار ومخلص (ع ٢١) هل أمر البشر أن يلتفتوا إليه ولو كانوا قد أبعدوا إلى كل أقاصى الأرض ؟ ذلك لكى يخلصوا (ع ٢٢) .

لا شك فى أن هذا الخلاص كان يشير فى بداية الأمر إلى تحرير شعب الله من عبودية بابل وإعادتهم إلى أورشليم « هو يبنى مدينتى ويطلق سبيى لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود » (ع ١٣) هذا الخلاص ، الذى هو رمز للخلاص الأعظم من إثم الخطيئة وسلطانها ، كان فى قصد الله مؤكدا كخلقة الأرض والإنسان ومضمونا باليدين اللتين « نشرتا السموات » وبالكلمة التى أمرت كل جندها (ع ١٢) وما دام الله هو الله فإنه سوف يعيد شعبه إلى الأرض التى أعطاها لأبائهم ليرثوها .

ولكن بجانب هذا التصريح من جانب الله بما اعتزم أن يصنعه لشعبه يبرز لنا الوحى هذه الوصية الغريبة التى يبين أهميتها وخطورتها بوصف المتكلم بصفات مثلثة . فإنه يصفه بأنه هو « الرب ، قدوس إسرائيل وجابله » (ع ١١). « الرب » أى الله فى قصده الفدائى الأزلى . « قدوس إسرائيل » أى كمالات إله إسرائيل الأدبية بعكس رجاسات العبادة الوثنية . « جابله » وهذه تبين كيف أنه صور لنفسه آنية مستعدة لخدمته من الطين الذى جمعه فى عصر إبراهيم من أور الكلدانيين . هذا الوصف المثلث لله كان تمهيدا لتلك الوصية الخطيرة التى أمر الشعب أن يصلوا طالبين إتمام القصد الذى كان فى فكر الله .

عند إنزال مدرعة حربية إلى الماء لا يتطلب الأمر مجهود صبى صغير لإدارة الآلات الجرارة التى تدفعها إلى المحيط . كذلك الحال - إن كانت لنا الجراءة على القول - ظلت كل مقاصد الله « وماكينات » أعمال عنايته التى بها تتم هذه المقاصد ، ومتوقفة منتظرة حتى يطلب شعب الله إتمام مواعيده ، بل منتظرة حتى يوصوه من جهة عمل يديه . إن إنتصارات كورش العظيمة ، وتذمر جماعة الكهنة على ملك بابل ، والعلامات الواضحة لخراب الإمبراطورية العظيمة (إمبراطورية بابل) وإتمام السبعين سنة التى تنبأ عنها إرميا - كانت كلها هذه عديمة الجدوى ما لم يكن الشعب قد وجه وجهه إلى الله السيد كدانيال ، طالبا بالصلاة ، والتضرعات ، وبالصوم والمسح والرماد ، إتمام كلمته (دانيال ٩ : ٣) .

(١) الصلاة حلقة ضرورية لاتمام المواعيد الإلهية

« إسألونى عن الآتيات » يطلب الله منا دائما « إسألوا ، اطلبوا ، إقرعوا » وللإبن نفسه يقول الرب « إسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك وأقاصى الأرض ملكا لك » (مز ٢ : ٨). وللشعب المختار يقول فى نهاية هذا الإصحاح الملئ بالمواعيد الكثيرة والذى يكشف لنا فيه عن مقدار ما هو مستعد أن يعمله لهم ، ليس لأجلهم فقط بل لأجل إسمه القدوس « بعد هذه إطلب من بيت إسرائيل لأفعل لهم » (حز ٣٦ : ٣٧) . لقد طالما حثنا الله على الصلاة مبينا قوتها ، ومبينا إستعداده للإستجابة لتلك الصلوات التى ترفع بإسمه فقط (يو ١٤ : ١٣) . ويؤكد الرسول يعقوب بأن السبب الوحيد بأننا لا نمتلك هو لأننا لا نطلب (يع ٤ : ٢) .

إذن فالتصريح الذى نجده فى هذه الآية تدعمه شهادات كتابية كثيرة تبين ضرورة الصلاة كحلقة ضرورية لإتمام المقاصد الإلهية .

١- فالصلاة جزء من نظام التعاون بين الله والإنسان . وهذا التعاون يبدو واضحا وجليا فى كل المظاهر الطبيعية ، وسائر مرافق الحياة . فإنه لا يمكن أن ينبت محصول الحقل ولا يصل الخبز إلى أيدينا ، ولا تؤدى المعادن خدماتها النافعة ، ولا تتلألأ الجواهر بضيائها الوهاج ، ولا تشتعل نيران الفحم فى المواقد والأفران - دون أن تشهد لهذا التعاون بين الله والإنسان . هكذا الحال فى العالم الروحى ، يجب أن يتوفر التعاون ، ولو أن الأمر لا

يقتصر من جانب الإنسان فى أغلب الأحيان على مجرد الصلاة ، وهذا قد يبدو أمرا تافها ، ولكنه يمس سر ينابيع البركات الإلهية ، كما أن ضربة عامل المناجم الأخيرة قد تفجر ينابيع البترول أو تكشف عن كنوز اللآلئ النفيسة .

٢- وحينما تكون الصلاة خالصة وقوية فإنها تكشف أن حالة النفس يمكن أن يأتمنها الله على أسمى هباته دون أن يلحق ضررا بمن يقبلها . فإن منح البركة لشخص لا يعرف شيئا عن التواضع والخضوع وعدم طلب المعونة من الخليقة إنما يضره . هكذا يسمح الله ، بمحبته العظمى أن يحرم النفس من أسمى هباته إلى أن ينسحق القلب ويصرخ إليه . وهذا الصراخ هو العلامة المباركة على صحة النفس وسلامتها وهو الدلاله على عودة الحياة ، كما كان عطس الغلام الذى تمدد عليه اليشع النبى علامة على رجوع الحياة اليه (٢ مل ٤ : ٣٥) . وقلب كهذا هو الذى يستطيع أن يقبل - دون أن يلحقه ضرر - بركات لا حد لعلوها أو عمقها .

٣- والصلاة أيضا فى جوهرها - حينما يكون الباعث لها الإيمان - هى فتح القلب بل بسط اليد لله لقبول ما يريد أن يمنحه لنا . فالمصلى يصعد على قمة مواعيده ، ويصرخ إلى السماء لتسكب بركاتها عليه ، بينما ينفتح القلب واليدان والفم لتمتلئ خيرا . لذلك فلنصلى .

لنصل متحدين . فالله يحب أبواب صهيون حينما تزدحم بالجماهير أكثر من جميع مساكن يعقوب حينما تشترك فى الصلاة عائلات قليلة (مز ٨٧ : ٢) . وهو يتوق أن يطلب من بيت إسرائيل . إذا أعدت جماعة مشروعا لتقديمه للملك ولا يصادق عليه سوى اثنين أو ثلاثة فإنه لا يلتفت إليه لأنه غير جدير بالإهتمام . وماذا تكون نظرة الله نحو مقدار إهتمام شعبه بتحقيق مواعيده إن كان لا يجتمع فى موعد الصلاة سوى اثنين أو ثلاثة ؟

لنصل بالذهن . حينما نجتمع للصلاة يجب أن نجتمع لا بأجسادنا فقط بل بأرواحنا . وحينما يصلى أحد الحاضرين بصوت مسموع يجب أن يصلى الباقون سرا . والصلاة التى تقدم فى حضرة الآخرين يجب أن تنال مصادقتهم . ومناجاة الإنسان لنفسه ، أو احتدام المناقشة ، أو الدفاع عن وجهة النظر الخاصة ، هذه لا محل لها فى موقف

الصلاة . كذلك لا محل للشرود الذهن أو عدم حصر الفكر بين الساجدين الذين يزعمون أنهم يصلون .

لنصل بحرارة . لا تقاس الصلاة بطولها بل بقوتها . ومقياس الله لقوة الصلاة هو بمقدار تأثيرها على قلبه . والصلاة تستدعى شدة العزيمة . لأن ملكوت الله لابد أن يغتصب . والصلاة تحتاج إلى الجهاد والنضال . هكذا صلى المسيح فى البستان ، ودانيال فى بابل ، وأبفراس فى البيت الذى إستأجره بولس . هكذا كانت الصلوات التى رفعت فى القديم . لنصل حتى يرن صدى الصلاة على أبواب مقادس الله « مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت فى الروح وساهرين فى هذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين » (أف ٦ : ١٨) . ولنصل متذكرين أن كل شئ يتوقف على وعد الله المبارك ، وعالمين فى نفس الوقت أن الإستجابة تتوقف على قوة صلواتنا وحرارتها .

لنصل باسم المسيح : من الممكن أن ينحصر كل تفكيرنا فى حق الله ، أن يكون شغلنا الشاغل الغيرة على بيته ، أن نتحد به بكليتنا حتى تصير مصلحته هى مصلحتنا . عندئذ فإننا عندما نصلى يكون الابن كأنه يخاطب الأب على شفاهنا . وهذا ما قصده عندما أكد لنا مرارا ضرورة تقديم الصلاة باسمه . إن روح البنوة التى تتطلع إلى وجه الآب وتقول « أيها الآب » ، وروح إنكار الذات المستعدة لتضحية كل شئ فى سبيل تمجيد الله ، وروح المحبة التى لا تبالى إلا بحق الله - كل هذه تتضمنها الصلاة حين نقدمها باسم المسيح . وعندما نصلى هكذا فإننا نضمن إتمام الآتيات (الأوليات) التى وعد بها الله .

(٢) صيغة الأمر فى الإيمان

« من جهة بنى ومن جهة عمل يدى أوصونى » . تكلم الرب يسوع بهذه اللهجة عندما قال « أيها الآب أريد » ويشوع استخدمها حينما رفع رمحه نحو الشمس فى مغيبها ساعة الإنتصار الرهيب وصرخ قائلا « يا شمس دومى » . وإيليا إستخدمها حينما أغلق السماء ثلاث سنين وستة أشهر ، ثم فتحها .

يا لها من شركة عجيبة يأمرنا الله للدخول فيها . لقد تعودنا إطاعته ، لقد ألفنا سماع مثل هذه الكلمات التى وردت عقب ذكر هذه الآية « يداى أنا نشرتا السموات وكل جندها أنا أمرت » (ع ١٢) . أما أن يدعونا الله لكى نوصيه فان هذا تغيير فى العلاقة يبعث على الدهشة ، ولكن لا شك فى قوة هذه الكلمات الحرفية . يقول الرب لنا نحن مفديه فى المسيح يسوع « أوصونى » أو « أأمرونى » . ولا يشترط سوى هذا الشرط الواحد أن تكون توصيتنا « من جهة بنيه ومن جهة عمل يديه » ، وأن تكون مركزة على كلمة الوعد .

يا له من فرق عظيم بين هذه الحالة المجيدة التى يدعونا اليها الله وبين صلوات الترود والتشكك ، الصلوات الهزيلة العرجاء التى تعودناها ، والتى تصبح فاترة جدا إذ تكون مجرد كلمات جوفاء نرددها كل يوم . نحن نتوقع ألا يستجيبها الله الآن وفى تلك الحياة ، بل نتوهم أنها قد تستجاب يوما ما على مر الزمان كما تفعل المياه بتساقطها المتوالى إذ تحفر لنفسها طريقا فى الصخر .

ما أكثر المرات التى رأينا فيها المسيح - أثناء حياته على الأرض - يضع البشر فى مواقف تتطلب أن يأمروه أو يوصوه . فعند دخوله أريحا وقف وقال للأعميين « ماذا تريدان أن أفعل بكما » (مت.٢ : ٣٢) . وكأنه قد قال لهما إنى رهن إشارتكما لتأمرانى وتوصيانى . وإن ننس فلن ننسى كيف سلم للمرأة الفينيقية مفاتيح كنوزه مبينا لها أن تغترف منها على قدر ما تشاء ، ولقد أثرت عشرته الطويلة للتلاميذ حتى فى كلماتهم لأننا نلمس فى صلواتهم الحارة صيغة الأمر هذه « والآن أنظر يا رب الى تهديداتهم وإمنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة » (أع ٤ : ٢٩) .

أيستطيع العقل البشرى أن يدرك سمو المركز الذى يرفع الرب أولاده الصغار إليه ؟ فإنه يبدو كأنه يجلسهم بجواره على عرشه ، ويصرح لهم هذا التصريح الخطير ، بينما تكون نيران الروح القدس تحرق من قلوبهم محبة الذات وكل الشهوات الجسدية الدنيئة « كل بركاتى تحت أمركم . وإننى مستعد لإتمام كل ما تشتهيه قلوبكم . مهما سألتم فذلك أفعله » .

العالم ملىء بالقوات العظيمة التى تعمل لخيرنا ، فيه النور الذى نستضئ به ، والمغناطيسية التى تحمل رسائلنا ، والحرارة التى تدفع الآلات البخارية ، والأزوت الذى يحطم الصخور ، وما إلى ذلك من القوات لا حصر لها . هذا العصر هو عصر الآلات الميكانيكية ، عصر الإختراع ، الأمر الذى سبب ضعف القوة العضلية فى الشعوب المتمدينة بسبب عدم تمرنها وعدم إستعمالها . إن الإنسان يتقدم تقدما عظيما جدا ومضطردا فى السيطرة على قوات الكون العظيمة ، وإخضاعها فى سبيل نجاحه وتقدمه ، وهكذا تعود إليه سيطرته القديمة على العالم إلى حد ما .

وما هو السر فى هذه القوات الطبيعية العظيمة ، التى هى مظاهر لقوة الله ، تطيع الإنسان طاعة مطلقة ؟ أليس السر فى طاعتها هو أن الإنسان قد درس طرق إستخدامها دراسة مستفيضة ، وأطاعها طاعة مطلقة ؟ من البديهيات فى علم الطبيعة « أطع ناموس القوة ، تلزم القوة بطاعتك » . فإذا درست مثلا نواميس الكهربائية ، أطعتها بكل دقة إستطعت أن تسير التيار الكهربائى كما تريد ، وتستخدمه كيفما تشاء . فكل ما هو مطلوب منك الطاعة الكاملة لما تتطلبه طبيعتها . هكذا يعطى الله ملء الروح القدس لمن يطيعونه .

إن كل بركات الله متوفرة فى الرب المقام بين الأموات والممجد . وهى تصل إلينا عن طريق شركة الروح القدس الذى يتوسط بين غنى المسيح الذى لا يستقصى وبين فقرنا ، ويوصل هذا بذاك كما يوصل المحيط غنى العالم إلى أصغر الجداول إذن فلنتصل بالروح القدس ، لندرس طرق الإمتلاء به ، لندرس العوامل المعطلة والعوامل المساعدة ، لندرس العوامل التى تزيدنا إمتلاء والعوامل التى تطفئ الروح . إن أطعته بعث فى نفسك قوة عظيمة جدا تدهش كل من حولك ، وإن قاومته أو صديته هجرك وترك نفسك تصارع بأقصى ما تستطيع من قوة ضد متاعبها وتجاربها .

سلم نفسك لله . ومهما قال لك فإفعله . كن دقيقا جدا فى طاعتك . إسمح له بأن يعمل عمله ، وعلى قدر تسليمك له تكون القوة التى تنالها منه . على قدر ما تكون إنسانا مرتبا تحت سلطان القائد الأعظم تستطيع أن تقول لمصادر بركاته هذه أو تلك إذهبى أو تعالى أو إفعلى هذا . عندئذ يمكن أن يأتمنك الله أو يعطيك مفاتيحه ، ويأمرك بأن

تغترف من بركاته على قدر ما تستطيع . عندئذ تكون لك معه الراحة التى تمكنك من أن تسمعه يأمرك قائلا « أوصنى » . وإذ تذكر الولاء اللائق بك كأحد رعاياه ، ومركزك كخاطئ مخلص ، فإنك تتحدث إليه « من جهة بنيه ومن جهة عمل يديه » .

على أننا بعد الصلاة الحارة والإيمان القوى يجب أن نتضع قدام الله كما فعل إيليا الذى بعد أن طلب النار من السماء إنطرح على الأرض واضعا وجهه بين ركبتيه . فإن أسمى الملائكة الموجودين فى حضرة الله هم أكثرهم إتضاعا وسجودا . وأقدس النفوس تقدم دائما ذبيحة القلب المنكسر والنفس المنسحقة . والقوة التى تحرك اليد التى تحرك العالم لا يصل إليها إلا من يستطيع أن يعترف بكل إتضاع « أنا دودة لا إنسان » .

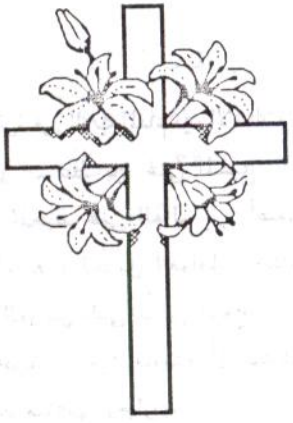

- ١١ -

الله حامل أثقالنا

إشعياء ٤٦ :٤ [١]

لا تيأس فهنالك من يهدىء العاصفة
الذى يغذى الغربان اليافعة
ولا يتغافل حتى عن أصغر العصافير
ثق فى صخر الدهور
هوذا الآن وفى هذه اللحظة يتحدث
فيهدأ كل شئ

(جيسبورن)

المحور الذى يدور حوله الحديث هنا هو سقوط بابل . فقد هجم كورش ، وفتحت المدينة العظيمة أبوابها أمام جيش فارس الذى إشتد سخطه من طول الانتظار على أبوابها . وسالت دماء الأشراف غزيرة فى قصورهم ، وقتل أغلب المدافعين عنها . واختبأت النساء والأطفال فى مخابئ بيوتهم الخفيفة جدا ، أو ملأوا الشارع بعويلهم وصرخاتهم الداوية التى تعبر عن رعبهم وفزعهم ، وعن طلب النجدة والإغاثة ، وهم يركضون بأقصى سرعة هاربين من وحشية الجنود .

---

(١) « وإلى الشيخوخة أنا هو . وإلى الشيبة أنا أحمل . قد فعلت وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجى » .

لقد تمت أروع المعارك وأجملها بجوار هيكل الأوثان ، وهو ذا الآن قد هدأ كل شئ . لقد سقط الكهنة حول المذابح التى خدموا عليها ، وإختلطت دماؤهم بذبائحهم ، وصارت ملابسهم الكهنوتية الفاخرة أكفانا لهم . وهو ذا الطرقات التى كانت تحفل بربوات العائدين فى أسعد الأيام غصت الآن بالجنود يحملون الأصنام التى لا حول لها ولا قوة . فان القوم الذن يدينون بعبادة الإله الواحد فى بلاد الفرس لم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن يشفقوا على الآلهة الكثيرة فى بابل ، ولذلك حملوا هذه الأصنام معهم كدلالة حربية على أنه قد تم لهم النصر .

هنالك « بيل » الذى يرجع بأن إسمه كان يحمل إسم العاصمة نفسها ، تأمل إليه كيف يرفع من مكانه بكل خزى وعار . ويتبعه أيضا « نبو » . كانت تلك الأصنام البغيضة المحلة بالأحجار الكريمة ، والمرتدية ملابس الثمينة ، تحمل من هياكلها ، وكان حاملوها يضحكون ويستهزئون كما كانوا لا يراعون لها حرمة ، وهم يمدون أيديهم ليجردوها من جواهرها ، وهو ذا الآن تجدها تحمل خارج الهياكل على ظهور الفيلة أو العربات التى تجرها الثيران . فى أسعد أيامها كانت تحمل بكل مظاهر التجلة والوقار لتطوف شوارع بابل التى انتشر فيها الطاعون أو الأمراض الأخرى ، وعندئذ يمتلئ الجو بأصوات الصنوج والدفوف ، وتغص الشوارع بالعابدين . أما الآن فقد تغير كل شئ . « صارت تماثيلها على الحيوانات والبهائم محمولاتكم محملة حملا للمعيى . قد إنحنت جثت معا . لم تقدر أن تنجى الحمل . وهى نفسها قد مضت فى السبى » (٤٦ : ١و٢) .هذا ما حل بآلهة بابل إذ حملت إلى السبى .

بجانب هذه الصورة القاتمة التى تعبر عن فشل آلهة بابل الذريع يرسم لنا الوحى صورة لامعة عن الرب يبين لنا فيها عكس هذه الحقائق على خط مستقيم . إنه يتحدث إلى « بيت يعقوب ، وكل بقية بيت إسرائيل » كأبناء حملهم من البطن ، محمولين منذ الطفولة (ع ٣) .

لم يكن إلههم فى حاجة لأن يحمل ، بل هو الذى حملهم ، لم يكن فى حاجة إلى عربة لأن أذرعه الأبدية هى التى خلقت المهد والعربة معا . كما كان هو (أى الله) بالأمس سيكون . فإنه لن يتغير ، وسوف يحملهم حتى الشيخوخة « إلى الشيخوخة وإلى الشيبة أنا أحمل . قد فعلت وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجى » (ع ٤) .

هـذا الفارق مستمر أبد الدهر . فالبعض يحملون دياناتهم والآخرون تحملهم ، ديانتهم . البعض يحملون طقوسهم وفرائضهم وممارساتهم معتمدين عليها وحدها كواسطة للخلاص ، والاخرون ينظرون إلى الله خلال هذه الطقوس ، يسلمون أنفسهم إليه واثقين أنه سوف يرفعهم ويحملهم ، كما يحمل الإنسان إبنه ، فى كل الطريق التى يسلكونها حتى يأتوا إلى المكان الذى تكلم لهم الله عنه (تث ١ : ٣١ ، اش ٦٣ : ٩) .

(١) الأثقال التى يتعهد الله بحملها

إن حياة أغلبنا مثقلة جدا . لقد بدأنا الحياة غير مثقلين ولكن تعاقب السنين قد أضاف علينا أثقالا ومسئوليات . إننا نركض مثقلين ، نسير بصعوبة نحمل الأثقال ونحمل الخطايا .

١- وأول هذه الأثقال هو ثقل وجودنا فى هذه الحياة :

إننا يجب أن نعيش . نحن لم يؤخذ رأينا إن كانت لنا رغبة فى أن نوجد فى الحياة ، على أننا نعيش . ولم يكن لنا اختيار سوى أن نعيش ، واليوم ليس لنا هذا الإختيار . عندما يأتى الحادث الرهيب الذى يسميه البشر الموت ، ويضرب ضربته القاضية تظل الحياة باقية هناك وإن انتهت من هذا العالم ، باقية بحالة أخرى غير هذه الحالة ، باقية إلى الأبد . لأنه إن كانت شعاعة النور التى فينا قد أخذت بدايتها من نار الطبيعة الإلهية الأبدية فإنها سوف تبقى حتى إذا ذبل القمر بسبب الشيخوخة ، وانطفأت النجوم فى الليل .

٢- وهنالك ثقل الخطية :

إن الكلمة المستعملة هنا للتعبير عن الحمل هى نفس الكلمة التى يستعملها أشعياء عن حامل الخطية الذى حمل خطايانا فى جسده على الخشبة (ص ٥٣ : ٤ و ١١ و ١٢) . ورغما من ضغط الثقل علينا بمعدل عدة أطنان كل سنتيمتر مربع من جسدنا إلا أننا لا نحس به ، لذلك لم يكن الإنسان قبل مجئ المسيح يحس كثيرا بثقل الخطية أو يئن تحت ثقلها الذى لا يحتمل . ولكن إذا إنتقلت صورته الطاهرة البهية من أرض إلى أرض ، ومن جيل إلى جيل ، فقد أقنعت البشر بثقل الخطية المروع . وهذا يبين السبب فى أنهم متعبون وثقيلوا الأحمال ، وأن نفوسهم تنقصها الفرح والبهجة ، وأن أقدامهم تتعب بسرعة ، وأن يوم الحياة يسير متثاقلا نحو النهاية . وإذ تبين لنا هـذا السبب فإننا نصرخ مع بطرس « اخرج من سفينتى يا رب فإنى رجل خاطئ » .

٣- ثقل المسئولية نحو الآخرين :

إن حياتنا ممتزجة إمتزاجا تاما بحياة الآخرين حتى أننا لا يمكن أن نعيش طويلا دون أن نثقل بالعناية بهم . فالإبن يجب أن يعتنى بأمه وإخوته والشاب مرتبط بأوثق الربط بشريكة حياته التى هى أعز لديه من نفسه ، والتى تحز فى نفسه آلامها وهمومها أكثر مما تؤثر فى نفسه همومه الشخصية . والآباء مسئولون عن أبنائهم وفلذات أكبادهم الذين يسلمون إليهم وديعة طاهرة . ونحن مسئولون عن الأيتام الذين يحرمون من آبائهم وأمهاتهم ، والرئيس مسئول عن مرؤسية . إننا مسئولون عن المجربين والمضطهدين والمتألمين . من المستحيل أن أتحرك أنا وأن تتحرك أنت بخفة كما كنا منذ سنوات .

٤- هنالك أيضا ثقل أعمال الحياة :

إن الذى يجعلنا نحس بأهمية وضرورة الحياة هو أن نحس أننا أرسلنا بالفعل ما لا يستطيع أى شخص آخر أن يفعله ، وإننا قد أوتمنا على وزنات سوف نعطى عنها حسابا وإننا قد دعينا لنغرس غرسا فى الكرم ، أو نضع قالبا فى الحائط ، أو نستخدم إحدى الوزنات من رأس مال السيد ، إن كنا ندرك قيمة تأثير حياتنا على الآخرين من بركة ولعنة فلابد أن نحس بثقل المسؤولية الموضوع على أعناقنا .

فى كل هذه الأثقال لا يمكن إلا أن يحمل كل إنسان حمل نفسه ، فلكل رجل ثقله ولكل إمرأة ثقلها . أمام كل إنسان جبل من الصعوبات لابد من تسلقها ، أثقال يجب حملها ، صراع يجب أن يجاهد فيه . لا يستطيع أحد أن يشرك غيره فى زيت مصباحه ، أو فى قوته أو شجاعته . وكل ما نستطيع عمله هو أن نعطف على الآخرين . كل نفس بشرية ينبغى أن تحمل حمل نفسها من أثقال الوجود فى العالم ومن أثقال الخطية ، والمسئولية ، وأعمال الحياة . ولكن هنا يتقدم إلينا الرب . إنه لا يميز بين أثقالنا وبين أنفسنا بل يأخذنا ويأخذ أثقالنا بذراعه المقتدرة ويحملنا دون أى إحساس بالتعب ، ودون أى خوف من السقوط أو التعثر . نحن أحمال ثقيلة ولكنه لا يبالى ، لقد حملنا فى كل أيام حياتنا الماضية ، وهو يحمل أثقالنا كل يوم . وسوف يحملنا ويرفعنا حتى يضعنا فى الأرض التى لا تدخلها أثقال ، فى المدينة التى لا يجوز أبوابها أى ثقل ، العالم الذى يركض فيه المتعبون كالإبل ويستريح فيه الثقيلو الأحمال .

(٢) السبب الذى يدعو الله لتحمل هذه المسئولية

« قد فعلت وأنا أرفع » [١] حينما يرى الوالد أن طبيعته الشريرة تعود إلى الظهور فى إبنه ، يرى نفس الطبع ، نفس العواطف ، نفس الخواص ، ولذلك لا يجد مبرر لنبذه ويجد أن أخطاءه لا تبرر التخلى عنه ، فإنه يقترب منه بقلب يتدفق عطفا وإشفاقا ويتمم هذه الكلمات متبرما « قد فعلت وأنا أرفع » .

عندما يبعث الإنسان فى قلب شخص آخر محبة قوية ملتهبة فإنه إذ يتأمل فى عظمة تلك المحبة التى حركها فى قلب صديقه فإنه يقول إلى نفسه « قد فعلت وأنا أرفع » حتى ولو قامت بعض الإعتبارات التى تدفعه إلى التساؤل عما إذا كان مصيبا فى هذا التصرف .

حينما يجمع الخادم المسيحى حوله شعبا كبيرا ، ويتجدد منهم الكثيرون ، فإنه إذ يتطلع حوله لمن يدعونه قائدا أو أبا ، ويستمع إلى الأصوات التى تناديه فى مكان آخر ، يقول لنفسه « قد فعلت وأنا أرفع » إلا إذا كانت هنالك بعض إعتبارات قوية تضغط عليه .

والآن ، بعد هذه التأملات ، لنتسامى إلى الطبيعة الإلهية نفسها التى نطبق عليها نفس هذه الاعتبارات لقد صنعنا الله وصورنا ، لقد خلق فينا رغبات لا يمكن لسواء أن يشبعها . لقد وضعنا وسط ظروف تحفها متاعب غير عادية ، وإئتمنا على خدمة جليلة ورهيبة ، وكلفنا بمهمات أثقلت كاهلنا لأقصى حد . ولأنه قد صنع كل هذا فإنه يتكفل بكل ما يتطلبه الأمر لإتمام أغراضه . وطالما كانت الأشياء منه فلنثق تماما بأنها لابد أن تكون به وله للأبد . هو قد صنع وهو يرفع . إنه يتحمل مسئولية صنعنا كما نحن ، ووضعنا أينما نحن ، لذلك فإنه لابد أن يكمل كل ما نحتاجه ، لأن رحمته تبقى إلى الأبد ، وهو لا يمكن أن يتخلى عن صنعة يديه .

---

(١) « أنا صنعتكم فأنا أحملكم » حسب ترجمة اليسوعيين .

فى الكتاب المقدس نجد تأكيدات كثيرة لهذه الحقيقة . هنالك كلمة الرب التى يخبرنا فيها أن أبانا السماوى ملتزم بتقديم الطعام للجائع ، واللباس للجسد الذى صنعه . هنالك التصريح المتضمن بأن ما صنعنا له الله وأعطانا عربونه لابد أن يكمله . هنالك السلسلة الذهبية المقدمة لنا فى الإصحاح الثامن من رسالة رومية ، التى تجد كل حلقة فيها تدعم الأخرى ، فسبق التعيين يتطلب الدعوة ، والدعوة تستلزم التبرير ، والتبرير يجر فى أذياله المجد . وحينما يفكر الله فى بناء أخلاق شخص ما فإنه يفكر أولا فيما إذا كان من الممكن تكملتها ، وإذا بدأ كان ذلك علامة أكيدة بأنه سوف يتمم قصده . إن ما يصنعه لابد أن يرفعه .

هكذا كان الحال مع إسرائيل . لقد صنع شعبه الخاص بإختياره ونعمته . فقد اختارهم من إحدى قبائل البدو المجهولة . وإتخذهم لنفسه شعبا خاصا ، وصيرهم ميراثه ، ورسله إلى العالم ورغم تمرداتهم وأخطائهم الكثيرة فإنه لم ينبذ الشعب الذى سبق أن عرفه ، وفى كل تلك الأجيال المضنية كان يشفق عليهم كل الإشفاق ، وهو لابد أن يحملهم على أجنحة النسور إلى مدينتهم وأرضهم .

وهذا هو الحال مع عالمنا . هو صنعه . لقد كانت محبته وقوته هما اللتان دفعتاه إلى الوجود . إنه يحمل آثار بركته الأولى . والله لم يكف عن حمله يوما ما فى كل الحقبات السحيقة الماضية ، ولو كان قد تلوث بسواد خطاياه ، وتلطخ بدماء جرائمه . لقد حمل عصيانه وخزيه وعاره حينما دفع به إلى الصليب بإزدراء . لقد حمل خطيته على الجلجثة والنتيجة مضمونة فإنه يحمله على قلبه ، ولن يتغلب عنه حتى يتغلب صلاحه اللانهائى على شره (شر العالم) ، ويعود لكى يضئ بجماله الأول ، ويسبح مع العوالم الأخرى .

(٣) التعزيات التى تبعثها هذه الاعتبارات

١- فى ساعة الحزن من أجل الخطية :

إن الخطية هى صنع أيدينا . ولن يستطيع الخاطئ أن يعزوها إلى الله بأى حال من الأحوال . استمع إليه وهو يصرخ قائلا « لقد أخطأت وعوجت المستقيم ولم أجاز عليه » (اى ٣٣ : ٢٧). هو الذى أخطأ . ومع ذلك فإنه بشعوره التام بالخطية يلجأ إلى الله .

لأنه هو الذى خلقنا ، وسمح بأن نولد كأعضاء فى جسم البشرية الخاطئ لقد سبق أن عرف ما سوف نكون عليه قبل أن يضع قلبه علينا ويجعلنا خاصته ألا يحق لنا أن نتوسل إليه بأن يحمل معنا نحن الذين قد خلقنا وفدانا ، وإتخذنا لنفسه بنين بالتبنى والنعمة ؟ ألا يجيبنا هو قائلا « قد صنعت وأنا أرفع » (أنا صنعتكم فأنا أحملكم) ؟

٢- فى ساعة الارتباك الشديد :

عندما نثقل بتدبير مصالحنا ، والعناية بالآخرين ونجثو أمام عرش النعمة ، عندما تتعقد ظروفنا تعقدا فلا نجد له حلا ، عندما نرتبك ولا ندرى ماذا نفعل أو كيف نتصرف للوصول إلى المثل الأعلى - أليس لنا كل الحق لرفع عيوننا إلى فوق والتفرس فى وجه الرب قائلين « أنت سمحت لى أن أصل إلى هذا الموقف ، أنت وحدك تعرف ماذا ينبغى أن أفعل ، فأنت قد صنعتنى ، ألا تحملنى لأجتاز هذا التيار الشديد ، وتضعنى حيث أستطيع الوقوف بقدم ثابتة ؟ » ألا يجيبنا هو أيضا « قد صنعت وأنا أرفع » (أنا صنعتكم وأنا أحملكم) ؟ .

٣- فى وقت مشغولية البال بسبب التشاؤم أو توقع بلايا قادمة :

عندما نصعد إلى أعالى الجبال الشاهقة فإن السحب تخبئ الصخور التى فى طريقنا ولا ندركها إلا حين ترتطم بها أقدامنا . هكذا الحال أيضا فإن المستقبل مخفى عن أعيننا . لأننا نجهل ما تخبئه الأيام فإن الخوف يملأ قلوبنا . وإن كان الحجاب رقيقا جدا إلا أنه لا يمكن رؤية ما يستتر وراءه . وهنا أيضا لا يسعنا إلا أن نلجأ إلى الله الكلى القدرة ، وهو يعرف مقدار ما يمكن أن نتحمله لأنه هو صنعنا ، وليس معقولا أن يعرضنا للخطر نحن الذين قد حصر فينا تفكيره وصرف وقتا فى صنعنا هو لا يمكن أن ينسى أو يتغافل . فلنلق عليه المسئولية .

يا من صنعتنا ، إحملنا كما تحمل الأم رضيعها ، وكما يحمل الأب إبنه المجهد ، وكما يحمل الدليل السائح إذا ما أحس بالدوار بسبب التطلع إلى هاوية سحيقة أسفله . أنت قد صنعت ، ألا ترفع وتحمل ؟ وهنا أيضا نسمع الجواب « إلى الشيخوخة أنا هو . وإلى الشيبة أنا أحملك . قد فعلت وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجى » .

- ١٢ -

الدعوة للخروج

إشعياء ٤٨ : ٢٠ [١]

لا تفكر فى الراحة مهما كانت الأيام جميلة
بل قم على الفور وإسلك طريق السماء
ألم يستقر على رأسك وعد الله
الذى لن ينقض ولن ينكث فيه
فلا تفكر فى حل أحقائك مرة أخرى
أو إطفاء سراجك
(كبل)

إلى هنا ينتهى الجزء الأول من هذه النبوات العجيبة . إنه ينتهى فعلا بنهاية الإصحاح الثامن والأربعين المتضمن دعو « بيت يعقوب المدعوين باسم إسرائيل الذين خرجوا من مياه يهوذا » للقيام والخروج من بابل .

لم يمر عصر دون أن يواجه شعب الله شرا مستطيرا يتمثل فى مدينة ما ، أو محالفة معينة ، أو مؤامرة قوات الظلمة . تأمل إليهم تجدهم على الدوام فى روح واحدة فى أشكال مختلفة : على الدوام يعبدون ما هو بشرى دون الله ، على الدوام ينكبون بالكبرياء والغرور مع خلوهم من المثل الأخلاقية . دائما يعملون بمجهودهم البشرى ويعتمدون على حكمتهم فى تدبير الأمور دون الاعتماد على معونة الله التى بها وحدها يضمن الثبات والنقاء .

---

(١) « اخرجوا من بابل اهربوا من أرض الكلدانيين . بصوت الترنم اخبروا نادوا بهذا شيعوه إلى أقصى الأرض . قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب » .

هذه الحقيقة العظمى لا تزال فى قوتها اليوم كما كانت حين كانت أسوار بابل المنيعة تضم الملايين وتفخر بأنها سيدة العالم . يظن البعض أن بابل هنا تشير إلى كنيسة روما أو روح الطقسية (التمسك بقشور الطقوس) والأفضل أن ننظر إليها بأنها هى العنصر الذى يعمل دوما فى المجتمع ، والذى يدعى « العالم » والذى قال عنه الرسول « أنه بلا رجاء ، بلا إله » إذن يحق لنا تطبيق وصف عدو إسرائيل القديم ، والدعوة للخروج ، على كل ما يحيط بنا الآن .

(١) الذهاب إلى بابل

يبين لنا الله مقاصده لشعبه المختار بتشبيه جميل (ع ١٨) .

١- **كان يمكن أن يكون سلامهم كنهر** . لا كمجرى ماء صغير تكاد المياه أن لا تملأ قاعه ، بل كنهر عميق ، تياره جارف . تجرى فيه السفن العظيمة ، يحمل نفاية المدن دون أن يتلوث . أيتها الأنهار التى تقوم بخدمة الإنسان بصفة دائمة ، التى لا تكتسحها العواصف ، ولا ينشفها الجفاف ، ولا تخشى من أن تتلاشى من الوجود بل تعكس على الدوام زرقة السماء نهارا ونجومها ليلا ، ومع ذلك تقنع بإرواء زهرة متواضعة تمد جذورها فى طلب الماء . إنك فى نموك الدائم ، وفيضانك كل عام ، ونفعك العميم وإتساعك العظيم وهدوئك التام ، قد قصد بك أن تعلمى الإنسان بنغماتك الشجية الدائمة عن ذلك السلام اللانهائى الذى ينشأ وينمو ويتكشف له فى كل أدوار حياته . كانت هذه على الأقل مقاصد الله لشعبه فى القديم ، ولا تزال هى مقاصده لكل الحالفين بإسمه ، والذين يذكرونه كإله لهم .

٢- **وكان يمكن أن يكون برهم كلجج البحر** . تأمل فى شاطئ البحر وقت الجزر ، ولاحظ الرمال المترامية الأطراف ، والأوحال الطينية ، والصخور القاتمة . ليست هذه هى الحالة التى يقصدها الله لأى واحد من أولاده . إنه لا يريد مطلقا أن يكون بره كالمياه فى وقت الجزر ، أو أن تكون إختباراتهم مقفرة مجدبة ، أو أن تنعدم منهم القوة والطهارة والفضيلة بل يريد أن تكون الحياة الداخلية كأعماق المحيط حيث تصل الأمواج إلى أقصى حدودها ارتفاعا ، والمياه إلى الأعماق البعيدة . من ذا الذى يرى أمواج المحيط الأطلسى

المتلاطمة المتتابعة ، إذ تبدو فى مجدها ، تعلوها الرغاوى البيضاء تتابع الواحدة الأخرى فى سباق دائم ، دون أن يدرك عظمة مقاصد الله نحو كل الذين تعلموا أن يدعوه أبا ، إذ يريدهم أن تكون طبيعتهم متجددة ، غنية سهلة الحركة ، صافية كتلك الأمواج التى ترفع الصوت عاليا لتذيع غنى قدرة الله .

يا له من فرق شاسع بين هذه الحالة وحالة البحر المضطرب الذى يشبه به الأشرار . فإنه دائم العجيج والتهيج ، والأنين على طول الشواطئ ويقذف الأقذار والأوحال . خير لى ألف مرة أن أكون وسط المحيط حيث النسيم العليل يهب من مسافات شاسعة فوق المياه ، عن أن أكون على الشاطئ الضحل حيث تتكسر الأمواج على الرمال . تشبه الحالة الأولى الرجل البار فى رجولته القوية المجيدة المتجددة النبيلة ، أما الثانية فتشبه الشرير لأنه دائم الاضطراب يقذف ما لا ينفعه .

هذا المثل الأعلى فى مقدور كل الذين يصغون لوصايا الله . هنالك طريقة قصيرة وسهلة بها يبدأ ذلك السلام الذى يملأ قلبى وقلبك ، وتبدأ أمواج ذلك البر أن تفيض فى نفوسنا بهجة وفرح . إصغ وإعمل ، إسمع وصاياه وإحفظها استضئ بنوره . أما إذا رفضنا وإبتعدنا وسرنا وراء شهوات نفوسنا الشريرة فاننا نفوت على أنفسنا لا محالة تحقيق ذلك القصد الإلهى السامى الذى يريد أن يملأ قلوبنا فرحا وأفواهنا تسبيحا لإلهنا . إن الطاعة لإرادة الرب ، مهما أو كيفما أعلنت لنا ، هى العامل الرئيسى الذى يوصلنا إلى ذلك السلام وهذا البر .

أما إذا رفضنا فلابد من اجتياز كور المشقة فى بابل هذا العالم كما حل بإسرائيل . لن تستطيع أى قوة فى الوجود تعطيل إتمام مقاصد الله . ولكن إن أصرينا على عنادنا ، وكان عنقنا كعضل من حديد ، وجبهتنا نحاسا (ع ٤) ، إن وضعنا ثقتنا فى صنمنا ومسبوكنا (ع ٥) ، إن لم نرد أن نسمع أو نعرف أو نفتح آذاننا (ع ٨) - فحينئذ ينبغى أن نسير فى طريق ملتوية أليمة ، طريق بابل بآلامها وأوجاعها ، حيث نتنقى من كل زغل كما فى كور الفضة . ما أكثر الذين يجوزون فى هذه اللحظة هذا الكور من شعب الله ، مع أنهم كان يمكن أن يتفادوه لو أنهم سمعوا وأطاعوا . ليس هذا معناه أن الكور يدل دواما على عدم الأمانة ، بل إن كنا غير أمناء فيجب أن نتوقع البوتقة .

(٢) الحياة فى بابل

كانت تدعى هذه المدينة العظيمة « سيدة الممالك » (ص ٤٧ : ٥) . لنتخيلها بأسوارها المنيعة ، ومساحاتها الفسيحة ، وتماثيل العجول الضخمة تحرس مداخل الهياكل العظيمة ذات السلالم الرخامية والشرفات الجميلة . والأهرامات والأبراج والجنات المعلقة ، وموانيها التى تستقبل البضائع القادمة من المحيط الهندى ، وأسواقها غاصة بتجار كل العالم ، وشوارعها مزدحمة بسكانها . ولكن بجانب عظمتها ينخر فى عظامها سوس القسوة والبذخ ، والشر وعبادة الشيطان .

القسوة . عندما سلم الله شعبه ليدها لم يظهر لهم أى أثر للرحمة ، بل ثقلت نيرها جدا على الشيوخ الذين كانوا يرزحون تحت أثقالهم ، أو يغشى عليهم بسبب الرعب الذى ملأ قلوبهم أثناء إرتحالهم إلى بابل ، أما الشبان فقد صلب منهم الكثيرين وسط أطلال مدينتهم بينما كان يتصاعد منهم دخان حرائقها التى قضت عليهم ص ٤٧ : ٦و٧) .

البذخ . لقد أسرفت فى التنعم ، وعاشت غير مكترثة (ص ٤٧ : ٨) لبس سكانها الكتان النقى والأرجوان والقرمز ، وتزينوا بالذهب واللآلئ والأحجار الكريمة . كانت بضاعتها الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللآلئ والكتان والأرجوان والحرير والقرمز والعاج والنحاس والقرفة والعود (ص ٤٧ : ٨) .

الشر . « وأنت إطمأننت فى شرك » (ص ٤٧ : ١٠) لقد إطمأننت فى الظلم والإغتصاب ، فى السكر والبطر ، فى نجاسات عبادة الطبيعة . وبذلك جعلت كل الأمم تشرب من خمر غضبها .

عبادة الشيطان . لقد تعبت فى رقاها وفى كثرة سحورها (ع ١٢) . وسط هذه المناظر قضى اليهود سنى سبيهم المليئة بالمتاعب . ما أمر نصيبهم ، لقد صاروا فريسة أو غنيمة . كشفت حديثا غوامض وثائق بيع العبيد ووجد أنها تحمل أسماء يهودية . والأرجح أن معظمهم كانوا يسخرون فى آداء بعض الأعمال العنيفة ، فى تشييد العمارات والأبنية المختلفة التى أدت إلى تقدم بابل ، كما فعل أجدادهم فى مصر قبل ذلك بعدة أجيال .

ولكن وسط هذا التأديب الشديد والآلام المروعة كانت تبرز هنالك ببطء فكرة سامية نبيلة بعثت إليها الكلمات القديمة التى تنبأت عن مصيرهم . فإنه لم يكن ممكنا أن يظلوا طويلا مسبيين فى أيادى معذبيهم ، ألم يكونوا شعب الله المختار المعينين لبركة العالم ؟ ألم يدعوا لحمل تابوت الله فى ميدان البشرية ؟ ألم يكن العهد الذى قطع مع إبراهيم فى القديم لا يزال حيا وقويا فى كل بنوده ؟ نعم قد يكونون فى بابل ، كأى شعب مسبى آخر ، ولكن قلوبهم مليئة بالرجاء . وفى نور هذا الرجاء ؛ ووسط نيران آلامهم هجروا محبة العبادة الوثنية إلى الأبد ، وتحولوا عن مجرد الحياة السطحية ليحيوا حياة روحية عميقة ، وانكبوا على دراسة أسفارهم المقدسة بغيرة ملتهبة دفعتهم منذ تلك اللحظة إلى جعل المجامع والكتبة أمرا جوهريا فى حياتهم العامة . فلم يحصل فيما بعد أن إلتجأ يهودى إلى العبادة الوثنية . وإستيقظ الضمير وأصبح مرهف الإحساس بصفة دائمة وبدون استثناء أصبح كتابهم المقدس موضع عناية فائقة الحد ، وأصبح المجمع اليهودى يلازمهم فى كل أرجاء العالم التى يتشتتون فيها .

وعلاوة على ذلك أصبحوا بعيدى النظر ، وإتسع مدى تفكيرهم عن معاملات الله للإنسان ، الأمر الذى مهد الطريق للإعلانات الجديدة التى كشف بها الإنجيل عن محبة الله الكاملة ، والأخوية البشرية . وكما أن النهر حينما يفيض بمياهه على الأرض المختلفة تشحن به محاصيلها ، هكذا حصل اليهود على بركات دائمة من إقامتهم الأليمة فى بابل بتلك المياه التى طالما امتزجت بدموعهم .

لعل بعض الذين يقرأون هذه الكلمات لا يزالون فى بابلهم . إنهم يتطلعون إلى الماضى المجيد الذى كان ممكنا أن يدوم لو لم يكونوا قد تزحزحوا عن طريق الطاعة الضيق . وحينئذ كان يصبح سلامهم كنهر وبرهم كلجج البحر . لكن للأسف لم يبق من هذه إلا الذكريات . لقد دفعوا أنفسهم إلى المتاعب والآلام التى قد لا يرون أى أمل للخلاص منها . وكان يبدو لهم أن سنى البلية يجب أن تتخذ طريقها البطئ الأليم بدون علاج . ولكن رغم كل ذلك ينتظر أمثال هؤلاء الخلاص من الله ، فإنهم لابد أن يرفعوا إليه التسبيح . ليتوبوا عن خطاياهم ويتركوها ، ليتعلموا الدروس العميقة التى يحاول روح الله أن يعلمهم إياها ، بل ليشكروا الله من أجل التأديب الأليم . فى هذه الساعات الحالكة الظلام يزرع نور للصديق وفرح للمستقيمى القلب (مز ٩٧ : ١١) . وللحال لابد أن يرن صوت للخروج قائلا « قوموا ارتحلوا لأن هذه ليست راحتكم . نادوها بأن جهادها قد كمل ، أن إثمها قد أعفى عنه اخرجوا من بابل ، اهربوا من أرض الكلدانيين » .

(٣) الخروج من بابل

كان العهد السابق ، عهد السبى والعبودية ، قد بدأ يتحول ليحل محله عهد آخر ، عهد الراحة والحرية . وهنا نجد تحولا بديعا فى إتجاه الكلام ، فيحول الحديث إلى العذراء ابنة بابل وتدعى للنزول عن عرشها والجلوس على الأرض . لم تعد ناعمة ومترفهة . بل يجب أن تنحدر إلى مستوى الخادمة الوضيعة جدا ، التى تطحن على الرحى وتحمل الأثقال فى البيت . وكان يجب أن يأتى عليها هذان الإثنان بغتة فى لحظة ، في يوم واحد - الثكل والترمل ، ولن يستطيع أن يرد عنها مصائبها كثرة سحورها ولا جهود الذين تاجروا معها (ص ٤٧ : ١-١٥) .

صدر الأمر إلى اليهود للخروج من أطلال هذه المدينة التى ربما لم ير العالم لها نظيرا « اخرجوا من بابل . اهربوا من أرض الكلدانيين » لقد كان الأمر الذى أصدره كورش مجرد ترديد لصدى الأمر الذى أصدره الله . ومما هو جدير بالذكر أنه بينما إندثرت بابل ، ولم يبق لها أى أثر سوى فى صفحات التاريخ فإن الشعب الذى ظل مستعبدا لها سبعين عاما لا يزال باقيا بل فى يده كنوز العالم .

هذه الدعوة للخروج يوجهها حراس السماء لكنيسة الله الحى . يقول الرائى « ثم سمعت صوتا آخر من السماء قائلا إخرجوا منها يا شعبى لئلا تشتركوا فى خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها » (رؤ ١٨ : ٤) . وفى الكلمات التالية نجد إشارة واضحة إلى إنقلاب بابل ، مع تطبيق ذلك على كل النظم والهيئات التى تقاوم حق الله ، والتى تواجه الكنيسة فى كل العصور . فى العصور المتقدمة كانت تطبق على الإمبراطورية الرومانية ، أما الآن فإنها تطبق علي روح العالم . إن بنائى بابل لم ينقرضوا قط ، فالإنسان لا يزال يحاول بمواهبه ونشاطه أن يشيد بناء مستقلا عن الله ليقيم لنفسه إسما ، متحديا مياه طوفان الزمن لكى لا تلاشى عمل يديه . كل التفكيرات البشرية والتدابير والجهود ونواحى النشاط التى يبديها الإنسان ، إن كانت بعيدة عن روح الله فإنها تشيد بناء هو بمثابة بابل الأولى أو بابل العظيمة ، ولو لم يكن بناء ماديا مرئيا .

من كل هذه يأمرنا الله للخروج والإعتزال « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم » (١يو ٢ : ١٥) « لا تمسوا نجسا » ليحرق روح المحبة الإلهية روح العالم وروح محبة الذات . إخرجوا من كل ما له صلة بالإثم ، من كل شركة مع الظلمة ، من كل ما يتفق مع بليعال ، من كل شركة مع غير المؤمنين . خارج أسوار بابل تنتظركم الصحراء التى يجب عبورها قبل الوصول إلى أورشليم ، وينبغى ألا نرهب الحرمان والتضحيات الجسيمة التى قد ندعى لإجتيازها . لقد كان الخوف من هذه التضحيات باعثا على حمل الكثير من اليهود على عدم إطاعة أمر كورش فاستمروا فى أرض السبى حتى فقدوا استقلالهم وحريتهم وصاروا شعب الشتات .

لا تسمح لمثل هذه المخاوف أن تعطلك أيها الأخ المسيحى قد يبدو بأن عبور الصحراء يتطلب عناء شديدا منذ سنوات دون توقف أو فترة إستراحة . لكن تشجع فإنه لابد أن يقودك فى البرية ويفجر فى الصخرة ماء . لابد أن يشق الصخرة فتتدفق منها المياه . وسوف تدهش حينما يمدك ببركات لم تكن تحلم بها ، وتزداد دهشتك حينما تجد هذه البركات الغزيرة فى وقتها المناسب . سوف تجد أن طريقك تحف به الزهور والأشجار سوف تجد الغابات بدلا من القفر الحالى ، سوف تجد آبار المياه بدلا من رمال الصحراء الحالية . لقد كمل الزمان وتم عصر التأديب . لقد أتت سنة فداءك . إخرج من العبودية التى أذلتك طويلا إلى حياة الحرية ، الحياة النبيلة ، الحياة الفضلى .

- ١٣ -

سهم مبرى

إشعياء ٤٩ : ٢ [١]

إن أفضل الناس إذا فعلوا أفضل ما يستطيعون
فإنهم لا يعرفون إلا القليل عما يفعلون
وأكثر الناس نفعا فى العالم إنما يُستخدمون كآلات
والمسمار الذى يوصل الخشب يجب أن يثقبه أولا
والله الذى يمسك المطرقة بيده
يرى العمل يتقدم لدى أول ضربة . فتشجع
(براوننج)

أيتها الجزائر ، جزائر اليونان ، التى فقت شهرة فى كل العالم ، إنك لن تدعى قط لتسمعى صوتا أعذب من ذلك الصوت الذى يتحدث فى هذه الكلمات . إن « سافو » بل « هومر » نفسه ، لم يستحقا إصغاءك إلى صوتهما . وأنت يا شعب العالم ! إن الحديث الذى يناديك ، ولو كان حديث أحقر قبائلك ، حديث غريب فى أرض غريبة ، منبوذ من الجميع ، إلا أنه يتضمن كلمات إذا أصغيت إليها ، رددتها بجميع لغاتك ، وسَرَتْ فى كل أرجاء العالم « اسمعى لى أيتها الجزائر وأصغوا أيها الأمم من بعيد » (ع ١) .

---

(١) « وجعل فمى كسيف حاد فى ظل يده خبأنى وجعلنى سهما مبريا . فى كنانته أخفانى » .

ومن هو هذا الذى يتحدث باللغة العبرية ، موجها الحديث إلى العالم كمستمع له ؟ كنا نظن أن اليهود فى حديثهم متحفظين كل التحفظ، يقصرونه على أنفسهم ، ولا يوجهونه إلى الغرباء قط . ويحرصون على أن لا يُسمع خارج حدود اليهودية . فاليهود لا يعاملون السامريين . والأمم فى نظر اليهود كالكلاب تحت المائدة . فمن أين جاء هذا العطف العالمى ؟ من أين هذا الاهتمام الفجائى بالأسرة البشرية جمعاء ؟ آه إن هذه هى كلمات المسيا ، اليهودى المثالى ، متحدثا باسم الجنس المختار ، وممثلا ذكاءهم كما قصده الله أن يكون ، لا كما طمسوه بتعصبهم . « وقال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به أتمجد » (ع ٣) .

لا شك فى أن هذه هى الطريقة الحقيقية للتأمل فى هذه الكلمات الرائعة . فى إحدى المناسبات الخطيرة فى حياة الرسول بولس ، نراه يبين صراحة أن هذه الكلمات تشير إلى يسوع المسيح . فقد كان جماعة اليهود فى أنطاكية مجتمعين فى مجمعهم الصغير الذى اكتظ بهم ، وكانت كل المدينة متلهفة لتسمع ذلك الشخص الغريب الذى هبط عليهم من جبال طورس . لكن هذا جرح كبرياء اليهود . « فلما رأى اليهود الجموع امتلأوا غيرة [حسدا] وجعلوا يقاومون ما قاله بولس مناقضين ومجدفين » . وبعد فترة وجيزة ، أيقن الرسول أن شروط إرساليته تلزمه بأن لا يبعثر كلماته أمام قوم يرفضون كل كلمة بل كل حرف منها ، ولذلك غيّر اتجاه كلامه فجأة . لقد قدم إليهم الحياة الأبدية ، ولكنهم رفضوها بازدراء ، فلم يبق إلا أن يتوجه إلى الأمم . ثم اقتبس هذه الكلمات الجليلة من هذا الأصحاح لكى يبرر نفسه إزاء المسلك الذى سلكه « لأن هكذا أوصانا الرب ، قد أقمتك نورا للأمم لتكون أنت خلاصا إلى أقصى الأرض » (أع ١٣ : ٤٧) .

ولكن ، قد يتساءل البعض : كيف يمكن أن تطبّق على المسيح كلمات قيلت صراحة عن إسرائيل ؟ وللإجابة على هذا السؤال إجابة وافية ، يتطلب الأمر شرحا مستفيضا . ولكن يكفى هنا القول إن المسيح كان يمثل كل ما هو نبيل وجليل وإلهى فى اليهودية . عندما فشل اليهود للمرة الثانية فى إتمام إرساليتهم العظمى للعالم ، رغم ما تكبدوه من الآلام فى سبيلهم ، عندما صاروا فى عهد الكتبة والفريسيين أمة اكتظت بمن يصدرون

الفتاوى فيما هو حلال أو حرام ، وبمن يدققون فى حفظ مجرد شكليات الطقوس ، عندئذ تعهد المسيح بالمسئوليات التى طرحوها عنهم ، وتممها بالإنجيل الذى نطق به والكنيسة التى أسسها . لقد تكشف جوهر اليهودية فى إرسالية المسيح . كان يجب على كل الأمة أن تعيش كما عاش وأن تفعل كما فعل . وكما تكشف الزهرة الناصعة البياض طبيعة الشجرة ، هكذا أعلن المسيح طبيعة أصل اليهودية . لقد كانت حياة المسيح نفسها مشابهة لتاريخ الشعب المختار . لذلك نرى متى الإنجيلى يقتبس آية من نبوة هوشع ، ويطبقها تطبيقا سليما جدا على المسيح ، مع أن هوشع دونها عن كل الأمة اليهودية : « فقام [يوسف] وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف إلى مصر . وكان هناك إلى وفاة هيرودس . لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى » (هو ١١ : ١ ، مت ٢ : ١٤) .

إذن ، فلنا كل الحق فى تطبيق هذه الفقرة على الرب يسوع كخادم الله المثالى . وعندئذ نجد بعض التعاليم النافعة عن شروط أسمى الخدمات التى نستطيع تقديمها لأبيه وأبينا ، إلهه وإلهنا ، اقتفاء لآثاره .

(١) مؤهلات الخادم المثالى

١- أمومة مقدسة :

« الرب جابلى من البطن » (ع ٥) . إن أعظم الأبطال وأتقى الرجال قد اعترفوا بأنهم مدينون بحياتهم لأمهاتهم . والأغلبية الساحقة منهم بلا ريب يحتفظون فى أخلاقهم ويظهرون فى حياتهم تلك الصفات التى كانت تعتز بها أمهاتهم منذ حداثتهن . ذلك لأن الرجال يستمدون نفسياتهم من أمهاتهم .

كم من امرأة مجهولة حكمت العالم عن طريق ابنها الذى تجلت فى أعماله الجليلة وأقواله الرشيدة شخصيتها النبيلة . لقد تجلت راحيل فى يوسف ، ويوكابد فى موسى ،

وحنة فى صموئيل ، وأليصابات فى يوحنا المعمدان ، ومونيكا فى أوغسطينوس . وبكل وقار وإجلال نقول إن القديسة العذراء مريم قد نالت نفوذا وسلطانا وكرامة عن طريق ابنها الذى يحكم على كل الدهور . وبكل وقار وإجلال أيضا نقول إن العذراء مريم كانت تحرص على أن تلقن ابنها فى طفولته أسفار العهد القديم التى كانت تعرفها معرفة كاملة .

وليس هذا معناه أن الرب يسوع المسيح كان فى طفولته يحتاج إلى تلقين أمه له أية دروس ، لكننا نقول إن وجود أمه الطاهرة بجواره كان بركة وشرف لها .

حينما يريد الله أن يصبغ إنسانا فى طابع معين ، فإنه يبدأ بأمه . إذن فكم هو ضرورى جدا أن يعنى كل العناية بتربية الحدثات على المبادئ السامية والأفكار الطاهرة التى سوف تعود إلى الظهور فى أقوى وأنبل الصفات . وكم هو جوهرى جدا أن تحرص الشابات كل الحرص على الاحتفاظ بطهارة قلوبهن ، فيبعدن عنها كل ما هو هزيل ورذيل ، ويتحلين « بكل ما هو حق ، كل ما هو جليل ، كل ما هو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ما هو مسر ، كل ما صيته حسن » ولايظهرن بهذا فى سيرتهن الخارجية فقط ، بل يضعنه فى قلوبهن الداخلية أيضا ، لأنها هى التى تتربى فيها المبادئ والصفات .

قليلون منا هم الذين يدركون الأهمية القصوى لتربية البنت . فالبنت التى تحمل الأطفال هى التى تكيف جيلها . والتى تهز المهد بيمينها هى التى تسود العالم بيسارها . لكى يقدم أى بلد للمسيح ، يجب أن تقدم المرأة فيه للمسيح .

إذن فكل من يستطيع التأثير على المرأة بأقواله أو كتاباته ، بالتعليم أو بالقدوة ، إنما يحدد مصير البشرية . وكل من يهزأ باجتماع فى الكنيسة لا يضم إلا الخادمات المتضعات ، فإن نظراته سطحية محدودة . إن أعظم وظيفة للمرأة هى أن تقدم للعالم أبناء صالحين ، فلتحصر كل جهودها فى هذه المهمة ، وليحصر كل تعليم وكل مجهود فى إعدادها لهذه المهمة .

٢- حديث قاطع كحد السيف :

« وجعل فمى كسيف حاد » . الكلام هو أعظم موهبة فى الإنسان تجعله شبيها بالله . والمسيح لم يتردد عن أن يدعى كلمة الله . قال كارليل : « إن لسان الإنسان عضو مقدس . والإنسان يوصف فى علم الفلسفة بأنه كلمة متجسد . لأنه بدون الكلام ، يصبح الإنسان خيالا لا إنسانا » .

عندما يتكلم الإنسان تبرز الأفكار ، ويتبدد الظلام ، ويتكشف الحق ، وتنفذ العزائم ، وتتم الرغبات . وأمام صوت الإنسان ترتعد المخلوقات الأدنى ، وبصوته يشترك فى التسبيح القائم أبدا حول العرش الأبدى .

هذه الموهبة السامية هى التى اتخذها الله لإعلان ملكوته وتأسيسه على الأرض . إنه يستخدم الصمت للإفصاح عن صبر المظلومين والمنسحقين ، ويستخدم الأعمال لتشييد منشئات عظيمة كآثار لها ، ويستخدم الكتب كمنتجات للفكر ، ولكنه بنوع خاص يستخدم الكلام . فعندما ألقى يوحنا فى السجن ، خرج يسوع كارزا . وهو فتح فاه وعلّم . وهو أمر تلاميذه أن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا بإنجيله إلى كل الخليقة . وبجهارة الكرازة يسر الله أن يخلص كل من يؤمنون . وطالما كان المنبر هو فم الروح القدس ، فلا يمكن أن يستعاض عنه بالمطبوعات كوسيلة أفضل أو أفعل .

يجب أن يسلم الفم لله لكى يضع فيه السيف الماضى ذى الحدين الخارج من فمه (رؤ ١ : ١٦) . ويجب أن نكون واثقين من أننا لا ننطق بكلماتنا ، ولا ننقل آرائنا الشخصية ، بل لنفتح أفواهنا لكى يملأها بكلمة الله الحية والفعالة والأمضى من كل سيف ذى حدين (عب ٤ : ١٢) . « جعل فمى » ، يا لها من كلمات نفيسة ، تدل أولا على حالة الخضوع التى تجعل الفم يسلم ذاته لله لينال ما يريد أن يعطيه ، ثانية على لمسة الله الحى الذى وعد بأن يكون مع الفم ويعلمنا ما ينبغى أن نقوله . من ذا الذى لا يود أن يتكلم كبطرس ، الذى حينما تكلم فى يوم الخمسين ، نخس الكثيرون فى قلوبهم ؟ أو كاستفانوس ،

الذى حينما تكلم فى السنهدريم ، أخرس مقاوميه بكلماته النفاذة ؟ نحن لا نريد أن نقدم سيفا لمجرد اللعب به لنبهج عيون السامعين ، بل لنخترق إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ لكى يقتنع غير المؤمنين وتصير خفايا قلوبهم ظاهرة (١ كو ١٤ : ٢٥) .

٣- العزلة :

« فى ظل يده خبأنى » . يجب علينا أجمعين الذهاب إلى هذه الظلال أحيانا . إن وهج نور النهار يزيد عن الحد ، فهو يؤذى عيوننا ، ولا نستطيع تمييز الألوان الدقيقة . لذلك كثيرا ما يسمح لنا الله بظل غرفة المرض ، ظل بيت الحزن ، ظل الحياة التى غاب عنها نور الشمس . ولكن لا تخف ، فإن هذا الظل هو ظل يد الله . هو الذى يقودك . هنالك بعض الدروس لا نستطيع تعلمها إلا هناك . والصورة الفوتوغرافية لوجهه المبارك لا يمكن إظهارها إلا فى الغرفة المظلمة . ولكن لا تتوهم بأنه قد نبذك ، فإنك لا تزال فى كنانته « فى كنانته أخفانى » (ع ١٢) ، وهو لم ينبذك كشىء لا قيمة له . هو إنما يحفظك حتى تأتى الساعة التى فيها يرسلك ، بنجاح أضمن ، فى مهمة يتمجد بها . إيه يا من تعيشون فى الظل وحيدين ، اذكروا كيف أن الكنانة ملتصقة بجسم الجندى ، فى متناول يده ، وفى الحفظ والصون .

٤- الخلو من الصدأ :

« سهما بريا » [أو « مصقولا » [حسب الترجمة الإنجليزية] إن أسلحة الحرب سريعة الصدأ ، لأن أقل رطوبة تؤثر فيها فتبدأ بأن تتآكل . فى رماية السهام ، لا يمكن للسهم الذى علاه الصدأ أن يخترق الهدف ، بل يرتد عنه . وفى الحرب ، لا يمكن للسيف الذى علاه الصدأ أن يخترق الخوذة أو الدرع .

والصدأ يزول باستعمال الصنفرة أو المبرد . هكذا ينبغى أن نظل نظيفين ولامعين . يجب أن لا يكون هنالك أى أثر للصدأ على قلوبنا بسبب الإهمال أو عدم التحرز من الخطية . إن قصد الله دواما هو أن يحفظنا من الصدأ ، ولأجل هذا يستخدم هموم الحياة اليومية ، احتكاك المضايقات الصغيرة ، متاعب الظروف المحيطة . إنه لا يسمح لأى أمر

فوق طاقتنا أن يسحقنا ، بل يسمح بالمضايقات الكثيرة والمتاعب المتعددة ، وهذه بمثابة السنفرة أو المبرد اللذين يستخدمهما الله بصفة مستمرة لكى يحفظنا من كل ما يلثم حد سيف خدمتنا أو يضعف من قيمتها .

(٢) الفشل الظاهرى

« أما أنا فقلت عبثا تعبت باطلا وفارغا أفنيت قدرتى » (ع ٤) . يبدو أنه لا مفر من انكسار القلب هذا لأخلص خدام الله الأمناء . يعزى بعض السبب فيه إلى نتيجة الإجهاد العصبى ، كما حصل مع إيليا عقب يوم الكرمل الرهيب ، حين ارتمى تحت الرتمة وطلب الموت لنفسه . على أن السبب الأكبر يعزى إلى طموح النفس إذ ترى كيف أن شخصا واحدا لا يستطيع أن يفعل إلا قليلا لتخفيف آلام البشرية . لقد قضينا وقتا طويلا جدا لنتعلم كيف نعمل ، فعلينا أن لا نتناسى كثيرا مما تعلمناه ، علينا أن نرجع عن الطرق التى لا تؤدى بنا إلى هدف ما . نحن الآن قبيل الغروب بدأنا بالانتفاع بالاختبارات التى حصلنا عليها ، وسلوك الطرق المستقيمة التى اكتشفناها أخيرا . وبعد أن نكد ساعة أو اثنتين فى خدمة مبهجة تبدأ قوتنا بأن تضعف ، وتقرب شمس يومنا القصير من الغروب ، وكل شىء ينتهى . لقد دنا الليل حيث لا يستطيع أحد أن يعمل . كثيرا ما خيل إلينا وقت الطفولة أن أمهاتنا قاسيات حينما كن يأمرننا بالذهاب إلى الفراش . هذا ما يشعر به أكثر خدام الله نشاطا حينما يدعوهم للارتحال إلى الوطن الأفضل ، إلا إذا كانوا قد أضناهم التعب ، وأصبحوا وحيدين ، لأن الكثير من رفقائهم قد تركوهم ، عندئذ قد يسرون إذ تأتيهم هذه الدعوة .

يتسع القلب للآمال والرغبات التى لا حد لها ، أما القوة الجسدية فإنها محدودة . والشر عسير الاستئصال ، وإذا نجحت فى استئصاله نبت ثانية . والميل إلى الشر قوى جدا ومتأصل فى كل الأجيال . والبحر المضطرب الذى يتحدث عنه النبى ، يكتسح أمامه على الدوام كل السدود والحواجز التى تعترض سبيله . ويبدو أنه مستحيل الوصول إلى أصله ، إلى النبع الخفى . ودائرة النور إنما تجعل الظلام المحيط بها أكثر حلكة . ماذا يستطيع إنسان واحد ضعيف أن يفعله أمام تيارات الشر الجارفة .

هنالك ثلاثة مصادر للتعزية :

الأول : إن الفشل لن يُخسرنا الابتسامة التى تبدو على وجه الرب إذ يرحب بنا ، ولن يُخسرنا الجعالة . إنه يقضى بعدل ، ويكافئنا لا بنسبة النتائج بل بنسبة الأمانة . « لكن حقى عند الرب وعملى عند إلهى » (ع ٤) .

الثانى : إن النفس ترتكز بكليتها على الله « وإلهى يصير قوتى » (ع ٥) .

الثالث : إننا نلجأ إلى الصلاة . كم هو جميل جدا أن يشير الله إلى هذه الناحية قائلا : « فى وقت القبول استجبتك وفى يوم الخلاص أعنتك » (ع ٨) .

هكذا يعاملنا الله أجمعين . إنه يضطر أن يأخذنا إلى البرية حيث نواجه آمالنا الخائبة . هنالك ، وهنالك فقط يعلمنا ، إذ ينتزع من قلوبنا كل اعتماد على الخليقة ، ويستأصل منها كل أثر للكبرياء . وعندئذ تنبت حياة جديدة من جذع الشجرة التى قطعت حتى نهاية ساقها . وبهذه الحياة الجديدة ، يتم الوعد الذى كان يبدو أنه لن يتحقق إلى الأبد .

(٣) النجاح النهائى

حينما رُفع المسيح فوق الصليب ، كان يبدو بأن كل أعمال حياته الماضية قد كتب لها الفشل . فلم يبق من الجماهير التى كانت تزدحم بها الطرقات حوله سوى حفنة من التلاميذ الجبناء . وحتى هؤلاء كان يبدو أنهم يميلون للعودة إلى سفنهم للصيد . الناس احتقروه ، والأمة أبغضته ، والحكام استهزأوا به . على أن هذا الصليب نفسه ، الذى ظنه الإنسان أقصى علامة للتغيير والفشل والتشهير ، كان بداءة سيادة العالم . فإسرائيل سوف يُجمع ، وكنيسة الأمم تصبح كرمل البحر .

هذا ما قد يحصل مع البعض ممن يتصفحون هذه الكلمات . إن كانوا الآن يجوزون ظروف الجدب ، والفشل ، والآلام ، فليذكروا أن « الرب أمين » (ع ٧) . وهو لا يسمح بأن تسقط أية كلمة ، أو تُفقد أية حبة من الحنطة ، أو يقل أى مجهود ، أو تخسر أى نفس . من أجل هذا يحفظهم الرب ، والأرض التى اكتشفوها وفلحوها سوف تكتظ بالبشر ، والمجهودات التى بذلوها سوف تفتح عيون العمى وتحرر المأسورين ، والأشجار التى غرسوها سوف تصير غابات ينتفع بها كل العالم . بل إن هذه أمور بسيطة بالنسبة للأمور الأعظم التى سوف تتبعها ، إذ تتسع دائرة نفوذهم فى كل المسكونة ، ويصل صدى حياتهم إلى الأجيال القادمة .

حينما يتطلع المسيح من فوق عرش مجده ويرى تعب نفسه ، فإنه يشبع يقينا . وحينما نتطلع من فوق جبال المجد ، كما تطلع موسى من فوق جبل الفسجة ، ونرى نتائج خدماتنا ، ونبصر الطريق الذى قادنا فيه الله ، وندرك كيف استجاب لصلواتنا ، وبارك مجهوداتنا الضعيفة فى خدمته ، فإننا ننسى التعب والفشل وسط المناظر البهيجة .

- ١٤ -

المحبة التى لا تتخلى عنا

إشعياء ٤٩ : ١٦ [١]

إلهى أنت كلك محبة
لا تتخلى عنا لحظة واحدة
بل تغدق علينا محبتك من العلاء
وفى هذه المحبة راحتى وطمأنينتى
(هربرت)

قُدّم هذا الأصحاح للشعب المختار قبيل عودتهم من بابل لتشديد عزائمهم ولطمأنينتهم . لقد تملك عليهم الجبن ، وتلكأوا أن يتركوا مناظر السبى التى ألفوها ، وخشوا الأخطار والمتاعب التى كان لا بد أن يكابدوها فى رحلتهم إلى بلادهم ، وتساءلوا عما إذا كانت المملكة العظيمة التى سُبوا فيها تسمح لهم بالعودة لبلادهم ، أو تسمح بنهوض مدنيتهم من أطلالها . لذلك انطلق إليهم صوت الرب ، برقة لم يعهدوا لها مثيلا ، وتحدث إليهم حديثا لا يليق إلا به . لنستمع إلى تأكيداته المتوالية بالتعزية والرحمة « لأن الرب قد عزى شعبه وعلى بائسيه يترحم » (ع ١٣) .

---

(١) « هو ذا على كفى نقشتك . أسوارك أمامى دائما » .

(١) إنه يقود شعبه كما يعنى الراعى برعيته

كانت الصفة المميزة الغالبة على العبرانيين فى أوائل أيامهم أنهم كانوا رعاة غنم « ورعى يعقوب الغنم » . وكان بطاركتهم أقدر رعاة زمانهم . لقد اختير ملكهم المثالى ونبيهم الأول من بين رعاة الغنم . لذلك كانت رعاية الغنم غالبة على حديثهم العام ، وأخصبتها بتشابيه رائعة . ولذلك أيضا كان الملك وكل قائد مخلص ، بل الله نفسه ، يدعى راعى شعبه « نحن شعب مرعاه وغنم يده » (مز ٩٥ : ٧) . هذه هى الفكرة التى تنطوى عليها هذه التأكيدات الرقيقة : « لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذى يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يُوردهم » (ع ١٠) .

إن حياة الراعى فى الشرق تختلف كل الاختلاف عما ألفناه فى هذه الأصقاع الشمالية بطقسها المتباين . فهو يتخذ وضعا مناسبا يمكنه من أن يتطلع إلى غنمه المبعثرة فى البرية ، وهو يقودها إلى الوادى حيث تجد بعض المراعى الخصبة ومياه الراحة ، أو يقودها لاجتياز الممرات المظلمة بين الجبال - حيث تكمن الوحوش البرية - وهى تلازمه ملازمة الظل للخيال ، وهو فى أشد حالات اليقظة والحذر ، بعيد النظر ، مسلحا بالعصا والعكاز ، دائم التفكير فى غنم رعايته ، غنمه التى لا حول لها ولا قوة . وإنك لتتبين روح الراعى الحقيقية فى الحجة التى قدمها يعقوب معتذرا بها عن متابعة السير بسرعة مع عيسو ورجاله « البقر والغنم التى عندى مرضعة . فإن استكدوها يوما واحدا ماتت كل الغنم . أنا أستاق على مهلى فى إثر الأملاك التى قدامى » (تك ٣٣ : ١٣ و ١٤) .

كل هذا ، وأكثر منه ، تجده متضمنا فى هذه الكلمات الرائعة الجمال « لأن الذى يرحمهم يهديهم [يقودهم] » . يا لها من تعزيات نجدها هنا . إنه يعرف جبلتنا . ويلمس ضعفنا . لا يقودنا بأكثر من سرعتنا ، إنه يتقدمنا ويقودنا ، ولكنه يجعل خطواته تتناسب مع خطواتنا . وأطول مسافة نقطعها يجعلها متناسبة مع قدرتنا . وأشق مجهود لا يمكن أن يفت من عضدنا . ومهما كان الطريق وعرا ، فاذكر على الدوام أن الذى يقودك هو الذى يرحمك ويشفق عليك . والذين يلبثون فى شركته ورعايته « لا يجوعون ولا يعطشون » إطلاقا . هل تحس بأنك مُحاط بالظلال ؟ ذلك إنما لكى لا يضربك الحر أو الشمس . . هل تشعر بأن الطريق شديد الانحدار وخطر ؟ ذلك إنما لكى يأتى بك إلى ينابيع مياه حية (رؤ ٧ : ١٧) .

لا تتذمر أيها الأخ العزيز ، بل ردد على الدوام - كأغنية شجية عذبة - هذه الكلمات : لأن الذى يرحمنى هو الذى يهدينى ، وإلى ينابيع المياه يوردنى . « ترنمى أيتها السموات وابتهجى أيتها الأرض . لتشدُ الجبال بالترنم » (ع ١٠ - ١٣) .

(٢) ويجعل الصعوبات تتمم مقاصده

« وأجعل كل جبالى طريقا » (ع ١١) . الجبال وعرة المسالك . ومن يدرس جغرافية فلسطين ، لا يمكن أن ينسى سلسلة الجبال التى حصن بها الرب أرض الموعد من الجنوب . قال أحدهم فى وصف تلك البلاد : « جنوب بئر سبع ، وقبل أن تصل إلى السهل المنبسط الموصل بين بلاد العرب ومصر وفلسطين ؛ تجد سلسلة جبال تمتد نحو ستين ميلا ، شديدة الانحدار شرقا وغربا . ويندر أن تجد فيها مزروعات حتى بعد هطول الأمطار . أما فى الصيف ، فإنها تنعدم كلية . لا يوجد ، ولم يوجد طريق عام يجتاز هذه المنطقة ، ومن المستحيل الوصول إلى قمة أحد تلك الجبال » .

هكذا أيضا نجد أن جبال سويسرا ضمان لحريتها ، وجبال أفغانستان تجعل الإغارة عليها مستحيلة . كانت الجبال الشاهقة تعترض إسرائيل لدى عودتهم إلى بلادهم . لكن الله لا يعد بإزالتها ، بل يجعلها طريقا ليكون الرجوع ميسورا وسريعا « وأجعل كل جبالى طريقا » .

كلنا لنا جبال فى حياتنا . هنالك أشخاص كثيرون وأمور كثيرة تهددنا بتعطيل تقدمنا فى الحياة الروحية . هنالك ذات الطبع الحاد ، تلك الأسرة الكبيرة العدد ، تلك المطالب الثقيلة ، تلك الوظيفة الشائكة ، تلك الشوكة فى الجسد ، ذلك الصليب اليومى . قد نتوهم بأنه لو أمكن إزالة هذه من الطريق لصارت حياتنا أطهر وأرق وأقدس ، ولذلك نصلى كثيرا لإزالتها . أيها الأغبياء والبطيئى القلوب ، هذه هى نفس الشروط للتقدم فى الحياة الروحية ، وهى إنما قد وضعت فى حياتنا كوسائط للحصول على نفس النعم والبركات التى نصلى من أجلها منذ وقت طويل .

لقد كنت تصلى من أجل الصبر منذ سنوات طويلة ، ولكن هنالك تجربة حلّت بك وتظن أنها فوق طاقة احتمالك ، ولذلك هربت منها ، تجنبتها ، وحسبت أنها تقف عثرة فى سبيل أمانيك المشتهاة لا يمكن التغلب عليها ، وتوهمت أن إزالتها من الطريق يمنحك الخلاص السريع والنصر الأكيد . ولكن هذا خطأ . فإنك إنما تفاديت تجربة الجزع والفزع وعدم الصبر . لكن هذا لا يعنى أنك حصلت على الصبر . فالصبر لا يُنال إلى عن طريق التجارب التى يُظن الآن بأنها لا تُحتمل ، فارجع ، ثم اخضع ، واطلب أن تكون شريكا فى صبر يسوع (رؤ ١ : ٩) ، واجه تجاربك فى شخصه . وبذلك تصبح الجبال التى تتوسط بينك وبين أرض الموعد هى الطريق إليها .

لاحظ اتساع مدى هذا الموعد : « أجعل كل جبالى طريقا » . لن يوجد شىء من المعطلات أو المتاعب فى الحياة دون أن يُستخدم لإتمام أسمى المقاصد . لن يوجد أى استثناء لهذه الكلمة « كل » الكبيرة فى معناها ، الصغيرة فى مبناها . لاحظ أيضا كيف ينسب الجبال لنفسه ، فيقول « جبالى » ، لأنه هو الذى وضعها هناك .

ولكن لا تنسى أن الوعد فى صيغة المستقبل . أجعل [أو سأجعل] . نحن لا نرى الطريق من بعيد ، ولكن حين نتطلع إلى الجبال من بعيد ، نراها مجموعة من الصخور تعترض السبيل . ومهما كان البصر حادا ، فإنه لن يرى الطريق الذى يمكن أن يشقه السائر وسطها يسير فيه بقدمه . ولكن ، لماذا نريد أن نراه مقدما ؟ نحن نعلم أن الله لن ينقض وعده . « الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها . لأنه هو ينظر إلى أقاصى الأرض . تحت كل السموات يرى » (أيوب ٢٨ : ٢٣ و ٢٤) . شكرا لله ، فإننا حينما نأتى إلى سفح الجبل ، نجد الطريق .

(٣) ومحبة الله أقوى من محبة الأم

حينما أراد داود وصف المثل الأعلى للمحبة قال إنه « محبة النساء » . وفى محبة المرأة لا توجد محبة أظهر ، وأكثر إنكارا للذات وصبرا ورفقا ، من محبة الأم . إيه يا قلب

المرأة ، إن الأمومة هى التى تظهرك فى أبهج مظاهرها . تأمل إلى الأم وهى تنحنى فوق الطفل إذ يضحك ، فيرقص قلبها طربا ، تلاطف طفلها المتألم بقصصها الطريفة وبكل ما فى قدرتها من أنواع الملاطفة ، تنتظر بجوار الموقد حتى تنطفىء آخر جذوة فيه ، فتشعر بقشعريرة البرد القارس ، تسهر الليالى وتقضى الأيام دون أن تبدى أقل تذمر أو ندم ، يهون عليها أن تضحى بالنوم والطعام ، بل بالحياة نفسها من أجل طفلها . هذه هى الأمومة . وهذه المحبة لا تقتصر عند حد الطفولة ، بل تتابع الأبناء فى كل مراحل حياتهم . ومهما مرروا حياتها أو جحدوا محبتها ، فإنها تلازمهم بصلواتها ودموعها وأطيب آمالها .

وحينما تبدأ أولى علامات المرض أو دواعى الحزن ، تسرع لمرافقتهم . إنها تدبر الخطط وتعد العدة . إنها تقف بجوار ابنها ولوكان مجرما فى قفص الاتهام ، وتتعقب آثار ابنتها فى بيوت الشر والفساد . إذا مات ابنها سكبت الدموع غزيرة كما يبكى الزوج زوجته أو الزوجة زوجها .

هذه المحبة محبة إلهية . يقينا إنها شعاعة من قلب الله . وإن كانت محبة الأم مجرد شعاعة ، فكم يكون قلب الله نفسه . على أن الأمومة قد تمر عليها أحيانا فترات ضعف . قد تنسى الأم رضيعها فى حالة الجنون ، أو السكر أو الهيام بالشهوات الدنسة ، أو نشوة الطرب . وكما حصل عند حصار السامرة . قد تأتى أوقات تسكن فيها الأمهات آلام الجوع بأكل لحم أطفالهن . أما الله فلن ينسى « هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك » (ع ١٥) .

قد نتعثر ونسقط فى الحمأة فيتباعد عنا أعز الناس لدينا ، أما الله فلن ينسى . قد تُلوث حياتنا بالخطية وتتشوه تشوها مزريا ، فنصير فى حالة مزدرى بها من الجميع ، أما هو فلن ينسى . قد نطوّح بأنفسنا فى كورة بعيدة ونظل فيها طويلا ، فلا نرى أقل عطف من أصدق الأصدقاء ، أما هو فلن ينسى . قد تنطفىء جذور نار كل المحبين ، أما محبته ، فإنها تظل ، كما عرفناه فى بادئ الأمر .

(٤) والله يحفظ فى ذاكرته خاصته دواما

من عادة بعض الشرقيين أن ينقشوا أسماء المحبين على أذرعتهم . هذه هى الإشارة هنا . ولكن لاحظ قوتها . « على كفىَّ نقشتك . أسوارك أمامى دائما » (ع ١٦) . هو لم ينقش مجرد اسم صهيون ، بل صهيون نفسها . المدينة التى سكن فيها داود ، وبنى سليمان فيها هيكله . هذه نقشت على الكف الإلهى . نعم يا أولاد الله ، لقد نقشت صورتكم الفوتوغرافية حيث يراكم الله دواما ، على كفيه ، وعلى قلبه . لن تبرحوا من ذاكرته لحظة واحدة ، أو تتواروا عن عينيه .

لا على كف واحد فقط ، بل على الكفين . « على كفىَّ » . لم ترسم أو تصور فيُزال الرسم أو تُمحى الصورة ، بل نقشت [حفرت] . وكانت أدوات النقش : الحربة ، والمسامير والصليب . قال صبى صغير لأحد الشبان المفتونين ، إذ كان يخدش بقطعة من ماس على زجاج شباك غرفة الانتظار : « لا تكتب هناك . » فأجابه منذهلا : لماذا ؟ » فكانت الإجابة على الفور : لأنك لا يمكنك محوها . » إن الكتابة على الزجاج لا يمكن محوها ، ولا النقش على العقيق ، ولا الحفر على الأحجار الكريمة ، على أن إزالتها أيسر من إزالة النقش على كفىَّ المسيح . « وفى وسط العرش خروف كأنه مذبوح » . « أراهم يديه وجنبه » .

وليست أطلال صهيون ، بل أسوارها ، كانت قبل أن يهدمها نبوخذنَصَّر ، وكما قصدت أن تكون . ظلت هذه الأسوار متهدمة نحو خمسين أو ستين عاما . يخبرنا نحميا أن الأطلال لم تمكن البهيمة التى كان راكبها من الدخول عندما قام برحلته التفتيشية الأولى ليلا فى ضوء القمر (نح ٢ : ١٤) . وسنبلط « هزأ باليهود » بسبب كثرة « كوم التراب » (نح ٤ : ١ و ٢) . لكن الله لم يضع فى ذاكرته هذه الأطلال بما كان يقترن بها من جهالات إسرائيل وخطاياه ، بل كانت « أسوار » صهيون أمامه دائما . إن الصورة المرتسمة أمامه على الدوام والتى لن تمحى قط ، هى المثل الأعلى الذى ينبغى أن نكون عليه ، والمثل الأعلى لحياتنا . وفى استحقاقات المسيح ، أسمى ما نتوق إليه ، وما ستؤول إليه حياتنا ، عندما تتم النعمة عملها ونتجمل بالجمال الذى يلبسنا إياه .

يا للفارق العظيم بين بكاء صهيون وعويلها بسبب هجرها ونسيانها ، وبين رعاية الله الرحيمة لها . هكذا قد يميل المؤمن إلى الاعتقاد بأنه أصبح منبوذا حين يرى ضعفات نفسه ، ويشهد أطلال بهجة نفسه الغابرة . ولكن هذه الأوهام لا أثر لها . فإنه فى ساعة يأسه القاتل ، يكون فى ذاكرة الله ، كما يكون الطفل فى ذاكرة أمه ، وكل حاجياته تكون أمامه على الدوام .

(٥) ومحبة الله قوية جدا بدرجة تكفى لإتمام مقاصده

« هل تسلب من الجبار غنيمة وهل يفلت سبى المنصور » (ع ٢٤) . هذا سؤال القنوط واليأس ، انبعث من قلوب إسرائيل وهم يرسفون فى أغلال العبودية ، ويرزحون تحت مرارة السبى لا أمل لهم فى الخلاص من براثن تلك الامبراطورية القوية .

ولكن الرب حزم أمره وأحصى ينابيع المعونة التى لا تنضب ليرفع يده فقط ، وعندئذ يفلت شعبه من الأسر ، ويعودون إلى أرضهم بمساعدة الملوك والملكات . لا تظل التفكير فى صعوبات نجاتك ، ولا يبئسك فشل الماضى أو قوة الأعداء ، بل حوّل نظرك عن كل هذه الاعتبارات وتطلع إلى الله . وعندئذ يصير لك قائدا مغوارا ، ويدافع عن قضيتك ويتممها ، وتجده حصنا منيعا . « هكذا قال الرب حتى سبى الجبار يسلى وغنيمة العاتى تفلت وأنا أخاصم مخاصمك وأخلص أولادك » (ع ٢٥) .

(٦) ومحبة الله لن تنبذ أى واحد

حينما كان اليهودى يطلق امرأته ، كان يعطيها كتاب طلاق (مر ١٠ : ٤) . وبدون هذه الوثيقة المكتوبة لا يكمل الطلاق ، ويستطيع الزوج أن يسترد زوجته دون أى لوم . كان إسرائيل ، وقد أبعدوا فى أرض السبى ، يظنون أنفسهم أنهم بمثابة زوجة مطلقة . لم يقولوا هذا صراحة ، لكنهم كانوا يخشون أن تكون هذه هى حالتهم .

أما الرب فإنه يجيب عن هذه الأفكار التى كانت تجول بخواطرهم دون أن تجرى على

ألسنتهم ، وذلك بأن ذكرهم إنهم لا يستطيعون أن يقدموا كتاب طلاق « هكذا قال الرب أين كتاب طلاق أمكم التى طلقتها » (ص . ٥ : ١) . إنه يحق له أن يتساءل عنه ، وهو واثق من عدم وجوده ، لأنه لم يعط كتابا كهذا .

الله لا يمكن أن يطلق الذين أدخلهم فى العهد مع نفسه . قد يتمردون ويرتدون ، ويجحدون ، ولكنهم لا يزالون له . ولو فُتشت كل المسكونة ، فلن يُعثر على كتاب الطلاق . والشيطان نفسه لن يستطيع أن يقدمه إلينا . ومحبة الله سوف تربح ثانية من رمقتهم بعنايتها . بفيضان الغضب قد يحجب وجهه لحيظة ، ولكنه بمراحم عظيمة وإحسان أبدى يجمع ويرحم (أش ٥٤ : ٧ و ٨) .

- ١٥ -

كلمات فى وقتها للتعابى

إشعياء . ٥ : ٤ [١]

أنت تعرف ، لا كإله عليم بكل الأشياء فحسب ،
بل كابن الإنسان اختبرت ضعفنا البشرى
على الأرض
إذ كنت تفيض عطفا وشفقة على البشرية
أيها المخلص ، لقد بكيت ، ولقد أحببت ،
ولا زالت المحبة والآلام
تجد منك عطفا وشفقة

(هـ. ل. ل.)

لقد بدأ التعب منذ بدأ العالم . والتعب يبسط يديه على جماهير لا يستطيع أى إنسان أن يحصيها من كل أمة وجنس وقبيلة وشعب .

فتعب الجسم يرزح تحت عبئه العبد فى عبوديته ، والعامل فى جهده المضنى فى صناعته ، والعاملة إذ تعمل إلى وقت متأخر من الليل ، والأم فى تمريض ابنها العليل .

---

(١) « أعطانى السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيى بكلمة [أو « بكلمة فى وقتها المناسب » حسب الترجمة الإنجليزية] . يوقظ كل صباح . يوقظ لى أذنا لأسمع كالمتعلمين » .

وتعب العقل حين لا يستطيع الخيال أن يتابع مناظر الجمال ، حين لا يستطيع الذهن أن يجد برهانا جديدا ، أو حجة أخرى . أو يحصر التفكير فى صفحة جديدة من الكتاب ، أو يمعن النظر فى عمود آخر من الصحيفة اليومية .

وتعب القلب حين يطول الانتظار عبثا لكلمة لا تقال ؛ أو يطول ترقب عودة الابن الضال ، أو يطول انتظار خطاب .

وتعب الصراع الداخلى فى الجهاد يوميا ضد محبة الذات ، وضد تمرد النفس التى لا يؤثر فيها الجهاد الطويل إلا تأثيرا ضئيلا .

وتعب الخادم المسيحى بسبب الاتصال الدائم بآلام البشر وخطاياهم وعوزهم .

لو أتيح لنا أن نسدد ضربة قاضية لقوات الشر التى يجب أن يُقضَى عليها إلى الأبد ، وبذلك تنسحب تاركة لنا الميدان ، فمن ذا الذى لا يقبل هذا كأعظم نعمة من الله ؟ ولكننا عوضا عن هذا منشغلون فى جهاد متعب ، ومستمر ، ومضن . فإذا انتصرنا على عدونا اليوم ، استعد لملاقاتنا غدا بنفس القوة . وإذا هزمناه فى ناحية ، توارى فى الحال وراء غيرها . وهكذا يتعب القلب والجسم بسبب الجهاد الطويل . ونتوق إلى المكان الذى كتب المسيح فوق قائمة بابه « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم » .

بهذه الطريقة أو تلك تجد كل النفوس التعب فى بعض نواحى الحياة . لا شىء جديد فى هذا . ولكن الجديد ، بل العجب كل العجب ، هو رعاية الله للتعابى التى لا حد لها .

إنك لن تعثر على مثل هذه العناية خارج الكتاب المقدس ، أو خارج المؤلفات التى استمدت مادتها وحيويتها منه . يسمع الإنسان بكل برود عن العشرات من التعابى الذين تعثروا فى ميدان الحياة البشرية ، وانطرحوا على الرمال المحرقة ، وقضى عليهم أن يموتوا من شدة التعب والعطش . أما الله العلى القدوس الأزلى الأبدى ، فإنه يتنازل ليسد حاجة

الضعيف . يحصر عنايته فى الجُدع والعُرج والعُمى . يقبل فى عشرته أولئك الذين نبذهم البشر بسبب نقائصهم وقبحهم . يجمع الفضلات المتناثرة المبعثرة التى سبق أن تحطمت . يفلح الأرض من الجدباء ، يمهد الطرق الرئيسية والدروب للضالين وأبناء المستقبل المنبوذين من الجميع . يتدفق عطفه دواما على كل المتعبين الرازحين تحت أثقالهم ودموعهم وبأسهم . هذا هو إلهنا إلى الأبد . ليس له مثيل فى عطفه ورقته . إله اليتامى والأرامل .

على أن هذه العناية الرحيمة الفائقة الحد بكل نوع من متاعب الحياة البشرية ، لم تكن لتظهر أمام أعيننا لو لم يكن ابن الله الذى يحدثنا بهذه الكلمات ، والذى يوفق فى شخصه بين صورة العبد وبين المساوى للآب . لم يتقدم أى شخص قط بتعزية للمتعبين كتعزيته هو . لم يكن ممكنا له أن يرى الجماهير الكثيرة متألمة ومشتتة كغنم لا راعى لها دون أن يتحنن عليها ، ويبدأ بأن يتكلم كما يليق به . ما أكثر النفوس المتعبة التى أغاثها بكلماته ، وما أكثر الذين تحدث إليهم بكلمة فى وقتها . سَلْه - إن جاز لنا الحديث بهذه اللهجة - من أين استمد هذه القوة المنقطعة النظير ، يجيبك على الفور : « أعطانى السيد لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيى بكلمة » ، من محبته العظمى للنفوس المتعبة فى كل مكان ، أقامنى لها راعيا .

والأن ، لنتأمل فى :

(١) عزم المسيح كعبد الرب الأمين الذى هو الله نفسه .

(٢) تبريره .

(٣) توسله .

(١) عـــزمه

لقد عرف يسوع من البدء أنه لا بد أن يموت . الموت هو نهاية الحياة لكل البشر ، أما المسيح فقد كان الموت غايته . نحن نموت لأننا ولدنا ، أما المسيح فقد ولد لكى يموت . لقد كان ظل الصليب يظلل نفسه منذ الولادة ، منذ أن سفكت دماء فرخى الحمام من أجله

فى الهيكل . فى حديثه مع نيقوديموس ، قال له : « ينبغى أن يُرفع ابن الإنسان » . كانت مناظر غرفة المحاكمة فى بيت قيافا وبيت بيلاطس البنطى ماثلة أمامه مقدما على الدوام كما تكون مناظر الماضى ماثلة أمام ذاكرتنا . لقد طالما اعتزل بتلاميذه وأخبرهم أن ابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه (مر ١٠ : ٣٣ و ٣٤) . ورغم أنه رأى كل هذا من قبل فإنه لم يعاند ، وإلى الوراء لم يرتد (ع ٥) .

فى إحدى المناسبات ، قبيل انتهاء حياته على الأرض ، وإذ قرب أن يكمل ، يخبرنا الكتاب أنه ثبت وجهه للذهاب إلى أورشليم . يا لها من بطولة منقطعة النظير . يصور بعضهم المسيح كأنه ضعيف ، تنقصه الشجاعة ، لا تتوفر فيه سوى الفضائل السلبية . ولكن هذه الترهات ينقصها العزم الذى لم يتزحزح الذى تبين من هذه الكلمات : « جعلت وجهى كالصوان وعرفت أنى لا أخزى » (ع ٧) .

لاحظ كيف كان موت المسيح اختياريا . فالشهيد يموت لأنه لا يستطيع أن يفلت من الموت ، أما المسيح فقد مات لأنه اختار الموت . إنه وضع حياته بمحض اختياره ، ولم يأخذها منه أحد . كان ممكنا أن يعاند ، أو يرتد إلى الوراء ، أو يطلب اثنى عشر جيشا من الملائكة ، أو يصرع معذبيه فى لحظة بمجرد نظرة واحدة ، ولكنه رفض أن يلجأ إلى أية وسيلة من هذه . استمع إلى كلماته إذ كان يدوس المعصرة وحده : « ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت » . هنا تبين قوة العزيمة بأجلى وضوح . هنا تمتلئ قلوبنا دهشة وعجبا وروعة إذا نراه يبذل ظهره للضاربين برضاه التام ، وخديه للناتفين ، ولا يستر عن العار والبصق وجهه الذى تنظر إليه الملائكة بكل هيبة وخشوع وبلا انقطاع ، والذى سوف تهرب منه السماء والأرض يوما ما (ع ٦) .

« السيد الرب فتح لى أذنا » (ع ٥) . يظن البعض أن هذه تشير إلى عادة اليهود القديمة نحو ثقب أذن العبد لخدمة سيده إلى الأبد (خر ٢١ : ٦) ، وأن الرب على هذا المثال اختار خدمة الآب بكل ما تستلزمه من تضحيات لأنه أحبه . لقد اجتمعت

فيه صورة الابن وصورة العبد فى وقت واحد . لكن ، لنذكر فقط أنه عـرف ، بل اختار كل ما كان سيكابده ، وأن الوُثُق التى ربطته بالصليب كانت هى رُبط المحبة القوية التى أحبنا بها ، ورُبط الرغبة الملتهبة لمجد الآب .

(٢) تبريره

« قريب هو الذى يبررنى » (ع ٨) . لعل هذه الكلمات كانت تجول فى خاطر المسيح وقت أن علق على الصليب ، لأن الآب الذى أرسله كان معه ؛ ولم يتركه وحده لحظة واحدة ، بل كان قريبا . يا له من فارق عظيم بين الباعث الذى دفع المسيح للنطق بهذه الكلمات إذ رأى الآب يبرره أمام كل العوالم ، وبين الباعث الذى دفع بولس إذ نطق بنفس هذه الكلمات . استمع إليه إذ يتساءل : من سيشتكى علىّ ؟ « الله هو الذى يبرر » (رو ٨ : ٣٣) .

فالتبرير هنا [الذى ينسب للمسيح] معناه التبرئة وإظهار الحق ، أما إذا نسب للبشر ، كان معناه العفو عنا وإلباسنا ثوب بر المسيح .

لقد قالوا عنه إنه محب للعشارين والخطاة ، أما الله فقد برره إذ بيّن أنه إذ اختلط بأمثال هؤلاء فإنما لكى يجعلهم شهداء وقديسين .

لقد قالوا عنه إنه مختل العقل . أما الله فقد برره إذ جعل تعاليمه تنير الحياة وتسمو بها إلى أسمى درجات النبل والحكمة .

لقد قالوا عنه إن به شيطانا . أما الله فقد برره إذ أعلن قوته لإخراج الشيطان وربطه بسلاسل قوية .

وقالوا إنه جدف حين قال عن نفسه بأنه هو ابن الله . أما الله فقد برره إذ رفعه إلى يمين العظمة لكى يأتى على سحاب السماء بقوة ومجد عظيم .

وقالوا بأنه ينقض الهيكل ورعوية إسرائيل . أما الله فقد برره بأن شتت شعب اليهود فى كل أقطار الأرض ، جاعلا أدبياتهم وتاريخهم ونظرياتهم مجرد آثار عفا عليها الزمن . أين أولئك الذين حكموا على الرب يسوع المسيح ؟ لقد تلفت كتبهم بسبب ما تراكم عليها من غبار الإهمال . وأسماؤهم لا تذكر إلا حين تردد فى حجج المدافعين عن المسيحية . وذكرهم سرعان ما تبدد وتلاشى . تأمل إليهم وقد عَتِقوا وشاخوا كثوب بال . لقد أكلهم العث (ع ٩) . لقد عبروا كلهم . أما المخلص العلى فإنه يملك كل يوم على قلوب جديدة تمتلىء غيرة جديدة وتقديرا جديدا ، وعرشه موطد إلى جيل الأجيال .

فلا تخف من غضب الإنسان يا ابن الملك ، لأنه « هو ذا كلهم كالثوب يبلون يأكلهم العث ، وكالصوف يأكلهم السوس » (ص ٥٠ : ٩ ، ٥١ : ٨) . وما حل بأعداء ملكك سوف يحل بأعدائك أنت أيضا . إنما اصبر وانتظر كما فعل هو ، أجعل وجهك كالصوان ، سلم لله أمرك ، لا تتكل على حججك بل على تبرير الله لك ، فيخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة . لا تخف فإنه يعينك ؛ لذلك لا تخزى .

(٣) توســله

إن إطاعة عبد الرب معناها خوف الرب « من منكم خائف الرب سامع لصوت عبده » (ع ١٠) . فمن يطيع الرب يخافه . وليس هذا إلا إذاعة لاهوته . والذين يتجهون هذا الاتجاه ، الذين لا يبالون بغضب الإنسان لأنهم يخافون الرب ، الذين يسمعون لصوت عبد الرب كصوت أبيه ، طالما دعوا للسلوك فى الظلمات حيث لا نور . قد يدعون إلى وادى ظل الموت ، أو بستان چثسيمانى ، أو ظلمة الصليب . ولكن عبد الرب يتقدم إليهم بالنصيحة من عمق اختباراته قائلا : « من ذا الذى يسلك فى الظلمات ولا نور له ، فليتكل على اسم الرب ويستند إلى إلهه » (ع (١٠) .

لا تقف صامتا ، أو تتراجع إلى الوراء يائسا ، بل تقدم إلى الأمام مثابرا ، واثقا بأن النور الذى على حافة الظلام يعلن قرب حلول الصباح . سوف يعينك الله ، لذلك لا تخجل . اجعل وجهك كالصوان . وثبت قدميك فى الطريق الذى رسمه لك .

إن التجربة فى ساعة كهذه هى أن يقدح المرء نارا ويتنطق بشرار (ع ١١) . ولكن هذه النيران تنطفىء بعد ظهور الشرارة قصيرة الأمد فيصير الظلام من بعدها أشد ، وإذ تبهر عين الشخص البعيد عن الله ، فإنه يتعثر فى الغابة ويسقط على الفور فى هاوية الخراب . « من يدى صار لكم هذا . فى الوجع يضطجعون » . يا له من نصيب مرعب محزن أن يضطجع المرء فى ساعة الموت تاركا وراءه حياة مقفرة ، ومنتظرا أمامه أبدية مظلمة .

أناشدك أيها القارئ أن تترك نارك بشرارها ، وأن تستضىء بنور كلمة الله كسراج لرجليك ونور لسبيلك ، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح فى قلبك (٢ بط ١ : ١٩) .

- ١٦ -

« اسمعوا » ثلاث مرات

إشعياء ٥١ : ١ - ٨

اهدأى أيتها النفس الحزينة ولا تولولى
بل اكشفى قلبك لله ذى العين الفاحصة
انتظرى . ففى ساعات الشك المظلمة
وأوقات اليأس القاتلة
ينزل إليك الله برأفته
ويملأ الجو القاتم نورا وحياة وحبورا
(شيرب)

يمثل لنا هذا الأصحاح بعض الحقائق الجوهرية . ونحن إذ نتصفحه ، يبدو إلينا بأننا نقرأ رؤيا غاية فى السمو ، وأن هذه الرؤيا هى لب الكتاب المقدس . ولكل حقيقة من هذه الحقائق الجوهرية حصن يحيط بها ، الأمر الذى يقنع أبسط العقول بعظم أهميتها . ونحن إذن نتأمل فى الكلمة « اسمعوا » [ومرادفتها « أنصتوا »] التى تكررت فى الثمان آيات الأولى من الأصحاح ، وفى الكلمة « استيقظى » [ومرادفتها « انهضى »] التى تكررت فى الآيات التالية ثلاث مرات ، ندرك أننا داخلون قدس الأقداس الذى نجد فيه أعمق أسرار المحبة والفداء .

كل من زار آثار هياكل مصر يدرك عظمة مداخلها ، إذ يشهد طرقات طويلة صفت على جانبيها تماثيل فخمة لبعض الآلهة ، وممرات تَحفّ بها الأعمدة على جانبيها . وهكذا نرى أن كل ما يمكن أن يخرجه الفن يهيىء العقل إلى عظمة الهيكل الداخلى . هكذا نحن أيضا إذ نقرأ هذه الأصحاحات ، يتهيأ العقل ويثبت النظر وتتركز العواطف فى هذا الأمر الواحد ؛ أننا سوف نتقدم بكل رهبة وخشوع لنجثو أمام المصلوب فوق الجلجثة .

رغم المواعيد الكثيرة التى أعطيت للشعب بالخلاص من السبى ، والدعوة للرحيل ، فيبدو أنه كان عسيرا عليهم أن يصدقوا بأنهم يمكن أن يعودوا شعبا عظيما مرة أخرى ، أو أن خرب صهيون يمكن أن تجدد . سبق أن رأينا « عبد الرب » يجيبهم على أسئلتهم المليئة بالحيرة والارتباك ، ويؤكد لهم مرة أخرى تلك المواعيد بأن أعلن لهم تلك المحبة التى لن تتخلى عنهم .

وفى هذه الكلمات ، نراه يكرر الكلام لهم بنفس اللهجة . فإنه يبدأ الكلام بتوجيه كلمة « اسمعوا » ثلاث مرات « للتابعين البر » فى العدد الأول و « عارفى البر » فى العدد السابع .

وهذه دواما هى خطوات النمو فى الأخلاق ، فإن « التابعين » يصيرون فى الحال « مالكين » .

(١) الدروس التى نتعلمها من التأمل فى الماضى

يحسن جدا بالعمود الذى يتيه عجبا بجماله وفخامته أن يتأمل فى الصخر الذى قُطع منه . وجدير بنا أجمعين أن نرجع بذاكرتنا إلى وضاعة أصلنا وحقارتنا - فإن مثل هذه التأملات تزيدنا تواضعا ، كما تزيدنا شكرا لنعمة الله التى جعلتنا كما نحن « انظروا إلى الصخر الذى منه قُطعتم وإلى نقرة الجب التى منها حُفرتم » (ع ١) .

اذكر أيها الإنسان صخرة آدم الأول ، ونقرة محبة الذات والغضب والقتل التى منها حُفرت . فتلك التى قُطعت من شجرة التجربة وعصت أمر بارئها هى أمك ، وذاك الذى طرح عليها مسئولية سقوطه ، وفضّل الانغماس فى شهوة الجسد عن السمو بالروح هو أبوك . وأخوك هو قايين ، وأختك هى راحاب . أنت تعرف الرباطات القوية التى تربطك بكل من هؤلاء . وأنك لا تستطيع أن تتبرأ من مميزات الصفات العائلية الموروثة ، أو لهجة الحديث التى تتسم بها عائلتك . ما الذى أتى بك من أصل كهذا وجعلك عمودا فى هيكل الله سوى النعمة التى لم تجد مبررا ولا مقياسا سوى اللانهائية . إذن فلا تفتخر ، لأنه لا يوجد فيك أى مبرر لهذا التغيير .

ليكن ولاؤك لمن يجب له الولاء . واذكر بأنه إن كان الله قد فعل كل هذا ، فإنه يستطيع أن يكمله بسهولة . وإن كنت قد قُطعت من الصخر ، فيقينا أنك يمكن أن تُصوّر . وإن كنت قد حُفرت ، فيقينا أنك يمكن أن تُصقل . إن كنت قد تبررت ، فيقينا أنك يمكن أن تُقدس « إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه ، فبالأولى كثيرا ونحن مصالَحون نخلص بحياته » (رو ٥ : ١٠) .

لقد لفت الله نظر إسرائيل إلى هذه الذكريات الأولى لكى يبعث الأمل فى نفوسهم . فالشعب قد تناقص عدده جدا ، والأتقياء كانوا أقلية ضئيلة .

وكان يبدو من المستحيل أن يعتقدوا بأنه من الميسور أن يتزايد عددهم حتى يصيروا كالرمل الذى على شاطئ البحر أو كنجوم السماء . فالشجرة قد قُطعت بلا رحمة حتى أنهم أصبحوا يائسين من أن يروا فروعها تمتد مرة أخرى محملة بالثمار .

وردا على هذه الأوهام المليئة بالتشاؤم ، يصرخ صوت الوحى قائلا : ارجعوا بذاكرتكم . اذكروا إبراهيم وسارة . لقد جاء الوقت الذى كانا فيه بمفردهما يمثلان جنس اليهود . ومع ذلك فقد تفرع منهما ، من ابنهما الوحيد ، ابن شيخوختهما ، ربوات لا تحصى ولا تعد . إذن فلا يوجد هنالك أقل مبرر للخوف . فإنكم ولونقص عددكم إلى شيخين اثنين فقط ، متهدمين ، فهذا كاف ليكون أصلا لأمة عظيمة . فكم يكون الرجاء أعظم إن كنتم الآن تعدون بالآلاف ؟ « انظروا إبراهيم أبيكم وإلى سارة التى ولدتكم . لأنى دعوته وهو واحد . وباركته وأكثرته » (ع ٢) .

لنتأمل فى الخطوات التى جازها إبراهيم لتهذيبه والتى يضعها الرب نصب عينيه ، إذ يقول : « لأنى دعوته وهو واحد » .

١- **أنه وقف وحيدا** . فأول كل شىء مات تارح بعد أن ارتحل معه إلى أرض الموعد . الأمر الذى يرمز إلى من يبدأون فى سن الشيخوخة رحلة الإيمان والرجاء دون أن يكونوا مرتبطين ارتباطات قوية بطيب عنصرهم أو بتقاليد الماضى . بعد ذلك تركه لوط ذاهبا إلى سدوم . ولا بد أن يكون ذلك الشيخ المهدم قد وجد أنه ليس هينا على نفسه أن

يبقى ثابتا بعد أن تركه رفقاؤه فى الرحلة ولم يتابعوا معه المسير . بعد ذلك فشلت خطة سارة ، وطُردت هاجر من محلتها هى وابنها ، وأخيرا أوثق اسحق ابنه ، وحيده ، ووضع على المذبح . بعد ضربات متواليات ، اشتد الظلام الذى جازت فيه نفسه ، ووقف وحيدا « وهو واحد » ، وجها لوجه أمام الله وأمام مقاصده . على أن النيران التى اضطرمت فى قلبه ازدادت اشتعالا ، وازدادت ضياء ، وأضاءت حياة ربوات البشر بنورها الوهاج . إن إشعال النيران المتأججة لا يحتاج إلا لشرارة بسيطة . لقد احترقت مدينة شيكاغو العظيمة بسبب انقلاب لمبة صغيرة . فإن امتلأ قلب واحد بالإيمان القوى انتقل منه إلى قلوب ملايين لا حصر لها .

٢- **وامتحن إيمانه امتحانا شديدا** ، أولا بالإبطاء الطويل فى تحقيق الوعد الذى أعطى له ، ثم بازدياد الصعوبات التى كانت تحول دون ولادة الابن الموعود بسبب فناء قوته الطبيعية . ثم بالدعوة التى وجهت إليه لتقديم اسحق على جبل المريّا . وكل من هذه التجارب كانت توجه نحو قوة احتماله .

لقد ظل إلى نهاية حياته غريبا ونزيلا ، ينظر المواعيد من بعيد فقط ، ومات دون تحقيق الرجاء . ولم يتأكد تماما بأن صبره كان له عمله التام . ولعله لم يدرك تماما كيف أن الله يجب أن يجرح ويسحق إلى التمام قبل أن يجعلنا نثمر أشهى الثمار . ولم ير أن جسدنا المتعجرف سوف يفتخر ولو كان من مشاقة ، أو من فتيلة مدخنة ، أو قصبة مرضوضة . لم تكن النار والسكين لازمتين له بقدر لزومهما لنا . وحينما ننظر إلى ذلك الامتحان الذى جازه ، نجد أنه لم يكن مناص منه . وإن كان النسل ينبغى أن يعطى له كهبة إلهية جزاء إيمانه ، فإن الطبيعة نفسها ينبغى أن تجرد من الحيوية والرجاء لكى يكون الله الكل فى الكل .

والآن دعنى أتحول من إبراهيم إليك أنت شخصيا أيها القارئ العزيز ، يا من برحت بك الآلام ، يا من قُطعت من الأصول ، يا من أتى بك إلى تراب الموت ، يا من جُردت من الشهوة والثروة ، من موهبة الخطابة ومن قوة الحزم . لكن تشجع ، فإن إبراهيم جاز هذا الطريق قبلك . وثق بأن هذه كلها إن هى إلا حلقات لازمة جدا فى سلسلة تدريبك . لم يحصل شىء يعطلك عن أن تكون أبا روحيا لجمهور عظيم جدا ؛

بل كل ما حصل يساعد على إتمام هذا . وبسبب فناء طبيعتك ، ينبغى أن تتطلع إلى نعمة الله الغنية التى تستطيع أن تجعلك مثمرا ، بل كثير الثمر ، وعديد النسل .

٣- **وتاريخه رمز لتصرفات الله مع البشر** . حينما نراجع تاريخ الكنيسة ، نجد أن الدفاع عن قضية الحق قد أؤتمن عليه - لا مرة ولا مرتين ، بل أكثر - جماعة قليلة جدا من البشر الضعفاء الذين خيل لهم بأن القضية خاسرة . لقد وقف إيليا النبى وحيدا يُرثى لحالته لأنه بقى هو وحده « وبقيت أنا وحدى » . فجماعة الأمناء الباقين القليلين كانوا مختبئين فى المغارات والكهوف . وكان الذين التفوا حول الراية وساروا وراءها جماعة الفقراء والمحتقرين . لم يدع أحد من الأقوياء أو الشرفاء أو المتعلمين (١ كو ١ : ٢٦) ، كما أن الفقراء والمساكين الذين دعوا لم يكون كثيرين ؛ وفجأة دعا الله رجلا واحدا من ركن مجهول من أحد أركان الأرض . وللحال ، بدا كأن التراب قد تحول فجأة إلى جيش محارب . وبزغ الحق من التراب بمجد عظيم كما ينبت العشب بعد أمطار الربيع . إن الصورة التى رسمها « السير والتر سكوت » عن الوادى المقفر الذى حفل فجأة بجيوش جرارة بمجرد إشارة واحدة من القائد ، طالما تكررت ، ولا تزال تتكرر ، فى الجماهير الكثيرة التى تتجمع بسبب حياة شخص واحد أو أقواله أو شهادته .

هكذا كان الحال أيام البدعة الأريوسية ، حين وقف أثناسيوس وحيدا ضد العالم مدافعا عن قضية لاهوت المسيح . وهكذا كان عند بدء إثارة موضوع إلغاء الإتجار بالرقيق . لقد طالما بيّن الله أنه لا يميل إلى استخدام جحافل الجيوش الجرارة ، لكنه يفضل اختيار جدعون ، يهوذا المكابى ، ولبرفورس [١] . وتاريخ الكنيسة هو فى جملته تاريخ حياة الأفراد . بواسطة لفنجستون [٢] وجدسون [٣] وكارى [٤] أتت ممالك برمتها عند أقدام المسيح لتجلس فى وقار واحتشام وعقلية ناضجة .

---

(١) هو الذى نادى بإلغاء الإتجار بالرقيق (١٧٥٩ - ١٨٣٣) .

(٢) مكتشف أواسط أفريقيا (١٨١٣ - ١٨٧٣) .

(٣) أول مرسل إلى بورما ، وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتها (١٧٨٨ - ١٨٥٠) .

(٤) أول مرسل للهند (١٧٦١ - ١٨٣٤) .

إذن ، فإن كان بين الذين يقرأون هذه السطور من خدام المسيح من يرى نفسه وحيدا ، فينبغى أن لا ييأس . هل تظن أنك « صغير » ؟ ثق بأن الله بجوارك . هل تظن أنك بوغاز ضيق ؟ ثق بأن « المحيط » الأعظم للاهوت الله ينتظر حتى يستخدمك لتوصيل ينابيع بركاته للعالم . ليست الأهمية فى ماذا نقدر أو لا نقدر أن نتممه ، بل ماذا تريد أن تتممه من أجل الله . حينما يستخدم الله أى إنسان ، فإنه يصير أبا لجمهور كما صار إبراهيم أبا لإسرائيل . والشرط الوحيد هو حلول الله فينا ومعنا وبنا . افتح كل كيانك لله ، لأنه على وشك أن يعزى « كل خرب صهيون ، ويجعل بريتها كعدن وباديتها كجنة الرب . الفرح والابتهاج يوجدان فيها . الحمد وصوت الترنم » (ع ٣) .

(٢) ثبات الصفات الروحية وعدم تزعزعها

فى الأعداد التالية نجد مقارنة عجيبة بين المادى وغير المادى ، بين الوقتى والأبدى . فالنبى يطلب إلى شعبه أن ينظروا إلى السموات من فوق ويتطلعوا إلى الأرض من تحت (ع ٦) . السموات تبدو ثابتة كل الثبات لا تقوى عليها عوامل الزمان ؛ ولا يتطرق إليها أى تغيير ، ولكنها « كالدخان تضمحل » أمام الريح ، أما الأرض فإنها « كالثوب تبلى » . والطبيعة طالما وُصفت بأنها ثوب الله ، النقاب الذى يستتر وراءه . وسوف يأتى اليوم الذى يطرح فيه هذا الثوب . وحينئذ تكون هناك سموات جديدة وأرض جديدة ، لأن السموات الأولى والأرض الأولى سوف تزول . ولكن وسط هذا التحول العظيم ، بل الزوال التام ، تبقى الصفات الروحية ثابتة لا تتزعزع . « أما خلاصى فإلى الأبد يكون وبرى لا ينقص » (ع ٦) .

١- هذه حقيقة ثابتة إلى الأبد عن ابن الله :

نحن لا نستطيع أن نبصر ما ينتظرنا فى المستقبل القريب . سوف يرى العالم يقينا - ولعله سريعا - الكشف الفجائى عن المقاصد الإلهية التى كان يعمل لها الله كل الدهور ، يرى الطبيعة وهى تتمخض وتتلوى من الألم ، يرى قدوم الملك ، وانتصاب كرسى الدينونة ، وقيامة الأموات . ولكن رغم حدوث هذه الظواهر حولنا ، فينبغى أن لا يتطرق إلينا الشك فى بقاء الله كما هو ، فى محبته وأمانته ، فى عهوده ومواعيده ، فى مقاصده الأزلية

واختياره . حينما يظهر ربنا فى لباس جديد فقلبه هو هو لا يتغير ، هو هو لن يتغير فى عواطفه ومعاملاته من نحونا وسط تحطم المادة وانقلاب العوالم ؛ سوف نبقى أبناءه الأعزاء ، سوف نظل مقبولين فى الحبيب ، مندرجين فى عهده الأبدى ، متحدين مع ابنه كأعضاء فى جسده وعروسه .

كان اليهود يجدون تعزية كبرى فى فكرة ثبات الله وعدم تغيره . ألم يقل إن بره قريب وخلاصه قد برز ، وأن ذراعيه يقضيان للشعوب ، وإياه ترجو الجزائر (ع ٥) ؟ حينئذ تسقط بابل أمام هجوم كورش ، ويضطرب كل العالم ، وتسود الفوضى كل الأمة . أما كلمة الرب فإنها تتم ، لأنه لا يتحول عن قصده ولا يغيره . ويبقى أولاده واثقين بأنه لا بد أن يفى بوعده . قد تمتلىء قلوبنا بهذه الثقة إذ نرى عن بعد التغيرات التى تطرأ دواما علينا ، وعلى بيوتنا ، وعلى كنائسنا ، وعلى جيلنا . كل شىء يتغير ، وأرسخ الأشياء التى نثق فيها تزول . أما الله فلن يتغير ، وصفاته ثابتة ثبات عرشه .

٢- وهذه حقيقة ثابتة إلى الأبد عن الإنسان :

حينما نشترك فى بر الله ونتمثله ، فإننا ننال ثباتا يتحدى الزمن وكل عوامل التغيير . فالمحبة التى نستقيها من قلب الله ، والتى نحب بها بعضنا بعضا ، تبقى إلى الأبد . والسلام الذى نقتبله يزداد عمقا . والصبر والشجاعة ومتانة الأخلاق التى نحصل عليها هنا بكد عظيم لا تنطفىء كالشمعة ولا تتلاشى كالدخان . أما إن كانت تنطفىء أو تتلاشى ، فأين إذن عناية الله التى بأولاده التى لا تحد ؟ كلا ؛ فقد يتلاشى كل ما حولنا ، أما الصفات والنعم التى ننالها ، فإنها تدوم متحدية عالم المادة ، وتبقى إلى الأبد « إلى دور الأدوار » . وعلينا أن لا نتذمر بسبب بطء عملية تهذيبنا ، وبسبب الجهد الطويل الذى يبذله الله لتفهيمنا كل درس بترديده مرارا وتكرارا .

يا له من درس عظيم نتعلمه من هذه الكلمات عن قيمة الأشياء نسبيا . فرجل العالم لا يبالى إلا بما يكسبه ، أما رجل الإيمان فإن أول ما يعنيه هو نوع الحياة التى يحياها . ابن العالم يضحى بكل شىء من أجل الأمور الزائلة التى « كالدخان تضمحل . . وكالثوب تبلى » ، أما ابن الأبدية فإنه ينتظر المدينة التى لها الأساسات التى صانعها

وبارئها الله ، حيث لا يُفسد السوس والصدأ ، ولا تُتلف النيران أو عوامل الزمان . إن حياة الإنسان لا تتوقف على كثرة ما يمتلك ، بل على الوداعة والإيمان والأمانة والإخلاص والمحبة .

٣- ضعف الإنسان :

لم يجرؤ هؤلاء اليهود فى سبيهم أن يفكروا بأنهم سوف يستطيعون الإفلات من يد العدو . فالجو كان مشبعا بالإهانات والتعييرات التى توجه نحوهم بصفة دائمة . أية رحمة ينتظرونها ممن رفضوا أن يكفوا عن كلماتهم القارسة ؟ إذا ما تحول معذبوهم من التهديد المرير إلى التنفيذ كان هنالك بعض الراحة . كلنا ندرك شيئا عن الخوف من الإنسان الذى يبدو منتظرا لكى يهلك . أما نحن ، فإن الصوت الإلهى يناديا كما نادى المسبيين فى بابل قائلا : « لا تخافوا من تعيير الناس ، ومن شتائمهم لا ترتاعوا » (ع ٧) .

وتُختم هذه الآيات الثمانية بتطبيق كلمة سبق أن نطق بها الرب : « يأكلهم العث » . لقد سمعناه يناجى نفسه قائلا : « هو ذا كلهم كالثوب يبلون يأكلهم العث » (ص ٥٠ : ٩) . أما الآن ، فإن الوحى يأمرنا بتطبيق نفس هذا التعبير على أنفسنا « لأنه كالثوب يبلون يأكلهم العث وكالصوف يأكلهم السوس » (ص ٥١ : ٨) . فإذ لنا هذه المواعيد والضمانات لنواجه العالم مهما كانت قوته . قد يحاول البشر إبادة القديسين ، ولكنهم لا بد فاشلون ، لأن نفوسنا ترتوى من الينابيع الطبيعية الإلهية الدائمة ، ولأن الله قد وهبنا الصبر والشجاعة الدائمتين فى طبيعتهما .

لنثق بأنه يعنى بخاصته ولا يتركهم .

- ١٧ -

استيقظى .. استيقظى

إشعياء ٥٢ : ١ [١]

تعال سريعا يا ديان الجميع الرهيب
لأنه مهما كان مجيئك مزعجا ومخيفا
فإنه فى حضرتك ينتصر الحق ويزهق الباطل
تعال سريعا لأنه بقربك
يتبدد الشك وينتزع الخوف
(توتيت)

إن كلمة « اسمعوا » التى كررت ثلاث مرات فى الأعداد السابقة تعقبها كلمة « استيقظى » التى كررت ثلاث مرات أيضا فى هذه الآيات . وُجهت فى المرة الأولى لذراع الرب ، التى يصورها الكاتب فى خياله الخصب كأنها قد نعست (ص ٥١ : ٩) ، ووُجهت فى المرتين التاليتين لأورشليم ، إما للمدينة الخربة ، أو لأبنائها الذين كانوا عند مياه بابل وقتئذ (ص ٥١ : ١٧ ، ٥٢ : ١) .

لنتأمل أولا فى هذه الكلمة فى مناسبتها الثانية (ص ٥١ : ١٧) . هنا نجد الكلام يوجه لأورشليم كأنها قد ثملت بالخمر . لقد شربت الكأس حتى الثمالة ، واضطجعت مستغرقة فى النوم . على أن سكرها ليس بالخمر ، ولا بالمسكر . بل لأنها قد « شربت من

(١) « استيقظى استيقظى البسى عزك يا صهيون البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس » .

يد الرب كأس غضبه » . مثل هذا التشبيه كثيرا ما استخدمه الأنبياء عن كأس غضب الرب الذى يشربه أولئك الذين ينسكب عليهم ذلك الغضب ، فيحدث فيهم حالة فقد الإحساس وضياع الرشد ، التى تنتج عادة بسبب الإدمان فى شرب الخمر .

لقد خضعت كل المدينة تحت هذا النير ؛ فأبناؤها غشى عليهم وارقدوا فى كل الطرقات « كالوعل فى شبكة » . وفشلت كل مجهوداتهم للنجاة من هذه الحالة . وسط هذه الظروف تقدم « عبد الرب » قائلا : « انهضى استيقظى انهضى قومى يا أورشليم التى شربت من يد الرب كأس غضبه » .

كما أن النور فى الشرق يبعث روح الحياة فى المدينة ويوقظها من سباتها ، وكما أن رياح الجنوب الدافئة تذيب ثلوج الشتاء ، وكما أن كلمة « طابيثا قومى » بعثت روح الحياة فى ابنة يايرس ، هكذا أيقظت هذه الكلمات صهيون من سباتها ، وبدأت تدب فيها روح الحياة فجأة . وإذ استيقظت ظنت أن الرب كان نائما ، ونادته ليستيقظ . فكان واجبا أن تفهم بأن الحال ليس كما توهمت ، وأنها هى التى كانت نائمة . ولذلك وجه الله إليها النداء ثانية « استيقظى استيقظى البسى عزك يا صهيون البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة » (ص ٥٢ : ١) .

هنالك منومات أخرى سوى غضب الله : هواء الأرض الساحرة ، بنج المعاشرات الردية ، عقاقير الملذات الجسدية والانهماك فى المشاغل العالمية والطمأنينة الجسدية . هذه تعرضنا أجمعين للاستغراق فى نوم عميق . وجيش الرب يميل لخلع أسلحة النور والاستسلام للسبات العميق حتى يرن الصوت مناديا بأنه قد حان الوقت للاستيقاظ . حينما نراجع تاريخ حياة تلاميذ المسيح ، نجد أنهم أكثر من مرة ومرتين قد تثقلوا بالنوم . ونحن أيضا كثيرا ما فقدنا حرارة الغيرة ، وقوة المحبة ، وثقة الإيمان ، ونشاط الخدمة ، وصرنا فاقدى الشعور والإحساس . يا موقظ النفوس الرحيم إننا نباركك لأنك طالما وقفت بجوارنا مرددا القول « استيقظ استيقظ » ، وكثيرا ما توهمنا حال يقظتنا أنك أنت الذى كنت نائما ، بينما نحن الذين كنا نائمين .

(١) إلتجاء صهيون إلى الله
« استيقظى استيقظى البسى قوة يا ذراع الرب »

١- **إن أول علامة للاستيقاظ هى الصراخ** . هذا ما يحدث للأطفال . مهما كانت الأم مشغولة فى خدمة البيت ، فإنها تتنبه لأول صرخة من طفلها إذا استيقظ . وكثيرا ما سألت فى البيت : هل سمعت الطفل يصرخ ؟

هذا ما يحدث أيضا للنفس . فعندما تجدد شاول الطرسوسى ، قال رقباء السماء « هو ذا يصلى » .

وهذا ما يحدث أيضا للكنيسة . فإن انسكاب روح الصلاة هو أول علامة للتجديد والانتعاش ، كما أن خرير المياه فى جداول الوادى يبين أن الثلوج بدأت تذوب فى أعالى الجبال .

٢- **والصراخ كان فى هذه الحالة على أساس خاطىء** . فالصلاة تشير إلى ما هو معروف لنا أجمعين فى دائرة الحياة الروحية . فى حياة كل واحد يوجد المد والجزر ، الشتاء والصيف ، أعالى جبل التجلى والوادى الذى يرقد به الغلام الذى به شيطان . فى بعض الأحيان يبدو لنا الله منتبها ، متيقظا ، عاملا ، نشيطا ، ينفث فينا روح نشاطه ، يدعونا صوته لمهمات جديدة وخدمات جليلة . وفى أحيان أخرى يتسلط علينا سبات عميق فلا نعود نرى السماء . ونحن نخطئ كل الخطأ حينما نعزو السبب لله بدلا من أن نفتش عليه فى أنفسنا . إن كان هنالك تغيير فى حياتنا الداخلية ، فذلك لأن نسبة قبول بركات الله تتغير فينا من وقت لآخر . الله لا ينعس بل نحن الذين ننعس . وليس مطلوبا من الله أن يستيقظ بل هذا مطلوب منا نحن . ليس مطلوبا من ذراع الرب أن تلبس قوة بل مطلوب من الإنسان أن يأخذ ما هو فى متناول يده بسهولة .

٣- **والصراخ قصير وحار** . ثلاث مرات يصرخ الداعى قائلا : « استيقظى » . حينما نستيقظ من النوم فجأة ، شاعرين بأن هنالك عيبا ما يحتاج إلى إصلاحه ، فإننا نصرخ بشدة إلى الله . هذا حسن ، ولو أننا لا بد أن ندرك فى الحال أن العيب عيبنا لأنه كانت هنالك فترة ركود فى حياتنا الروحية وثغرة فى موهبة قبول عطايا الله . وعلى أى حال فإن الصراخ الحار حسن ولو كان فى بداية الأمر فى اتجاه خاطئ .

٤- **وخير أساس لصراخنا ذكريات الماضى** . « ألست أنت القاطعة رهب [أى مصر] الطاعنة التنين [أى النيل] » (ص ٥١ : ٩) . خليق بنا أن نذكر اختبارات الماضى كدعائم للإيمان . وإن كانت حياة الماضى لا تعلن لنا الله فقد فقدت غرضها . وكل حادثة قد قصد بها أن تبين لنا ناحية جديدة فى صفاته . وذلك لكى نكتنز هذه الاختبارات لكل الأيام القادمة . ليس هذا معناه أن نتوقع بأن يكرر الله إعلاناته عن نفسه ، بل أن نتعلم بأن نقول إذا ما تم كل هذا بأنه واسع الحيلة ، رقيق القلب ، حكيم ، قوى . فلن يوجد أى طارئ ليس له علاج عنده . . ولن توجد أية حاجة لا يسدها . لقد أعطى المن ، فلا شك فى أنه يستطيع إعطاء الماء أيضا فى البرية . لقد أنقذ من مصر ، ويقينا أنه يستطيع أن يحرر من بابل . لقد نشّف « البحر ، مياه الغمر العظيم ، جاعلا أعماق البحر طريقا لعبور المفديين » . إذن ، فإنه يستطيع يقينا أن يجعل القفر أجمة ماء وكل الجبال طريقا (ص ٤١ : ١٨ ، ص ٤٩ : ١١) .

٥- **وذارع الرب قوية** : هى التى بسطت السموات ووضعت أسس الأرض (ص ٥١ : ١٣) . ونفس القوة قد تركت أثرا دائما لقدرتها فى أعمال الطبيعة . فثقوا يا أولاد الله إنها قادرة أن تحميكم ، أن تكون ترسا وملجأ لكم ، حصنكم إزاء ألد أعدائكم . قد يبدو غضب الأعداء فتاكا ، ولكنه لا بد أن يرتد خاسرا أمام ذراع الرب ، كما تتكسر الأمواج المزبدة على الرصيف الطويل الذى يستطيع أن يحتمى وراءه أصغر القوارب .

٦- **وذراع الرب تمتد إلى مسافات شاسعة** : إنها تصل إلى أعماق الجب (ع ١٤) . لا يوجد عمق لا تستطيع أن تتنازل إلى أعماقه مهما كانت سحيقة . قال المرنم : « إن فرشت فى الهاوية فها أنت » (مز ١٣٩ : ٨) . قد نهبط إلى أعماق البحار كيونان ، تحيط بنا المياه ؛ ونلتف بالعشب . ولكن من هناك يخرجنا الله . « إنى متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا علو ولا عمق تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا » . ومهما غصنا فى الأعماق فإن الأذرع الأبدية تحتنا ، وهى على الدوام تحتنا .

٧- **وذراع الرب رقيقة :** إنها تعزينا (ع ١٢) . إنها تفعل بنا ما تفعله ذراع الأم لطفلها المريض أو المكدود . وما تفعله ذراع المحبة للحبيب الذى يستند إليها بشعور الثقة والاطمئنان . بُسطت هاتان الذراعان على الصليب ، بسطتا فى أقصى حدود طاقتهما لكى تطوقا العالم كله . إنهما ترحبان بكل شخص فى الوجود لتضماه إلى الصدر الحنون . لقد وجد يوحنا هذا الصدر لينا حين استند إليه فى العشاء الأخير . فينبغى أن لا نتردد عن أن نستند إلى ذلك الصدر الحنون ، وبجوار ذلك القلب الرقيق ، لكى ننال التعزية حينما يمرض القلب ويخور الجسد . لن تستطيع أية قوة فى الوجود أن تخطفنا من هناك :

مصون فى ذراع يسوع
مصون فى صدره الحنون
هنالك تستريح نفسى
بمحبته التى تظللنى

نحن معرضون لنسيان كل هذا . لنسيان الرب صانعنا وفادينا (ع ١٣) . فتفكيرنا فى الأرض يفوق تفكيرنا فى السماء التى تظللنا . وتفكيرنا فى العشب الذابل يفوق تفكيرنا فى شجرة الحياة . وتفكيرنا فى الإنسان يفوق تفكيرنا فى الله . والقريب قد ألهانا عن البعيد .وضوء مصباح الغاز قد أعمانا عن ضياء النجوم . والأمور البشرية قد حجبت الإلهية .

أيها القارئ العزيز ، تأمل فى ذاك الجالس عن يمين الله ، على كرسيه المعهود ، بالنشاط الدائم ، وثق بأنه يتوسط بينك وبين كل الظروف المعاكسة مهما كانت متأهبة للفتك بك . إن الذين يسكنون كل يوم بين أحضان عمانوئيل ، ويستترون فى ظل يديه ، يستحيل أن يخافوا من غضب العدو كل الأيام (ع ١٦) .

(٢) الالتجاء إلى صهيون

حينما نستيقظ تمام الاستيقاظ ، ويتوافر الوقت لدينا للتأمل . فإننا نكتشف أن الذنب كله يرجع إلينا ، وأن الله لم يكن هو الذى قد نام ، فإنه لن ينعس ولن ينام ، بل نحن الذين قد نمنا .

جميل جدا أن نستيقظ من النوم ، فالحياة تعبر بسرعة . وما لم نكن منتبهين ومتيقظين ، فإننا نخسر مجد المخلص ، أو نقصر فى تقديم المساعدات التى يتطلبها ، فيستدعى أحد الملائكة لتأدية خدمتنا . يضاف إلى هذا أن العالم فى حاجة لمساعدات من لا يعطون وسنا لأعينهم ولا نوما لأجفانهم ، بل على الدوام يتحرقون شوقا لإغاثته فى وقت حاجته . وإذ نستيقظ نجد طقمين من الثياب فى انتظارنا : الأول « القوة » : « البسى عزك [قوتك] يا صهيون » . والثانى « الجمال » : « البسى ثياب جمالك يا أورشليم » (ص ٥٢ : ١) . ولكل منهما نظيره فى العهد الجديد ؛ الأول فى أفسس ٦ ، والثانى فى كولوسى ٣ . البسوا سلاح الله الكامل . البسوا الرب يسوع المسيح ، طباعه ، روحه ، صفاته .

١- **يجب أن نلبس ثيابنا الجميلة** . يجب أن يحف بنا الجمال والبهاء . يجب أن نلبس لا مجرد ثياب ، بل ثيابا جميلة . إن رمز الحياة التى إليها دُعينا هو : « عريس يتزين بعمامة [١] .. عروس تتزين بحليها .. الجنة تنبت مزروعاتها » (أش ٦١ : ١٠ و ١١) . يجب أن لا نقتصر على مجرد إتمام الأعمال الحسنة ، بل لنتممها بطريقة جميلة . ولا نقتصر على مجرد التكلم بالحق ، بل لنتكلم به بمحبة . ولا نكتفى بمجرد مساعدة المسكين ، بل لنساعده دون محاولة الظهور أو التشامخ والعظمة . يجب أن نلبس جمال الرب إلهنا . حينما عدد الرسول أنواع الثياب التى يجب أن تلبسها نفوس المفديين ، بيّن لنا أنها تكاد تتصل بالطبع أو المزاج ، أو يصح أن تدعى زهرة النفس « أحشاء رأفات ولطفا وتواضعا ووداعة وطول أناة » (كو ٣ : ١٢) .

نحن لا نستطيع أن ننسج هذه الثياب . ليس فى قدرتنا غزل نسيج كهذا من طبيعتنا ، ولا هو مطلوب منا أن نفعل هذا ، لكنها كلمة معدة لنا فى المسيح . وكل ما هو مطلوب منا هو أن نلبسها ، وذلك إذ نلبسه هو . لنتقبل وداعة ولطف وطهارة يسوع . لنكن شركاء « فى ملكوت يسوع المسيح وصبره » (رؤ ١ : ٩) ؛ أو بتعبير آخر : لنقبل يسوع كما جاء لنا من الله حكمة وبرا وقداسة وفداء (١ كو ١ : ٣٠) .

---

(١) أو « بالتاج » حسب ترجمة السبعينى .

هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا كان القلب خاليا من كل المشاغل . يجب فحص النفس فى حضرة الرب . حينئذ تتشح بصفات طبيعته المجيدة ، التى لا تنال إلا بالإيمان . إن أجمل الثياب فى انتظار أفقر البشر وأضعفهم وأحقرهم . ولا مبرر بأن يسير أحد أولاد الله فى خرق بالية . لا مبرر أن يكتسى بشىء سوى النور الذى قيل عنه بأن الله يلبسه « اللابس النور كثوب » (مز ١٠٤ : ٢) . « لنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور » (رو ١٣ : ١٢) .

٢- **يجب أن نلبس العز والقوة** . « البسى عزك يا صهيون » . الله يمدنا بالقوة اللازمة لكل الطوارئ ولكل ظروف الحياة . ومهما استجد من ظروف ، فهنالك على الدوام نعمة كافية لسد الحاجة . ولا شك فى أن التجارب والمحن يسمح بها لكى نضطر للالتجاء إلى مصادر المعونة التى فى متناول أيدينا ، والتى لا نلجأ إليها إلا إذا دُفعنا إليها دفعا . والخطر فى هذا على الدوام : أننا ، حتى فى هذه الظروف ، قد لا يخطر ببالنا أن نلبس تلك القوة المكتنزة لنا فى المسيح يسوع ربنا .

لم يأمرنا الله بأن نشترى القوة أو نخلقها بقوة إرادتنا وصلواتنا وآلامنا ، بل أن نلبسها ، فهى معدة فعلا ، وهى فقط تنتظر بأن نلبسها . البس قوتك أيها الشخص المجرَّب ، قبل مغادرة مخدعك فى ساعة الصلاة الهادئة الصباحية إلى ساحة الجهاد ، التى طالما عانيت فيها مرارة الفشل والهزيمة ، البس قوة المخلص المقام من بين الأموات ، لا تقتصر على مجرد الصلاة لحفظك أو إغاثتك ؛ بل البس سلاح الله الكامل ؛ امسك بقوته وكن فى طمأنينة وسلام . اتشح بدرع ذاك الذى هو أقوى من كل قوة فى الوجود . اعتبر بأن هذه القوة هى قوتك . تيقن بأنك تستطيع الانتصار على أقوى الأعداء . ردد هذا القول الذى نطق به داود : « لا أخاف من ربوات الشعوب المصطفين على من حولى . الرب نورى وخلاصى ممن أخاف . الرب حصن حياتى ممن أرتعب » (مز ٣ : ٦ ، ٢٧ : ١) .

٣- **يجب أن ننتظر الخلاص من سلطان الخطية** . لقد أمرت بابل أن تنزل عن كرسيها وتجلس فى التراب . وأمرت أورشليم أن تنتفض من التراب وتقوم للجلوس على كرسيها (ع ٢) . كان يجب أن يفك النير عن عنقها ، وأن لا يعبر أبوابها أغلف ولا نجس فيما بعد (ع ١) . كان يجب أن يكون خلاص الرب كاملا حتى تدعى من ذلك الوقت « المدينة المقدسة » المفرزة لخدمة الله فقط .

هذه الكلمات تنطبق على حالتنا . إن قلعة القلب الداخلية قد قصد بها أن نكون لله فقط . لقد اشترى الموقع ، وشيد الأسوار ، وهو يطلب أن يكون له عرشا ، والقلب هو الكرسى المقدس . وإذا سلمنا حياتنا تسليما كاملا له كقاضينا ومشترعنا وملكنا ، فإنه يخلصنا ، وتصير الأسوار خلاصا والأبواب تسبيحا (ص ٦٠ : ١٨) . ولا يدخلها ما هو نجس أو رجس أو أى تفكير كاذب . ويطرد الشيطان بلا رجعة . ويجلس عمانوئيل على عرشه بمجد وبهاء . وعندئذ تقرع الأجراس ، وتغص الشوارع بالجوقات الموسيقية ، والكهنة فى ملابسهم الناصعة البياض ، والجماعات الكثيرة البراقة الثياب حاملين قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخورا .

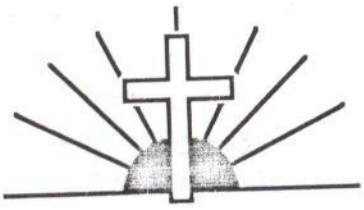

- ١٨ -

اعتزلوا .. اعتزلوا

إشعياء ٥٢ : ٧ - ١٢

ليتك تشق السموات يا رب
وتجذبنى إليك أنا عروسك
جاعلا إياى كوكبا منيرا
وتلبسنى الثياب الناصعة البياض
(تنيسون)

أخيرا وصل النبى إلى القمة بعد أن سلك فى الصعود إلى جبل النبوة مسالك طويلة . لقد سبق أن رآها مقدما (ص ٤٩ : ٢٠) ، ولكنه تحول عنها بسبب الاعتراضات الكثيرة التى وجهت إليه عن إمكانية الإفلات من أسر طويل كهذا . فإسرائيل ظنوه أمرا مستحيلا ، لأنه لم يسمع قط أن أمة قوية كبابل تطلق أحد شعوبها المسبيين « مجانا » و « بلا فضة » . ولن توجد سابقة كهذه فى سجلات كل الأمم . أما « عبد الرب » فقد التقى بإسرائيل واحدا فواحدا وفنّد تلك الاعتراضات ، وصرح بعزمه غير القابل للتغيير ، وأيقظهم من سباتهم بترديد كل من الكلمتين « اسمعوا .. استيقظى » ثلاث مرات . والآن يمسك بالبوق مرة أخرى ويطلق الصوت عاليا مناديا بالخروج « اعتزلوا اعتزلوا [١] اخرجوا من هناك لا تمسوا نجسا . اخرجوا من وسطها » .

---

(١) « ارتحلوا ارتحلوا » حسب الترجمة الإنجليزية ، « انصرفوا انصرفوا » حسب ترجمة اليسوعيين .

لدى تصفح هذه الآيات الرائعة الجمال ، نستطيع أن نرسم صورة للرجوع من السبى كما كان يراه النبى وقتذاك . وأول ما تبرزه هذه الصورة هو « رجوع الرب إلى صهيون » (ع ٨) . ثم تبين لنا الموكب الحاشد يتحرك ببطء وبلا خوف . ليس المشهد مشهد جماعة من العبيد الأرقاء الهاربين الذين يخشون متابعة العدو لهم وإعادة القبض عليهم « لأنكم لا تخرجون بالعجلة ولا تذهبون هاربين » (ع ١٢) . يركض أمامهم المبشرون ، ويظهرون من بعيد على أفق جبال صهيون ، حاملين الأخبار السارة « بالخير » منادين « بالسلام » ، ومخبرين « بالخلاص » (ع ٧) .

يتألف العنصر الرئيسى من الموكب من الكهنة اللابسين الملابس البيضاء ، حاملين بكل وقار وحرص الآنية المقدسة التى انتزعها نبوخذنصّر من الهيكل ، والتى استعملها بيلشاصر فى وليمته بازدراء ، أعادها كورش . وقد حرص الوحى على أن يعطينا فكرة عن عددها ووزنها بالتدقيق [٥٤..] (عز ١ : ٧ - ١١) .

وبعد انتهاء رحلة الموكب فى البرية التى استغرقت أربعة أشهر ، وبدأت طلائعه تظهر على الجبال المتاخمة لأورشليم ، أطلق الرقباء الصوت عاليا إذ كانوا يترقبون هذه اللحظة السعيدة . ومع رفع الصوت ، ارتفع أيضا صوت الترنم والتهليل « يرفعون صوتهم ويترنمون معا » ذلك « لأنهم يبصرون عينا لعين » . أما « خرب أورشليم » بغاباتها التى تحولت فحما ، وحجارتها التى لفحتها الشمس ، فإنها تنفجر بالفرح والترنم معا . أما الأودية والجبال فقد خرجت عن صمتها ، وكونت جوقة موسيقية بديعة ورفعت أصوات التسبيح .

وترسم لنا الصورة أمم العالم وقد أتت لتشهد وتعترف أنه « قد شمر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا » . ولكنها لا ترى ما أخفى عن أعين الجميع سوى العيون المفتوحة « إن الرب سائر أمام شعبه » وأنه يأتى خلفهم كظهير لهم « وإله إسرائيل يجمع ساقتكم [1] » ليصد عنهم كل الصعوبات قبل أن تصل إليهم ، فلن يستطيع أى عدو البطش بهم من خلف .

---

(١) ساقة الجيش : مؤخرته .

يصف لنا سفر عزرا كيف تمت حرفيا هذه الرؤيا البديعة . فيه نجد رجوع جماعة صغيرة من اليهود قدرت بـ ١٧٠٠ نسمة فقط . وهنالك توقفوا عند نهر أهوا [آخر نقطة توقف قبل دخول البرية] ثلاثة أيام ليستودعوا أنفسهم بين يدى الله بالصوم والصلاة . لم تكن لديهم خبرة الارتحال فى الصحراء . وفضلا عن ذلك ، فقد عرقل سيرهم وجود النساء والأطفال بينهم . وكان لا بد لهم من اجتياز منطقة يكمن فيها جماعة من اللصوص الخطرين . ولكنهم خجلوا أن يطلبوا من الملك جيشا وفرسانا لوثوقهم من أن إلههم سائر أمامهم لفتح الطريق ، وخلفهم لحراستهم ضد أى اعتداء . وفى وسط الركب كان جماعة الكهنة واللاويين حاملين الآنية المقدسة التى قال لهم عنها عزرا « اسهروا واحفظوها حتى تزنوها فى مخادع بيت الرب » (عز ٨) .

لم يسجل لنا الكتاب تلك الترانيم التى أنشدتها الجماعة فى ارتحالها كما تنبأ النبى هنا . ولكن لا بد أن تكون أصداؤها قد ملأت الجو فى البرية صباحا ومساء لإزالة كل أثر للملل أثناء الرحيل . هنالك مزامير كثيرة يرجع عهدها إلى تلك الحقبة ، ولعلها كانت محبوبة للجماعة ، فكانت تتغنى بها عند اجتياز كثبان الرمال فى البرية أو عند الجلوس حول النار فى المحلة . لدى تطبيق آمال النبى الواسعة المدى على إتمامها الفعلى المدون فى سفر عزرا ، قد يبدو أن بعض نواحى النبوة لم تتم فعلا . ولكن لنذكر أن مهمة المؤرخ هى تدوين الحوادث أكثر من تدوين المشاعر والأحاسيس التى تتساقط عليها كما تتساقط أشعة الشمس على الصخور . ثم أليس هذا ما يحصل على الدوام ؟ إننا بسبب ضعف إيماننا ونقص طاعتنا ، نفوّت على أنفسنا ملء البركات التى أعدها لنا .

وهنا ، لنتأمل فى بعض الصفات التى يجب أن نتحلى بها أثناء ارتحالنا فى برية هذا العالم إلى مدينة الله .

(١) يجب أن يكون هنالك خروج مستمر

لقد تعود اليهود السكن فى بابل ، والعادة تجعل أغلب الأشياء محتملة . ففى أيام

عزرا لم يكن هنالك إلا القليلون الذين تذكروا مرارة بداية السبى ، لأن الشعب الذين ولدوا فى أرض معذبيهم قد وفّقوا بين طرق حياتهم وبين تلك المدينة العظمى التى كان محتما أن تترك فيهم أثرا فى كل الأيام التالية . لعل البعض منهم كان يتوق إلى انقضاء السنوات المحددة للسبى ، على أن الأغلبية كانوا يعيشون فى ظروف مريحة ، والبعض يعيشون فى رغد العيش ، ولا يريدون مطلقا استبدال بابل بخرب صهيون . وكانت النتيجة أنهم تفرقوا فى كل أرجاء الشرق ، وبنوا لأنفسهم مجامع ، ونجحوا نجاحا ماديا عظيما ، ولكنهم فقدوا شخصيتهم وأصبحوا كنهر يسيل فى الرمال .

كل شخص له بابل مقابله ، ولكنها ليست لها أية حقوق على مفديى الرب . ربما نكون قد دخلناها ، ولم يخل الأمر من تبكيت الضمير ، ولكننا بمرور الوقت قد أخمدنا الضمير . لقد قامت صداقة بيننا وبين شخص كنا نشمئز من كلماته وننفر من سلوكه . لقد انزلقت أرجلنا فى نوع من الملذات كنا ننظر إليه بشىء كثير من التردد والحذر . لقد تغلبت علينا عادة كنا نرهبها رهبة الأمراض الوبائية . لقد انجرفنا فى طريقه معينة لكسب المال ، كنا فيما سبق لا نقوى على وخزات الضمير تلقاءها . هذه كلها هى بابل التى تحاول أن تنشب أظفارها القتالة فى النفس ، والتى يحذرنا منها صوت الله بكل قوة قائلا : « اعتزلوا اعتزلوا اخرجوا من هناك » .

حينما نخرج من بابل إلى الحرية التى لم نعهدها من قبل ، فإننا بطبيعة الحال نتراجع إلى الوراء عن المسير فى البرية ، فى الصحراء الجرداء ، فى أطلال المسرات السابقة . إن الذين تذكروا الهيكل الأول بكوا حينما وضعت أساسات الثانى ، ولم يتمالك نحميا نفسه من البكاء حينما رأى كوم التراب . أما نحن فإننا سوف نأخذ أكثر مما نضحى . إذا ضحينا بالأمور الوقتية التى تُرَى ، وجدنا أنفسنا قد امتلكنا الأمور الروحية الأبدية . فى البرية ، نجد الكواكب الأبدية تضىء فوقنا ، نحس بنسمة الله على وجوهنا ، ننال جزاء يعوض علينا مئات أضعاف ما ضحينا . « اعتزلوا . . فأقبلكم وأكون لكم أبا » (٢ كو ٦ : ١٧ و ١٨) .

(٢) ويجب أن لا يكون بالعجلة

« لأنكم لا تخرجون بالعجلة » . هنالك أمثال وأقوال مأثورة كثيرة عن مشاهداتنا فى الأيام السالفة تبين لنا حماقة التعجل . ولكن طالما كان المرء بعيدا عن الله ، فإن الأمل ضعيف فى العمل بهذه الأمثال والأقوال . إليك عيّنة منها : الزمن دائم الاضطراب . يركض البشر اقتفاء للثروة ، يندفعون من لذة إلى لذة ، ، يجوبون كل المسكونة فى ستة أشهر ، يبنون روما فى سبعة أيام ، بهذه وغيرها نملأ أدمغة الأولاد بمعلومات لا يقوون على هضمها . وهذا التعجل قد تسلسل إلى حياتنا الروحية ، إلى مخادعنا ، إلى تأملاتنا ، إلى عبادتنا . من المستحيل أن نتفرغ لأمر أو نتقن عملا إذا كانت الساعة فى أيدينا على الدوام نتطع إليها خشية أن يفوتنا القطار .

لم ترسم صورة دقيقة قط بالعجلة . ولم يكتب كتاب متقن بالعجلة . ولم يصل أى مكتشف إلى اكتشافه إلا بعد صمت طويل أمام الطبيعة حتى تفتح له بابها . وأعظم العلماء يصرفون السنوات الطويلة فى أبسط الأمور . وما أحسن القول المأثور « فى التأنى السلامة » .

وفى هذه الناحية يقدم الرب يسوع المسيح لنا المثل الأعلى . فإنه فى السنوات القصيرة التى قضاها على الأرض ، والتى كانت مكتظة بعظائم الأعمال ، كان يتحرك بتؤدة وترو . وكان يجد متسعا من الوقت لتلبية كل نداء ، للمس كل سقيم . ولن تستطيع أن تجد أثرا للعجلة أو الاضطراب . كان الناس يدفعونه إلى الأمام على الدوام ، أما هو فكان يجيبهم : « إن وقتى لم يحضر بعد ، وأما وقتكم ففى كل حين حاضر » (يو ٧ : ٦) . وكل حادثة فى حياته كانت مرتبة بحسب الحكمة السرمدية التى لن تخطىء قط . كان يجد وقتا لكل شىء ، وكل شىء كان يتم فى وقته . طالما كان هنالك عمل ينبغى أن يتم ، فقد كان واثقا من أنه سوف لا يلقى القبض عليه قبل أن يتم ، وكان واثقا من أن هيرودس لا يستطيع قتله قبل أن يكمل .

كانت هذه التؤدة ميسورة لإسرائيل طالما كانوا واثقين من أن الله هو الذى رتب مسيرهم ، وهو الذى يتقدمهم ، ويسير خلفهم . لماذا « يذهبون هاربين » كأن العدو سوف يلحق بهم ، مع أن إله إسرائيل فى مؤخرتهم ؟ ولماذا يندفعون إلى الأمام لانتهاز إحدى الفرص إن كان « الرب سائرا أمامهم » يهديهم إلى مكان راحتهم ؟

حينما يكون إيماننا وطيدا بالله ، وبعنايته ، وتدبيره لكل ظروف حياتنا ، فإن نفوسنا تمتلىء ثباتا وطمأنينة . وحينما يتقدم إلينا المجرب ويدفعنا للعجلة والخوف والاضطراب ، فنلجأ للمراحم الأبوية قائلين : « ارجعى يا نفسى إلى راحتك » ، فإن الله خلفك يتوسط بينك وبين أخطاء الماضى (مز ١١٦ : ٧ - ٩) .

(٣) ويجب أن نطمئن من جهة الطريق

فى بداية الحياة يبدو الطريق واضحا كل الوضوح . يجب أن نقتفى آثار الآخرين ، نعتمد على أقوالهم المأثورة ، نتبع مشورتهم ، حتى نجد فجأة أننا قد أصبحنا فى مقدمة الركب ، لا نجد أمامنا أثرا لخطوات من سبقونا فى السير فى البرية القاحلة الجرداء . هذا الشعور بعدم وجود طريق مرسوم لا نحس به إلا بتقادم الأيام . لا بد أن يكون هذا هو ما أحس به جماعة السبى حين غادروا نهر أهوا وبدأوا المسير فى البرية .

فى مثل هذا الوقت ، يجيبنا المسيح بفمه المبارك « أنا هو الطريق » . حينما نتصفح سفر أعمال الرسل ، ندرك أن الاصطلاح الذى لا يتغير الذى أطلق على الإنجيل هو أنه هو الطريق ، كأن أولئك المؤمنين الأولين قد سادهم الشعور المفرح بأنهم اكتشفوا أخيرا طريق الحياة المباركة ، الطريق الذى يحل كل مشاكل الحياة ، ويقودهم إلى مدينة الله . وإذا ما طلب من أى واحد أن يذكر مرادفا للاصطلاح الذى جرى على لسانه بصفة دائمة ، نطق على الفور بالاسم « يسوع » ، ولعل الطريقة المثلى للتأكد من الطريق السوى للحياة هى أن نسأل أنفسنا عما كان يفعله يسوع لو وجد فى ظروف مماثلة . إن طباعه ، وطريقة نظرته للأمور ، إرادته - هذه كلها تحل كل المشكلات .

كل هذا نجده واضحا فى الرمز الموضوع أمامنا الآن « الرب سائر أمامكم » . حينما خرج الشعب من مصر ، تقدمهم الرب فى عمود السحاب الذى كان يتحرك أمام تابوت العهد . فإذا ما تحرك العمود حلوا خيامهم وارتحلوا ، وإذا ما وقف حطوا رحالهم . كانت السحابة هى العلامة المنظورة الوحيدة التى لا تعرضهم لأى خطأ فى ذلك القفر . ولم يكن شىء كهذا حينما تقدم عزرا أول جماعة من السبى إلى صهيون . على أن الرب ، قائدهم الأعظم ، كان يتقدمهم أيضا - ولو [بكيفية] غير منظورة - كما كان يتقدم إسرائيل فى البرية أولا .

ولا يزال هذا هو الحال مع كل أولاد الله فى حياتهم اليومية . عندما يتشعب الطريق ، عندما لا تعرف أى الطرق تسلك ، عندما تجد نفسك فى البرية لا تتبين أمامك طريقا مسلوكا ، فقف هادئا ، اقض وقتا فى التأملات العميقة ، سكت كل الأصوات الأخرى فى حضرة المسيح ، سله ماذا يريدك أن تفعل . اذكر أن الراعى الصالح حينما يُخرج خرافه يسير أمامها وهى تتبعه . فيسوع يتقدمنا دواما فى كل دعوة يدعونا بها للخدمة ، فى كل نصيحة للتضحية ، فى كل دعوة لتعزية الآخرين أو إغاثتهم أو خلاصهم . حينما يكون الله خلفنا كحصن لنا ، وأمامنا كقائد لنا ، وحولنا ، يحيطنا بترنم النجاة (مز ٣٢ : ٧) ، فلن يكون هنالك أى شك فى أننا سوف نصل إلى صهيون التى لا يوجد فيها خرب ، والتى لم تضعف أسوارها قط أمام أقوى القوات المسلحة .

(٤) يجب أن نكون أطهارا

« لا تمسوا نجسا ، تطهروا يا حاملى آنية الرب » . كانت هذه الآنية - كما رأينا - ثمينة جدا ، فقد حرص الوحى على أن يذكر لنا عددها بكل دقة (عز ٨ : ٢٦) ، على أنها كانت قبل كل شىء مقدسة للرب . لقد ظلت تستخدم فى خدمة الهيكل عدة أجيال ، ولم يكن حاملوها أشخاصا عاديين ، بل لاويين دعوا لهذه الخدمة بصفة خاصة ، وكان مفروضا فيهم أن يكونوا أطهارا طهارة ناموسية على الأقل . وهكذا عبر البرية هؤلاء الرجال المقدسين حاملين الآنية المقدسة .

فى هذا العالم يسير محفل - غير منظور للعين البشرية - يشق طريقه فى وسط الزمن ، حاملا الآنية المقدسة . إن العبارات والأحاديث التى تحمل الحق الإلهى ، يمكن تشبيهها بالآنية المقدسة فى العهد القديم التى كانت مفرزة لخدمة المقدس ؛ فالشهادة لحق الله ، وتوكيد الأشياء الأبدية غير المنظورة ، وإعلان حقائق الفداء . هذه هى الأمانة المقدسة التى أؤتمنا عليها ، يجب « أن تجتهدوا [1] لأجل الإيمان المسلم مرة للقديسين » (يه ٣) . « لاحظ [2] نفسك والتعليم » (١ تى ٤ : ١٦) . إن أعظم خدمة تستطيع الكنيسة تأديتها للعالم هى شهادتها المستمرة لحقيقة وجود الله ، لحقائق الفداء والدينونة والدهر الآتى . ومن أجل جميع هذه ، تقدم إلينا الوصية القديمة قائلة : « اسهروا واحفظوها حتى تزنوها أمام رؤساء الكهنة واللاويين فى مخادع بيت الرب » (عز ٨ : ٢٩) .

أى أناس يجب أن نكون نحن الذين أؤتمنا على مثل هذه الخدمة السامية ! أى حرص يجب أن نبذله لكى لا تنتزع منا هذه الأمانة المقدسة بسبب حياتنا النجسة ! يا لها من مسئولية ألقيت إلينا لكى لا ينطفئ أو يتدنس مجد هذه الأمانة بسبب سوء تصرفنا ! أى حذر ينبغى أن يراعيه أولئك الذين يشهدون للحق لئلا ترفض شهادتهم بسبب سوء قدوتهم ! إن الناس يقدرون قيمة الحق الذى نشهد له بمقياس قيمة حياتنا وتصرفاتنا الشخصية . فلنجعل الإنجيل أكثر قبولا لدى الآخرين بقداسة حياتنا وسموها .

يخبرنا الوحى أن الخرب كانت تشيد ترنما أمام هذا المحفل (ع ٩) . يا له من خيال بديع ، كأن أقدامهم قد غيرت منظر المواضع التى اجتازوها . فالأرض التى كانت مقفرة حينما وصلوها ، صارت جنة حين تركوها . والخرب التى تركوها صارت أسوارا . وحيث استقرت العداوة والشكوك وسوء الفهم ، حل السلام والوئام إذ رأى المراقبون كل شىء بأعينهم .

---

(١) « تجاهدوا » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

(٢) أو « احرص على » .

هذه صورة حقيقية لما تفعله ديانة المسيح فى قلوب البشر وحياتهم . فالخليقة نفسها التى تئن الآن وتتمخض ، سوف تهتف فورا بالتسابيح كتلك التى ختم بها المرنم مزاميره . فليمنحنا الله نعمة لكى نشترك فى هذا المحفل ، ونتقدم إلى الأمام بلا عجلة ، متشحين بالثياب البهية ، فى حمى القدير ، إلى أن تتحقق نبوات الأنبياء والمزامير فى عالم الحرية .

ولكن يجب ألا ننسى أبدا أهمية الصلاة كحلقة ضرورية فى إتمام هذه المعجزات . فى الأصحاح السابق كانت هنالك طلبة واحدة حارة « استيقظى استيقظى البسى قوة يا ذراع الرب . استيقظى كما فى أيام القِدَم » . دخلت هذه الطلبة أذنى رب الجنود ، ولذلك يخبرنا الوحى هنا أنه « قد شمّر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم » ، فداوموا على الصلاة يا أولاد الله ، واثقين أن صلواتكم لن تضيع عبثا ، ودموعكم لن تذهب هباء . « هو ذا السيد الرب بقوة يأتى وذراعه تحكم له » (ص ٤٠ : ١٠) .

- ١٩ -

كشف حقيقة المسيح

إشعياء ٥٢ : ١٣ - ١٥ [١]

هذا هو اليوم
لم يعد هنالك انتظار أليم بجوار البحر المظلم
ولم يبق غبش الظلام
ولكنه إذا تكلل بالنور والخلود
يقف بفرح وابتهاج فى يوم الله
(ب. م.)

لم يكن هنالك سوى جبين واحد يناسبه هذا الإكليل من الشوك . حينما كان الخصى جالسا فى مركبته يقرأ هذه القصيدة الرائعة عن الآلام المبرحة حتى الموت ، التى تنفرد بسحرها الفتان بين كل أصحاحات نبوة إشعياء ، تساءل عمن يقصده النبى قائلا لفيلبس : « أطلب إليك عن من يقول النبى هذا ، عن نفسه أم عن واحد آخر ؟ » أما فيلبس « ففتح فاه وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع » .

---

(١) « هوذا عبدى يعقل يتعالى ويرتقى ويتسامى جدا . كما اندهش منك كثيرون . كان منظره كذا مفسدا أكثر من الرجل وصورته أكثر من بنى آدم . هكذا ينضح أمما كثيرين . من أجله يسد ملوك أفواههم لأنهم أبصروا ما لم يخبروا به . وما لم يسمعوه فهموه » .

يسوع هو المفتاح الذى يضعه فى أيدينا العهد الجديد كله فى إشارات كثيرة لكشف هذه الأسرار التى فيها تقترب السماء من الأرض ، والأبدى من الزمنى ، ومحبة الله من ضعف الإنسان ، بكيفية غير منظورة . ولكن ، حتى بدون هذه الشهادة الدقيقة للروح القدس ، لم يكن ممكنا أن نجد من هو جدير بأخذ هذا السفر وفتح ختومه سوى الخروف الذى وسط العرش ، أسد سبط يهوذا ، ابن الله نفسه :

لقد حاول البعض تطبيق هذه الآيات والآيات التالية وبعض أجزاء هذه النبوة على بعض الأشخاص الذين شربوا كأس الآلام مُرة كأرميا أو حزقيال أو أحد الشهداء المجهولين فى أيام السبى . على أنه إن كانت الأحزان والآلام من نصيب كل البشر ، فإن التفاصيل الواردة فى هذه النبوة لم تتم إلا فى ابن الإنسان . قد يلعب الطفل على أعظم آلة موسيقية ، ولكن من من مولودى المرأة سوى المسيح يستطيع أن يعترف بإتمام هذه النبوات فى شخصه ويقول : إن ذلك كله تحقق فى شخصى ، وهذه الصورة هى صورتى ، لا يوجد وصف هنا إلا وهو فى المسيح . لو أن أحدا من بنى البشر تجاسر بأن يدعى هذا الادعاء ، لعرّض نفسه لهزء العالم واحتقاره . ولكن عندما يقترب الناصرى مصرحا بأنه قد تمم هذه الصفحة الأليمة ، عندما يفتح قلبه ويكشف ما به من جروح ، عندما يحصى أحزانه المجهولة ، ويتساءل إن كان هنالك حزن مثل حزنه ، فلن يتجاسر أحد على الاعتراض ضد هذا التصريح . نعم ، فلعله سُمع منه تصريحا بأن الجروح التى فى قلبه أعمق مما يصوره لنا هذا الأصحاح ، وأنه شرب كأسا أشد مرارة .

هذه المرثاة المحزنة قد وصلت إلينا مع الأسف مجزأة بسبب الطريقة التى اتبعت فى تقسيم الكتاب المقدس إلى أصحاحات . إنها فى الواقع تبدأ من (ص ٥٢ : ١٣) بهذه الكلمة التى طالما استرعت التفاتنا فى نبوة إشعياء « هوذا » ، وهى تحتوى على خمس فقرات ، تتضمن كل منها ثلاث آيات ، ولو أن الفقرتين الأخيرتين أطول قليلا . لعلك لا تجد بين ترجمات الكتاب المقدس ما يصور لك رنين الحزن فى ثنايا هذه الكلمات تصويرا كاملا .

ويُلخَّص البحث فى هذه الكلمات فى : آلام ابن الله ، الاستنتاج الخاطىء الذى استنتجه أتباعه من هذه الآلام ، الانتصار العظيم الذى أحرزه ، والذى أدى إلى كشف حقيقته .

(١) رواية الآلام والأحزان

هنا تلتقى ثلاثة أسرار كما تلتقى السحب فى أعالى الجبال قبيل الرعد :

١- سر التواضع :

النبات رقيق . بكل صعوبة يشق طريقه مخترقا القشـرة الأرضية ، لا شىء فيه من الجمال أو الجاذبية ، تستمد هذه الرواية تفسيرها الكامل من العهد الجديد الذى يتحدث إلينا عن أمه القروية البسيطة ، ولادته فى مذود ، ظروف حياته المتواضعة . أفضل تلاميذه من صيادى السمك ، والفقر يلازمه كل أيام حياته على الأرض ، وتابعوه من عامة البشر ، ورفيقاه على الصليب لصان ، وكنيسته من الفقراء والمحتقرين . حقا كان هذا تواضعا ، لأنه ، مهما كان نصيب أفقر الفقراء متواضعا ، فهل سُمع أن طفلا وُلد فى مذود البقر ؟

كانت أقصى درجات تواضعه أنه « وُجد فى الهيئة كإنسان » . لقد كان قدوسا لا حد لقداسته ، غنيا فى البركات التى فاضت منه على المسكونة ، كاملا فى كل الصفات التى شع نورها من حياته الفائقة السمو . لذلك فكم كان أليما جدا أن يستنشق الهواء من أجوائنا المسممة ، أن يحتك يوميا بالخطاة ، وأن يحيط به بصفة دائمة البائسون وأحط طبقات الجنس البشرى ، وأن يرى أنه لا بد أن يموت ، وأن يجوز ظلمة القبر وهو واهب الحياة ، وأن ابن الله يجب أن يطيع الموت ، موت الخزى والعار بأيدى البشر . يقينا إن هذا التواضع سر عميق .

٢- سر الأحزان :

إنك تستطيع أن ترى آثاره التى لا تمحى على ذلك الوجه ، فلا تحتاج إلى برهان آخر على أنه كان « رجل أوجاع ومختبر الحزن » . ولكن ، ما هو الحزن ؟ كل منا يعرف بالاختبار ما هو ، ولكن من ذا الذى يستطيع وصفه ، أو يقول فى عبارة موجزة ماذا ينطوى عليه ؟ هو تلك العاصفة التى تنتج حينما تلتقى المحبة بظلال قاتمة تهدد حياة الأحباء . لا شك فى أنه يوجد نوع أنانى من الحزن يتذمر من أجل الخسائر المادية ، وينوح بسبب الحرمان من اللذات الجسدية . ولكن لا مجال لذكر هذا الحزن هنا طالما كنا فى صدد حزن فادى العالم . فالحديث هنا يدور حول الحزن فى قلبه المنقطع النظير ، وفى قلوب من يحذون حذوه .

هؤلاء الذين يتمثلون بحياته ، تمتلئ قلوبهم من المحبة الإلهية . وعلى قدر امتلائهم من تلك المحبة يُعرّضون للحزن الشديد . فإن المحبة حينما ترى أن الذين تقصدهم قد أفلتوا من يدها ، كأن تفتر محبتهم ، أو تتسمم نفوسهم بسبب سوء الفهم أو سوء التفاهم ، أو ينجرفون فى تيارات خطرة ، تحاول تلك المحبة إنقاذهم منها إن أرادوا ، ولكنهم يرفضون معونتها - فحينئذ يكون الحزن ، كما تلتقى الأمطار بلفح الريح البارد جدا فتتحول إلى ثلوج تتساقط على الأرض كالقطن الأبيض .

لا داعى لزيادة البحث عن السبب الذى دعا لحزن المسيح . فإنه لم يكن ممكنا إلا أن يكتئب . لم يكن ممكنا أن تُحصر محبته فى البشر دون أن يسبب له ذلك آلاما مبرحة . ألم تجرح قلبه أنت بالذات ، وتصلبه ، وتعصر أحشاءه ، ذلك لأنك لم تُقَدّر رقة وعطف ذلك القلب الذى كان يسكب كنوزه لأجلك لوفرة متناهية ؟ إلى خاصته فى كل الأجيال جاء ، أما هم فقد أحكموا إغلاق الأبواب ليَحولوا دون دخوله . لقد طالما أراد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها ، أما هم فقد رفضوه . لقد جاء إلى جنته ليجمع ثمره النفيس والمر والطيب التى تنعش نفسه (نش ٤ : ١٦ ، ٥ : ١) ، ولكنه وجد الأسوار خربة ، وأفضل المخازن قد نُهبت ، ووجد الاستخفاف والاحتقار بدل المحبة الملتهبة ، وقوبل بالصد والرفض بدل الترحيب ، وعُرّض للهزء والهوان بدل التقدير الكامل والحب العميق . يقينا أن هذا كله سر الأحزان .

٣- سر الآلام :

مجروح ، مسحوق ، متألم . العسكر يبصقون على وجهه ، وحبر الجلد عميقة فى جسده ، وقطرات الدماء تنزف من جبينه ،والصراخ : « لماذا تركتنى ؟ » يتصاعد من أعماق قلبه . يا لها من آلام مبرحة . لقد حق لبيلاطس أن يصرخ قائلا : « هوذا الإنسان » (يو ١٩ : ٥) كأنه أراد أن يحرك عاطفة الجمع بدعوتهم للتطلع إلى هذا المنظر المفجع .

إن تلك الكلمات الخالدة التى دونها لنا الرسول بولس فى رسالته إلى العبرانيين ، والتى يخبرنا فيها أنه بعد أن « قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت سمع له من أجل تقواه » (عب ٥ : ٧) تشير إلى الآلام التى تحملها الرب يسوع المسيح ، والتى يقول عنها قداس الكنيسة اليونانية بأنها هى « آلامه المجهولة » .

كان معنى هذه الكلمات موضوع بحث جماعة المسيحيين فى كل العصور : وعلى أى حال فإنها تعبّر عن شدة هول الآلام التى تحملها ، والتى رآها مقدما فى چثسيمانى . كانت تلك الآلام شديدة الوقع ، أشد من أن تتحملها الطبيعة البشرية . إذن ، فماذا كانت نظرة الفادى إليها ؟ وإن كان لمجرد التفكير فيها فى چثسيمانى قد تقاطرت الدماء من جبينه الطاهر ، فكم يكون أثرها حين تحملها فعلا ؟ هنا يتبين سر الآلام .

يا ملك الآلام والأحزان ، يا من لا يماثلك إنسان فى هول تلك الآلام ، إننا نخر سُجّدا أمامك ، قائلين : « السلام لك » . إن دموعك وتأوهاتك قد غلبتنا ، وقلوبنا قد استعبدت ، ونفوسنا بعثت فيها الحياة ، وحياتنا تخضع تحت تصرفك لإتمام المقاصد التى كلفتك ثمنا غاليا كهذا .

(٢) الاستنتاجات السطحية الخاطئة

فى كل عصر نجد من يعزى الشقاء للإثم ؛ والآلام للشر ؛ والأوجاع للخطية . والآلام الخاصة تعتبر كأنها علامة للأخطاء الخاصة . فعبثا حاول أيوب أن يعلن براءته ،

لأن أصدقاءه أصروا على أن السبب فى آلامه المروعة لا يمكن إلا أن يعزى لشروره ، التى وإن أخفاها عن أعين البشر ، فلا شك فى أنها كانت معروفة له ولله . والمصيبة التى كان يرزح تحتها الرجل الذى ولد أعمى جعلت التلاميذ يتساءلون عما إذا كان هذا الإنسان قد ارتكب فى إحدى مراحل الوجود السابقة خطية كان العمى نتيجة لها ، وكان فى نفس الوقت علامة لها أيضا . وحينما عصفت الزوابع على السفينة ، وخرج بولس إلى شاطئ جزيرة مليطة ، ونشبت الأفعى فى يده فجأة خارجة من النار ، استنتج أهل الجزيرة أنه لا بد أن يكون قاتلا لأن العدل الإلهى لم يدعه يحيا ولو نجا من البحر . ولعل الجموع عديمى التفكير ، حين رأوا آلام المسيح الفريدة ، حكموا أنها بعدل حلت به . وهذه فى الواقع كانت الكلمات التى انسابت من بين شفاه شعبه والتى أفصح عنها النبى « ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا » .

ولعل جماعة الفريسيين الذين وافقوا على موته ، ضد ضمائرهم ، لأنهم غلبوا على أمرهم أمام عوامل الحقد والضغينة التى ملأت قلب كل من حنانيا وقيافا ، قد عزوا أنفسهم إذ رأوا ظلمة ذلك اليوم الكثيفة تسقط ظلالها على الصليب ، واستنتجوا بأن آلاما كهذه لا يمكن أن يسمح بها لتحل بالناصرى ما لم يكن قد احتسب عليه إثم التجديف الذى من أجله حكم عليه بالموت .

على أننا فى ذلك الوقت نجد أن يسوع « لم يفتح فاه » . فقد كان صامتا أمام قيافا إلا حين خشى أن يعتبر صمته مؤيدا لحكم الموت . كان أيضا صامتا أمام هيرودس إذ حسب أن الكلام معه غير مُجد . كذلك صمت أمام بيلاطس إلا حين ظهر أن ذلك الوالى الرومانى يريد يقينا معرفة الحق . هكذا كان « كساة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه » .

ولماذا هذا الصمت ؟ أما أولا ، فلأن المخلص كان متيقنا بأن المناقشة مع أولئك الذين أصروا على صلبه عديمة الجدوى . ثم أن هذا الصمت يعزى من ناحية أخرى إلى أن نفسه كانت مطمئنة هادئة إذ كان « يسلم لمن يقضى بعدل » (١ بط ٢ : ٢٣) ، ورأى

مقدما تلك الساعة التى فيها يقوم الآب ليظهر حقه تماما . ثم أنه يعزى أيضا إلى شعوره بأنه يحمل فى صدره سرا ذهبيا ، تعبيرا آخر عن آلامه أعمق مما كان يظنه البشر ، تفسيرا إلهيا لسر إثم البشر .

إننا نكيل المدح لمن يتألمون من أجل الآخرين دون تذمر أو أنين ، متحملين بصبر الآلام المبرحة والأحزان الشديدة التى سببها لهم أولئك الآخرون . فإنهم مهما أسىء إليهم يظلون صامتين حتى يأتى الوقت المناسب الذى فيه يتبين حقهم واضحا وجليا . أمام عزيمة قوية كهذه ، لا يسعنا إلا أن نظهر أعظم التقدير لأولئك المتألمين . إذن ، فأى تقدير يستحقه صمت الرب يسوع ؟ لقد كان يدرك السر الذى تنطوى عليه طقوس الناموس ، والتى كانت ترمز كلها إلى موته الذى كان على وشك الحصول . لقد كان يدرك الناموس الخطير الخاص بتحول الآلام وانتقالها إلى شخصه . كان واثقا أنه هو حمل الله الذى يحمل خطية العالم ، وأنه هو تيس عزازيل الذى يحمل الإثم إلى أرض النسيان ، وأنه هو الذى كانت ترمز إليه كل الذبائح والتقدمات . أمام هذه الحقائق الرائعة هدأت نفسه ، واستطاع أن يصمت حتى « يبطل الخطية بذبيحة نفسه » . وإن كان البشر قد أساءوا الظن فيه ، فهذا لم يكن ذا بال ، لأن الآب عرف ما كان فى قلبه . لقد كان الوقت يتأهب لإظهار حقه فورا ، وماكان يحمله فى قلبه كسر مكنون ، كان متوقعا أن ينادى به على سطوح كل العالم .

كلنا فى حاجة إلى تعلم هذا الدرس . كثيرا ما أسرعنا للتحدث عن آلامنا فى مسامع الآخرين ، والشكوى من كل إساءة وإهانة . إننا نميل بأن نسرع إلى الكلام أو إلى النشر لتبرير تصرفاتنا ، والرد على التهم الباطلة ، وطلب الإنصاف . كل هذا لا يليق بمن يثقون أن الله يسهر على خاصته ، ويخرج مثل النور برهم ، وحقهم مثل الظهيرة . من أجل فاعلى الشر يجب أن نبذل الجهد لمقاومة ومنع ارتكاب الشر ، كما فعل المسيح حين احتج على رئيس الكهنة من أجل كسره لمبادئ الشريعة اليهودية . ولكن عندما نجد تيار الشر العنيف مندفعا ومتحديا كل قوة تقف فى وجهه ، فإن الحكمة المسيحية تقتضى أن لا نشتم عوضا عن أن نهدد ، بل أن نرفع عيوننا إلى الجبال من حيث تأتى المعونة .

(٣) إظهار حق المتألم

قد يبطىء هذا ، ولكن لا بد أن يتم أخيرا . هذا ما حصل للمسيح ، ولا يزال يحصل للآن وإلى منتهى الدهور . فإن كل الأجيال قد تبينت وشهدت لجماله الأدبى المطلق ، وعظمته الفائقة فى احتمال الآلام فى الساعة الأخيرة ، وقيمة آلامه وصليبه التى لا تقدر .

١- ظهور الحق بتوالى اقتناع البشر :

يقول النبى - متحدثا بلسان البشر عامة - « لم نعتد به » لأننا توهمنا بأن الله كان يؤدبه من أجل خطاياه . أما الآن ، فقد تبين أنه حمل أحزاننا **نحن بالذات** وتحمل أوجاعنا ، وأنه جُرح لأجل معاصينا ، سُحق لأجل آثامنا ، وأن تأديب سلامنا عليه . وبعبارة أخرى : إن حقيقة الآلام الكفارية تزداد وضوحا فى عقول وقلوب البشر . فى كل يوم يسطع النور بلمعان أكثر فوق قمم جبال هذه الحقيقة [حقيقة الآلام النيابية الكفارية] موضحا تلك القمة الفريدة التى لم تطأها أقدام بشرية قط سوى قدمى ذلك الواحد الأوحد . وليس هذا معناه أننا نستطيع أن ندرك تمام الإدراك أو نبين أو نصف ما فعله المسيح من أجلنا فوق الصليب ، ولكننا سوف ندرك أن آلامه على الصليب قد أتمت فداء البشرية ، ووضعت أساس هيكل ، أسواره خلاص ، وأبوابه تسبيح .

هذا الاقتناع المتزايد بهذه الحقيقة هو أحد العوامل لإظهار حق المسيح .

٢- ظهور الحق بالثقة التى يمتلىء بها قلب كل فرد :

فى كل مرة يأتى إليه أى فرد ، ويجد الشفاء والسلام والخلاص فى جراحاته ، والتطهير فى دمه الكريم ، وملجأ تحت يديه المبسوطتين على الصليب ، حينما تجعل أنت ، وأنت بالذات ، نفسه ذبيحة إثم من خطيتك ، فإنه « يرى نسلا ، ومن تعب نفسه يرى ويشبع » ، ويظهر حقه ، ويعوض كل آلامه .

٣- ظهور الحق بارتفاعه إلى يمين العظمة :

« أنتم أنكرتم القدوس البار . ورئيس الحياة قتلتموه الذى أقامه الله من الأموات » (أع ٣ : ١٤ و ١٥) . لقد ظهر حقه بجلوسه على عرش أبيه ، وإعطائه كل سلطان ، وقدرته على أن يخلّص إلى التمام كل من يتقدم إليه . كل هتاف من الملائكة أو السيرافيم بأنه مستحق ، كل تسبيح من الكائنات التى نجهلها نحن كل إكليل يطرح عند قدميه ، كل غصن من أغصان النخيل يلوح به فى موكبه ، كل مجد وكرامة تقدمان إليه بمرور الأجيال ، قيامته من الأموات ، جلوسه على العرش الأبيض العظيم ، وملكه الأبدى - هذه كلها تشهد بأن الآب قد أظهر ولا يزال يظهر حقه . لذلك « أقسم له بين الأعزاء ، ومع العظماء يقسم غنيمة » .

لقد تعزت السماء
لأن النضال العجيب قد تم الآن
وعاد ملكها بالفرح والحبور

- ٢٠ -

الإيمان كمفتاح

إشعياء ٥٣ : ١ [١] يوحنا ١١ : ٤٠ [٢]

إن كنت تستطيع أن تركز ثقتك بالتمام
فى ذاك الذى يضبط كل الأنام
فإنك تجد الراحة والسلام
والحكمة والبصيرة وأعظمهن الإيمان
(بروكتر)

أخذنى مرة محام أعرفه ليرينى غرفة محصنة تحصينا قويا ضد النيران احتفظ فيها ببعض التحف الثمينة . وهذه الغرفة محفورة تحت الطريق ، يوصل إليها ممر طويل ، ثبتت بكل من جانبيه محافظ متينة للمستندات الثمينة . . ولدى الدخول رفع شمعة كهربائية متصلة بسلك كهربائى ينتهى بمفتاح فى المدخل ، وبإدارة هذا المفتاح ، جرى التيار فى السلك ، فأضاءت الشمعة ، واستطعنا اجتياز الممر حتى نهايته ، بعد فك ثنيات السلك كلما تقدمنا فى المسير . هذه الشمعة غير المضيئة تشبه الخادم المسيحى غير المتصل بقوة الروح القدس . والإيمان يشبه المفتاح الذى بواسطته ينحدر تيار القوة الإلهية المخلصة إلى حياتنا وخدمتنا .

---

(١) « من صدق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب » .
(٢) « قال لها يسوع : ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله » .

لا سبيل إلى الشك مطلقا فى أن إيماننا هو الشرط الأساسى ، وهو المقياس لانحدار قوة الله المخلصة . إذا انعدم الإيمان انعدمت البركة ، وإن كان الإيمان قليلا كانت البركة قليلة ، وإن كان الإيمان عظيما كانت البركة عظيمة . حسب إيماننا يكون لنا دواما . قد تكون قوة ذراع الله المخلصة المجيدة فى انتظارنا بجانبنا ، ولكنها لا تتم عملها إلا إن اتصلنا بها بالإيمان .

إن الناحيتين السلبية والإيجابية لهذه الحقيقة العظمى والجوهرية ماثلتان فى الآيتين موضوع تأملنا فى هذا الفصل . الآية الأولى تشكو من أن ذراع الرب لم تستعلن لأن البشر لم يؤمنوا بما دونه لنا الوحى ، والثانية تؤكد على فم السيد أن الذين يؤمنون يرون مجد الله . أما ما ورد بينهما فإنه يبين لنا كيف أن البعض يفشلون وهم مزودون بأفضل المواهب للخدمة ، بينما يحرز غيرهم نجاحا عظيما دائما وهم لم يزودوا إلا بأبسط المواهب .

(١) ذراع اللـه

كثيرا ما استعمل هذا الاصطلاح فى أقدم الأسفار . وهو يبين - فى كل موضع - قوة العلى العاملة المخلصة . وأول ما نلتقى به فى حديث الله نفسه مع موسى « وأنا أخلصكم بذراع ممدودة » (خر ٦ : ٦) ، ثم نقرأ عن « يمين الرب » فى ذلك الهتاف الداوى الذى تصاعد من حناجر مليونين من شعب الرب بجوار البحر الأحمر . وطالما ردد هذا التعبير فى سفر التثنية . بل إن شعراء إسرائيل وأنبياءهم كثيرا ما استعملوا هذه التعبيرات المحبوبة : الذراع التى تفدى ، الذراع المقدسة ، الذراع المجيدة ، الذراع المثمرة . وفى الإصحاح الأسبق ، رأينا كيف طلب من ذراع الرب أن تستيقظ وتلبس قوة . على أن هذه الاستعارة الأخيرة غريبة ، والفكرة فيها أن ذراع الرب كانت - بسبب عدم إيمان إسرائيل - باقية بدون عمل ، مختبئة تحت ثنايا اللفائف الكثيرة ، مع أنها يجب أن تكشف عن نفسها ، وتقوم فى قوة فعالة .

كل ما يهمنا الآن هو العلاقة بين الإيمان وامتداد ذراع الرب بقوته المخلّصة . لقد استعلنت ذراع الله عند البحر الأحمر ، إذ شقت طريقا فى أعماقه ليجوز فيه مفديوه . وعندئذ تحرك إيمان موسى وعمل عمله ، وآمن الشعب بالشهادة التى سبق أن قدمها لهم عن

كلمة الرب . على أن ذراع الرب استراحت مدة التيه الطويل فى البرية لأن إسرائيل لم يؤمنوا بكلمته .

واستعلنت ذراع الله عند الأردن ، وطول مدة حياة يشوع العجيبة . فشقت الأردن فى فيضانه ، وهدمت أسوار أريحا ، وطاردت جيوش الأعداء ، وأوقفت الشمس عن المغيب ، ووهبت أرض الموعد للشعب المختار . وذلك لأن يشوع لم تنثن عزيمته ولم تقل قوة إيمانه . ولكن ذراع الرب استراحت مرة أخرى حينما امتنع الشعب - مدة القضاة - عن متابعة الإيمان الذى يستطيع أن يفعل المستحيل ، وحالما كانت تشتعل النيران من الرماد ، كما فى أيام جدعون وباراق ويفتاح وشمشون ، كان الرب يشمر عن ذراعه .

واستعلنت ذراع الرب حينما تيقن إيمان داود أن الله الحى لا يزال بين شعبه ، يستطيع أن يخلص بدون سيف وترس ورمح . يا له من عصر ذهبى مزدهر ، فيه غنت العصافير أغنيات شجية تحت سماء المحبة الصافية ، وزهور النبل والبر والحق عطر أريجها تربة الأرض ، والنور كان نور نهار لم تتلبد سماؤه بالغيوم ، ولم تستطع أية قوة أن تقف فى وجه الجنود الذين تعلموا فى مغارة عدلام دروسا ثمينة عن بطولة الإيمان وعن قوة العزيمة فى القتال . ولكننا نرى هنا أيضا أن ذراع الله استراحت وسمحت لأعداء شعبه أن يفعلوا ما شاءوا حتى إلى السبى ، لأن إيمان إسرائيل صار كهيكل سليمان خرابا يبابا .

تُعلمنا رسالة العبرانيين أن كل الأعمال العظمى التى تمت فى تاريخ اليهود تعزى إلى الإيمان الذى أيقن بأن الله يعمل بقوة فى كل الأجيال ، وأنه يجازى الذين يطلبونه بجد واجتهاد .

(٢) حياة ابن الإنسان

يبين هذا الأصحاح أن هذه الحياة كانت تبدو فى نظر البشر فاشلة من نواحى كثيرة . كانت له ذراع الرب ، ولو خفيت على الجميع سوى الفئة القليلة التى آمنت . ولعل الرب لم يصنع معجزة إلا إذا توفر الإيمان ، إما فى الشخص الذى تقبل قوته المخلصة أو فى الذين شهدوها . فقائد المائة ولو كان أمميا ، والمرأة الفينيقية ولو كانت من الكلاب ، والأبرص ولو

كان منبوذا - هؤلاء استمدوا منه قوة شافية مخلصة . بينما مجموعة الشعب ، خصوصا رفقاء صباه ، خسروا البركة التى اقتربت منهم ، لأنهم بكبريائهم وغطرستهم لم يبالوا بها . بعدم الإيمان حرمت الأغصان من غنى أصل داود . وحالة إسرائيل اليوم فى العالم تعزى لإصرارهم على عدم الإيمان ، الأمر الذى حرمهم من معونة يمين الرب .

(٣) حادث كعينة

لبث يسوع يومين خلف نهر الأردن رغم أنه كان مطلوبا فى بيت عينيا على جناح السرعة ، حيث كانت حياة ذاك الذى أحبه تذوى بسرعة ، وكانت الدموع تُذرف بغزارة ، ولو أنها لم تكن كلها بسبب مرض لعازر وموته . فإن شعور مريم ومرثا بإغضاء نظر أعز الأصدقاء عنهما ، وعدم استطاعتهما تعليل إبطاء الحبيب ، الذى لم يأت ولا أرسل كلمة - هذان هما العاملان اللذان جعلا الدموع سخينة . على أن المخلص كان عليما تمام العلم بكل ما هنالك ، فإنه علم أن المرض تطور إلى الموت ، فقال على الفور : « لعازر حبيبنا قد نام » . ويبدو أن فترة الصمت والغياب هذه قُضيت فى الصلاة ، الأمر الذى يشير إليه فى الكلمات التى نطق بها عند القبر بصوت عال لكى يقدم الشعب كل المجد للآب ويقدروا محبته وجمال صفاته . وقبل مغادرة ذلك المكان الذى مكث فيه يومين ، كان واثقا من أن لعازر سوف يقوم ، فقد قال : « لكنى أذهب لأوقظه . . وأنا أفرح لأجلكم أنى لم أكن هناك » لأمنع موته ، لأنى بإقامته من الأموات ، أقدم لكم برهانا على وحدتى بالآب ، فيبعث ذلك إيمانا قويا فى قلوبكم ، ويكون تعزية وإرشادا لكم كل الأيام التالية .

ولكن ، حتى بعد ذهاب الرب إلى بيت عنيا ، وتيقنه من أنه سوف يشمر عن ذراعه ، فإنه رأى أنه لا بد من توفر إيمان الأختين كعنصر رئيسى .

وهذا الإيمان وجده فى مرثا . هذا أمر مدهش ، ولكننا نجد فيه تعزية . لو أن هذا الإيمان وُجد فى مريم لما دعا ذلك إلى الدهشة ، لأن روحها الهادئة ، وتعمقها فى الحياة الروحية ، جعلاها قريبة جدا منه ، فقد كانت تجد لذة كبيرة فى كلماته ، كما كانت محبتها ملتهبة ، وغيرتها حارة . ولكننا لم نكن نتوقع من مرثا أن تُظهر الإيمان ، وأن

تعتقد أن الكنوز المذخرة فى حياة المسيح يمكن أن تمتد إلى القبر الذى اضطجع فيه لعازر أربعة أيام . لكن هذا ما حدث . فإنها قابلت يسوع واثقة أن لديه القوة الكافية التى كانت تمنع الموت لو أنه جاء فى الوقت المناسب ، وصرحت بإيمانها بأن صلواته تقدر على كل شىء ، واعترفت بأنها منذ أمد طويل آمنت أن يسوع هو المسيا ، ابن الله ، الفادى الذى طال انتظاره . هذه الاعترافات من جانبها بينت أن الإيمان كان متوافرا فعلا فى نفسها - كحبة خردل فى انتظار فصل الصيف - بحلول الرب فى قلبها ، وفى انتظار تدريب نعمته لها .

هنالك مسيحيون كثيرون غيورون يثقل كاهلهم إلى أقصى حد ويحد من نشاطهم بسبب خدماتهم للآخرين . فالأشخاص الذين يقومون بالأعمال الخيرية ، والنساء فى بيوتهن ، والخدام فى كل دوائر الخدمات المسيحية ، تطغى خدماتهم على كل أوقاتهم ، فلا يجدون وقتا للجلوس عند قدمى المسيح ، أو إعداد الخطط التى تؤدى إلى إتمام مقاصده ، كما فعلت مريم حين أعدت الطيب ليوم تكفين ربها . ومع ذلك ، فإنهم جديرون بالإيمان القوى ؛ لأنهم وسط مشاغل الحياة الكثيرة وارتباكاتها ، يلبون نداء الإيحاءات الإلهية ، وينضج فيهم الإيمان بالمخلص الحى ، وتُخلق فيهم القوى لدرجة تدهشهم وتدهش الآخرين .

وسوف يكتشف المسيح يوما ذلك الإيمان ، ويعلنه ويدربه حتى يأتى بالأعمال الجبارة .

ووضع أمامها وعدا . « سيقوم أخاك » . . إن الإيمان يتغذى على المواعيد ، كما تتغذى جذوة النار التى تكاد تنطفئ وسط الرماد على الوقود الذى يوضع فوقها وحولها . إن حسبنا حسابا للظروف تراخت قوانا وفترت عزائمنا أما إذا تطلعنا إلى كلمات الله القوية الصريحة ، وتطلعنا من خلالها إلى من وعد ، فإننا نصبح - كإبراهيم - أقوياء فى الإيمان ، واثقين أن الله الذى وعد قادر أن يتمم أيضا . استمع لكلمة الله لأقصى حد ، فالإيمان يأتى بالاستماع . إصغ إلى اختبارات الآخرين عن كلمات الوحى ، فإن ذلك يبعث الإيمان ، ويضمن لك استعلان ذراع القدير .

وبيّن لها أن تحقيقه يمكن أن يتم هنا ، ويتم الآن . كانت مرثا مستعدة للإيمان بأن لعازر سيقوم فى اليوم الأخير ، ولكنها لم تؤمن بإمكانية قيامة الجسد

حالا بعد أن أنتن . فقال لها يسوع : « أنا هو القيامة والحياة » ، فىّ تتوفر القوة التى تستطيع أن تقيم الأموات ، هنا ، بل الآن ، كما تقيمهم فى اليوم الذى تتحدثين عنه . آمنى فقط فترين القيامة مقدما .

تأمل فى قوة هذه العبارة « أن هو » ؛ إنها تدل على الحالة الحاضرة للإله السرمدى الأبدى . كان هذا هو الدرس الأول الذى يجب أن يتعلمه موسى عند العليقة المشتعلة . إذ قال له الله إنه هو « اهيه الذى اهيه [1] » . الله كائن ، كائن هنا ، هو قادر ويستطيع أن يفعل الآن كل ما يفعله فى الأيام التى سوف تكون . يميل الإنسان إلى عدم الاعتقاد بالمعجزات الإلهية حتى يرى بعينيه الأدلة المادية . لقد بارك الله ، وهو سوف يبارك . لقد فعل الله آيات كثيرة فى مجيئه الأول ، وسوف يعمل آيات كثيرة فى مجيئه الثانى . أما الفترة الحالية [التى تتوسط المجيئين] فقد تتوهم أنها فترة ركود . ليت الجميع يؤمنون بأن يسوع فى الانتظار متأهب أن يعمل معهم ما عمله وسوف يعمله مع كل النفوس . ليت الجميع يسمعونه ينادى قائلا : أنا هو القيامة للموتى ، أنا هو الحياة الأفضل لكل من يعيشون فىّ ويؤمنون بى .

وحرك فيها روح الانتظار . أليس هذا هو السبب الذى من أجله طلب أن يُرفع الحجر ؟ يقينا أنه كان من اليسير جدا أن يصل صوته أذنى لعازر فى قبره ولو كان محكم الإغلاق ، وكان من اليسير جدا أن يقوم من القبر ولو كان الحجر لا زال موضوعا على فمه لو أن المسيح أراد ذلك . والمرجح جدا أنه قصد بطلب رفع الحجر أن يبعث روح الانتظار والرجاء فى قلب مرثا ، فترجو استعلان ذراع الرب فورا . وقد تمت النتيجة المطلوبة . فإنها بلهفة أسرعت لعدم تنفيذ أمره ، وحينما أصر الرب على كلامه ، مذكرا إياها بأن هذه هى الفرصة لإيمانها ، وثبّت روحها لتَلقّى البركة التى جاء ليمنحها إياها . لقد آمنَت ، فرأت مجد الله فى وجه يسوع المسيح .

يجب أن تكون الغاية الوحيدة أمام كل واحد منا أن يجمع المسيح ولعازر الميت معا . إذا ما حل هو لم يبق للموت وجود ، كما أن الشمس إن حلت لا يبقى لليل وجود ، فإن الفساد ،والنجاسة ، والخطية ، تهرب من أمام وجه ذاك الذى جاء لكى تكون لنا حياة ،

---

(١) أى « أكون الذى أكون » أو « الكائن الذى كان » .

ولكى يكون لنا أفضل . دع إيمانك يكون موصلا بين معطى الحياة وبين الجماعة التى تعيش فيها ، كنيستك ، مدرستك ، بيتك . لا يمكن أن تجدى أية وسيلة أخرى إن لم يتوفر هذا الشرط . مهما أوتيت من الفصاحة ، والعلم ، والجاه ، فهذه كلها فاشلة لا محالة . أما الإيمان - مهما كان ضعيفا وبسيطا - فإنه يتحد المخلص - الذى هو حى إلى الأبد ، وله مفاتيح الموت والهاوية - بأولئك الذين ظلوا طويلا فى قبور الخطية ، حتى استولى الفساد على جزء فى طبيعتهم .

فلنطلب من المسيح مخلصنا أن يبعث فى نفوسنا مثل هذا الإيمان ، وأن ينميه بكل طرق التدريب والتهذيب ، وأن يكمله بروحه المغذى حتى تستعلن ذراع الرب فينا وبنا ، ويظهر مجد الرب أمام أعين البشر .

وفى نفس الوقت ، يحسن أن لا نركز تفكيرنا كثيرا فى الإيمان لئلا نعطل نموه . حوّل نظرك من الإيمان إلى موضوع الإيمان ، تجد أن الإيمان ينمو من تلقاء ذاته . هو دليل صحة النفس . احرص على أن تنال روحك غذاءها ، وأن تكون مستريحة ، وعندئذ يصبح الإيمان طبيعيا كالرائحة للزهرة ، واللون للفاكهة .

لا تتساءل عما إذا كان إيمانك سليما ، فكل إيمان سليم متى كان متجها نحو المسيح .

- ٢١ -

ذبيحة إثمك

إشعياء ٥٣ : ١٠ [١]

على الصليب يسمر الله كل أعدائك
فالناموس الذى يسبيك
وخطايا كل البشرية
صُلبت معه هنالك على الصليب
لكى لا تعود تؤذى
من يقبلون صليبه
(ملتون)

عجيب جدا - ولو أن هذه حقيقة لا تدحر - أن يكون ذلك اليوم الذى لم يشهد العالم فى مثله حزنا أعمق ، أو ظلاما أشد ، ، هو الذى عُيّن لعلاج الأحزان وتبديد الظلام إلى منتهى الدهور . فإلى آلام الفادى تلجأ نفوس المحبين فى أشد الساعات حزنا وظلاما وشعورا بالخطيئة لتجد تعزية ونورا ومعونة . ولا شك فى أن هذا هو السبب الذى من أجله وضع الكتاب المقدس كل هذه الأهمية للصليب العجيب ، وجعل الأنبياء والبشيرين يتحدثون إلينا بكل إسهاب عن ذلك الموت - الذى هو موت للموت - لكل الذين يدركون عمق معناه .

---

(١) « أما الرب فسر بأن يسحقه الحزن . إن جعل نفسه ذبيحة إثم يرى نسلا تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح » .

يا لها من دقة فائقة تلك التى صُوِّر بها الصليب فى هذا الإصحاح موضوع تأملنا . وكأن الكاتب أراد أن يزيل كل التباس فى فهم معانيه ، ولذلك يذكرنا مرارا وتكرارا أن موت الفادى لم يكن مجرد حادث عادى ، بل تميز عن كل موت آخر ، وعن كل الاستشهادات والتضحيات ، فهو فريد فى عظمته ، هو الذبيحة الوحيدة الكاملة ، والكفارة الكافية ، عن خطايا العالم كله . لقد استخدم كل تعبير ممكن لتوضيح هذه الفكرة ، وهى أن الآلام الشديدة لم تكن علامة لخطية معينة ارتكبها المتألم كما تبدو للناظر لأول وهلة ، بل إنه « مجروح لأجل معاصينا . مسحوق لأجل آثامنا » ، مضروب بحبرنا ، ووقع عليه القصاص الذى كنا نستحقه .

وحين نتأمل أولا فى نصيب الإنسان بصفة عامة ، ثم فى الناحية الواحدة التى كان اختبار المسيح فيها فريدا ، وأخيرا نطبق معنى الإصحاح على اختبارنا الشخصى ، يتبين لنا عندئذ فكر النبى بكل وضوح .

(١) نصيب الإنسان بصفة عامة

إنه يلخص فى ثلاث كلمات : الآلام ، الخطية ، الموت .

١- الآلام :

الطبيعة جميلة ، ولكن أبهج مناظرها لا توارى الآلام التى تسود البر والبحر . ففى الغابات ، التى تكتظ بأجمل الزهور ، تستطيع أن تستمع إلى صراخ الحيوانات الصغيرة تفتك بها أعداؤها . ومن السماء الصافية يهبط النسر على المراعى لاختطاف فريسته . وفى البحار يجاهد صغار السمك ليهرب لحياته من كباره . وإن كانت الطبيعة تئن وتمخض ، فالحياة البشرية أكثر منها أنينا وألما .

إن البنات والأولاد الذين يضحكون اليوم ويمرحون ، سوف تتحطم قواهم غدا حينما ينحنون بجانب أسرّة أطفالهم فى مرضهم الشديد . بل سوف يئنون بعد برهة وجيزة تحت ثقل الآلام التى هى نصيب محتم لكل بشر . إنك لن تعبر طريقا دون أن تسمع صراخ الأطفال . ولن تزور بيتا دون أن تلتقى فيه بالأنين . كل إنسان لا بد أن يجد أمامه - إن عاجلا أو آجلا - صراعا عنيفا ضد ذلك العدو العنيد اللدود الذى ينشب أظفاره فى قلوب الجميع ، ألا وهو الآلام والأحزان الشديدة جدا حتى الموت . استمع إلى ما قاله حكيم الشرق قبل أن يبدأ صراع العصر الحديث بأجيال طويلة « الإنسان مولود للمشقة كما أن الجوارح لارتفاع الجناح » (أيوب ٥ : ٧) .

٢- الخطية :

كلنا يعرف هذا أيضا ، كلنا يعرف الإحساس بالخطية ، عدم توافقنا مع الله والابتعاد والانفصال عنه . وراء كل آلامنا نحس أن هنالك سرا ، وأن هذا السر يعزى للخطية بأى حال من الأحوال . لقد عوجنا المستقيم وازدرينا به . لقد فعلنا أمورا كان يجب أن لا نفعلها ، وأهملنا أمورا كان يجب أن نفعلها . يحاول البشر أن يتخلصوا من هذا الشعور بالخطية . . من أجل هذا ينغمسون فى المشاغل الكثيرة ، يسافرون من مملكة لأخرى ، يرتحلون بعيدا فى سبيل المخاطرة وحب التغيير المستمر ، ينغمسون فى اللذات العالمية والشهوات الجسدية . والواقع أنهم على الدوام يحاولون أن يتجنبوا رقابة الضمير الدقيقة . ويتلمسون أى عذر يسكنه ولو برهة وجيزة ، ولكنه يعود مرة وأخرى . فإن ناثان يقف فى وجهنا صارخا بصوته الداوى « أنت هو الرجل » . وصوت الضمير يتعقبنا مرددا نفس القول .

هذا الشعور بالخطية هو الذى ملأ العالم بالمذابح والهياكل والكنائس . حيث وُجد الإنسان وُجدت الشعائر الدينية على اختلاف أنواعها لمحاولة التخلص من الشعور بالخطية المستعد بأن يقدم ربوات أنهار زيت ، ويعطى البكر عن المعصية ، وثمرة الجسد عن خطية النفس ، لتسكين غضب الضمير وثورته (ميخا ٦ : ٧) .

٣- الموت :

يحس ضمير الإنسان على الدوام بأن بين الخطية والموت علاقة لا تنفصم . وقبل أن يكتب الرسول بولس رسالته إلى أهل رومية ، تأكد سابقوه من اختباراتهم ومشاهداتهم أن « الموت اجتاز إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢) . من أجل هذا السبب فإننا لن ننجو من الموت . أطلق عليه ما شئت من التعبيرات الملطفة ، سمه انتقالا ، أو قنطرة ، أو خروجا ، تحدث عن النصرة التى أتمها المسيح حينما أبطل الموت وأنار الحياة والخلود - ورغم كل ذلك فلن تستطيع أن تنتزع من الموت فكرة الخطية ، إلا من ذاك الذى تجرد منها ، « يوم تأكل منها موتا تموت » .

هذه هى العوامل الثلاثة الحتمية فى الحياة البشرية .

(٢) الاستثناء الفريد الذى يقدمه لنا هذا الإصحاح

يقدم لنا عبد الرب استثناء جوهريا لنصيب الإنسان ، ليس فى آلامه ، لأنه كان « رجل أوجاع ومختبر الحزن » ، ولا فى موته ، بل فى براءته التامة وصلاحه المطلق . « إنه لم يعمل ظلما ولم يكن فى فمه غش » (ع ٩) .

لنتأمل فى هذه الحقيقة . وفى النتيجة التى تستخلص منها . فى هذا الأصحاح نجد الحزن مجسما ، كما نجده فى كل العالم . فالجبين المخضب بالدماء يدل على الألم دلالة واضحة . لأن تيار الألم انسكب فى قلب الحبيب حتى فاض الكأس . محتقر ومخذول ، مجروح ومسحوق ، سيق إلى الذبح وقطع من أرض الأحياء . وسط التحقير والتشهير والقسوة ، جاز الرب كل اختبار أليم ، وشرب كل كأس حتى الثمالة ، واختبر كل صنوف الضيق والألم .

فى حالة موت المسيح كانت استنتاجات البشر العاجلة خاطئة . إننا نحول النظر عادة عن الآلام للبحث عن أسبابها فى أى تعد خبىء أو بعيد . « من أخطأ ، هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ » . ما أكثر الآلام التى حلت بسبب تطبيق هذه القاعدة بلا تمييز . كم من عشرات الألوف من البشر - كأيوب - قد انسحقوا تحت الآلام ، لأن البعض أمسكوا سكين الفحص والاختبار بلا رحمة ، وصاروا يفحصون فى مكنونات حياتهم لاكتشاف الأخطاء التى فيهم والتى من أجلها حلت بهم البلايا . أما هؤلاء المتألمين المساكين فإنهم يوعز إليهم بأنهم ربما ارتكبوا سهوا ضد الله كلى القداسة بعض الأخطاء التى لا يمكن التكفير عنها إلا بالتأديب الشديد .

وفى حالة الرب يسوع المسيح كان هذا الاستنتاج عن آلامه الفريدة خاطئا . فقد فُحصت حياته بكل دقة ، لعله يوجد فيها أى ذنب يبرر الحكم عليه بالموت . ثم إن يهوذا الخائن كان يرهف سمعه لأقدس أحاديثه مع تلاميذه ، لعله يجد مبررا لتصرفه الدنىء . ولكن كل هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح ، فإن بيلاطس وهيرودس أعلنا براءته التامة . وأخيرا نجد الرب ، الذى كان أكثر البشر وداعة وتواضعا ، يكشف حياته إلى العالم ، متحديا إياه وهو واثق أنه لن يلقى من يقف فى وجهه : « من منكم يبكتنى على خطية ؟ » .

إذن ، فلا بد أن يكون هنالك تعليل آخر لآلام المخلص الذى لم يوجد فى حياته أى غش أو شر أو شبه شر . هذا التعليل متوار وراءه نظام ذبائح الناموس التى كانت ظلا لتقديم جسد الرب يسوع المسيح عن الجميع مرة واحدة . ظلت ربوات من الذبائح البريئة سنوات متواليات تُقدم حياتها بصفة دائمة ، تُسفك دمائها بلا ذنب جنته بل بسبب خطايا الذين أتوا بها إلى مذبح الله . كان واضحا لأبسط العقول - حتى بدون الرجوع إلى رسالة العبرانيين التى كشفت النقاب عن هذه الحقيقة - أن آلامها تعزى إلى خطايا ليس لها فيها نصيب ؛ وهذه كانت ترمز إلى ذبيحة الجلجثة الفريدة : « ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨) .

ألا يتألم الوالد من أجل ابنه حين يكاد يجرد نفسه من ثروته لتسديد ديونه التى استدانها بسبب معيشته المبذرة ؟ ألا يتألم الطبيب من أجل خطايا الآخرين حين يبذل الجهود المضنية لإنقاذ مريض من براثن المرض الذى جلبه على نفسه بكسر أبسط النواميس الصحية ؟ ألم يهلك الألوف بسبب محاولتهم إنقاذ غيرهم من النار والمياه ؟ كل هذه أمثلة توضح لنا - ولو بصورة باهتة جدا - كيف أن المخلص ، الذى كان بلا خطية ، سكب للموت نفسه .

وهكذا - بإرشاد إلهى - انتقل البشر من الاستنتاجات الخاطئة المبينة فى الآية الرابعة إلى الاستنتاجات الصحيحة المفصلة فى الآية الخامسة . فبدلا من أنهم كانوا يحسبون المسيح « مصابا مضروبا من الله ومذلولا » أتوا أخيرا إلى ضوء هذه الحقيقة « وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه ، وبحبره شفينا » ، ومات لأجل خطايانا ، وهو حمل الله الذى يرفع خطايا العالم ، وأن موته كان اختياريا إذ قدم نفسه من أجل عالم خاطئ . هذه الاستنتاجات التى يقدمها لنا الوحى هنا ، كإقرار من ضمائر البشر ، بعد إنعام النظر فى الحقائق على ضوء التاريخ ، تؤيدها الشهادات الكثيرة المدونة لنا فى العهد الجديد « لأنه جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا » (٢ كو ٥ : ٢١) ، « ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحيوة » (رو ٥ : ١٨) .

هذا هو الاستثناء العظيم الذى ألقى ضوءا جديدا على سر الآلام والأحزان . قد تكون هنالك آلام أخرى نيابية - بشكل مصغر جدا وفى دائرة أضيق - تتمم مقاصد الله فى حياة الآخرين ، ولو أنه لن يوجد متألم خال من الخطية كما فعل المسيح . لن يستطيع الإنسان أن يفدى نفس أخيه الإنسان .

(٣) تطبيق هذه الحقائق شخصيا

« جعل نفسه ذبيحة إثم » . يتكرر هذا التعبير « ذبيحة إثم » فى سفر التثنية . إذا أخطأ أحد فى أقداس الرب ، فكان يُطلب منه أن يختار كبشا صحيحا [بلا لوم] من

غنمه ، ويقدمه « كذبيحة إثم » . وهذا هو نفس التعبير المستعمل هنا . كان يعوض عن إثمه بدفع مبلغ من المال ، أما التكفير عنه فكان يتم عن طريق تقديم الكبش « يعوض عما أخطأ به من القدس ويزيد عليه خمسه ويدفعه إلى الكاهن فيكفر الكاهن عنه بكبش الإثم فيصفح عنه » (لا ٥ : ١ - ١٦) .

كذلك أيضا إذا أخطأ الإنسان إلى أخيه إما بظلمه واغتصابه ، أو بعدم إيفائه حقوقه ، أو جحده وديعة أو أمانة ، فإنه كان لا يرد لصاحبه حقوقه فقط ويزيد عليها خمسها ، بل كان أيضا « يأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا [بلا لوم] من الغنم فيكفر عنه الكاهن أمام الرب فيصفح عنه » (لا ٦ : ١ - ٧) .

أيوجد بيننا من لم يخطىء فى أقداس الرب ؟ من لم يقصر فى إتمام وصاياه المقدسة ؟ من لم يقصر فى تكريس الوقت والفكر لزيادة التعمق فى شركته ؟ من لم يهدم هيكل النفس ؟ حين تمر هذه بالذاكرة تسد أفواهنا ، إذ نجد أنفسنا مذنبين أمام الرب .

أيوجد بيننا من لم يقصر فى التزامه نحو أخيه ؟ وحتى إذا كنا لم نقصر فى تلك الالتزامات المحددة بالذات التى يذكرها الناموس القديم ، إذا لم تبكتنا ضمائرنا على الظلم والاغتصاب ، وعدم إيفاء حقوق الآخرين ، وعدم رد الأمانة - فقد يكون هنالك تقصير شنيع فى المثل الأعلى للمحبة الكاملة . من اليسير جدا أن ينطق المرء بكلمة تحقير تسلب الآخرين كرامتهم ، أو يصمت حيث كان يجب أن يتكلم للدفاع عمن أسىء إليهم وهم أبرياء ، أو لإظهار حقهم . لقد علمنا موسى بأن هذا لا يعتبر خطية فى حق الإنسان فقط ، بل ضد الله أيضا لأنه بيّن لنا أن المرء يجب أن لا يقتصر على رد الحقوق للآخرين ، بل يجب أيضا أن يكفر عن خطيته أمام الرب . ألم يكن هذا هو الذى دعا داود حين سلبت خطيته جوهرة بيت أوريا الحثى إلى أن يصرخ قائلا : « إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت » ؟

يقينا إننا فى أمس الحاجة لتقديم ذبيحة الإثم . وإن كان اليهودى - بما أعطى إليه من نور ضئيل جدا - قد أحس بشدة حاجته لتقديم هذه الذبيحة ، فكم هو أحرى بنا نحن الذين ندرك أن كل خطية ليست مجرد خطأ بل هى جريمة ، كسر لناموس البر الأبدى ، وتستحق قصاصا محتما ما لم يكفر عنها بتدخل وسيط بيننا وبين الله . إنها لحقيقة رئيسية تحس بها ضمائرنا الداخلية - مهما أسميتها - إن الشعور بالخطية يقودنا إلى محكمة العدل الإلهى ، ويهددنا بأننا لن نغادرها حتى نستوفى الفلس الأخير . عندئذ نتطلع إلى وسيط ، ليس إلى من يدافع عنا فقط أمام المحكمة العليا ، بل إلى من يتدخل ليحول عنا القصاص الذى نستحقه بقبوله إياه نيابة عنا . فى مثل هذا الوقت نجعل نفسه ذبيحة إثم .

عندما ترزح نفسك تحت عبء الخطية إذ تتذكرها ، عندما تعيد الأحزان المروعة إلى ذاكرتك خطايا السنوات السالفة التى كادت تنسى ، ، عندما يسطع نور حق الله على خبايا نفسك ويكشف الخطايا المستترة فيها كاستتار الأشياء الدقيقة فى ظلمة الليل البهيم ، عندما تتملك عليك سقطة شنيعة ، عندما يتوالى الفشل فيجعلك تتوهم بأن الغفران أمر مستحيل - فعندئذ تقدم إلى عرش النعمة حيث يسطع النور [غير المخلوق] من بين الكروبيم ، واجعل نفسه ذبيحة إثم ، لقد سكب نفسه للموت ، فاسكبها أنت للحياة .

إن يسوع على أتم الاستعداد للقائك . لا يوجد حائل بينك وبينه سوى الخطية ، وطريق الأقداس مفتوح ، فادخله ، واجعل نفسه ذبيحة إثم .

إذا فعلت هذا ضمنت السلام . إن الدليل على صحة الإنجيل نجده فى الراحة الكاملة التى تسود النفس إذ تنتفع بالكنوز المخبأة فيه وتتمسك بمبادئه الثابتة القوية . دع أى شخص يؤمن بيسوع ، لا بسيرته ، بل به هو شخصيا ، لا بموته ، بل به شخصيا على أساس أنه مات وقام ثانية ، وللحال يحس فى نفسه بالسلام الذى يفوق كل عقل ، والذى يسود كل كيانه . إن سلام العالم خارجى وسطحى ، أما سلام الله فإنه داخلى ويتغلغل فى كل كيان النفس . إن كنت تروم الحصول على هذا السلام ، فاجعل نفسه ذبيحة إثم .

وهذا السلام يتضمن أمورا أكثر . فالأحزان لا تتبدد ولا تزول عن النفس ، بل تشع منها أنوار ، والآلام تتحملها النفس بعزيمة جديدة وروح جديدة ، والضيق ترحب به واثقة أنه سوف تكون له ثماره الحلوة بأية طريقة وفى أية ناحية ، والموت لا يعود مزعجا حينما نتأمل فيه . وهكذا انبعثت من أحلك الأيام التى شهدها العالم أشعة رجاء وفرح هما عربون ذلك العالم الذى لا أثر فيه لليل أو الأحزان أو الصراخ أو التنهدات أو الموت ، حيث يمسح الله كل دمعة من كل وجه ، ويزيح كل الهموم عن كل الشعوب .

وهذا اليوم الذى كان أحلك الأيام فى حياة الرب على الأرض ؛ قد أنتج محصولا وفيرا من المسرة لا ينضب . لأنه كلما تقدمت نفس جديدة لتجعله ذبيحة إثم ، وكلما تقدم الأفراد والعوالم لينهلوا من ينابيع دموعه ودمائه ، فإنه « يرى نسلا » روحيا ، يرى حياته تتضاعف ، يرى أن عملية الفداء [التى هى « مسرة الرب »] « بيده تنجح » .

- ٢٢ -

شبع المسيا

إشعياء ٥٣ : ١١ [١]

سوف يحكم من أقاصى الأرض إلى أقاصيها
ولا يكون لملكه حد محدود
سوف يحكم حتى تطوى السموات
ومتى جاءت النهاية
يبطل آخر عدو للإنسان
هلليلويا . المسيح هو الله
والله هو المسيح
هو الكل فى الكل

(مونتجومرى)

« يشبع » . قليلون جدا هم الذين يستطيعون أن ينطقوا بهذه الكلمة فى هذا العالم . لا يستطيع أن ينطق بها متسلق جبال الألب طالما يجد أنه لا تزال هناك قمم عالية لم يصل إليها ، ولا الظافر المنتصر الذى انتصر على كل العالم ، لأنه يبكى إذ لا يجد عوالم أخرى يغزوها ، ولا الفيلسوف ولو استطاع أن يكتشف مخبئات الطبيعة ، ويزيح الستار عن نظامها القديم ، لأن دائرة نوره لا تمتد إلا إلى حافة الظلمات المجهولة . ولا المؤمن نفسه طالما كان هذا هو لسان حاله : « ليس أنى قد نلت أو قد صرت كاملا » . أما المسيح فإنه « يشبع » ، وهو الآن فعلا يشرب جرعات كبيرة من السرور الموضوع أمامه ، إذ احتمل الصليب مستهينا بخزيه (عب ١٢ : ٢) .

---

(١) « من تعب نفسه يرى ويشبع . وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها » .

ليس هنالك شبع لمن قد ركزوا تفكيرهم فى ذواتهم . أما المسيح فإنه بعد أن سكب نفسه لبركة الآخرين أحس بالشبع الكامل . إذن فقد كان لإشعياء كل الحق فى التحدث عن شبع المسيح أثناء الحديث عن تضحية ذاته حتى الموت . ومهما كان نوع السرور الذى كان له مع الآب قبل خلق العالم ، فإنه لا يوازى شيئا بجانب السرور الذى يفيض فى قلبه حين يرى نتيجة متاعب الجلجثة .

ويمكن أن نلخص هذه الحقيقة فى أربع عبارات :

١- لا يوجد شبع بعيدا عن المحبة ،
٢- ولن توجد محبة للنفوس المتعبة الخاطئة بدون تعب ،
٣- ولن يوجد تعب دون أن يعوَّض بالسرور ،
٤- وبقدر ما يكون التعب بما فيه من آلام ومرارة تكون البركة كنتيجة له .

(١) تعب نفس المسيح

لقد تألم لأن قلبه ذاب عطفا على آلام البشرية التى سببتها الخطية . لعله رأى ما لا نراه نحن أن الضعفاء منسحقين تحت ظلم الأقوياء ، والمساكين يفترسهم المتجبرون بلا رحمة ولا شفقة ، والأمهات يندبن أولادهن الذين انتُزِعوا من أحضانهن . لقد سمع أنين العالم الحزين الذى يختلط فيه معا صراخ الأطفال الصغار ، وأنين الأمهات ، وعويل الرجال الأقوياء الذين يصارعون الأسد الزائر حولهم . لقد أنّ بسبب متاعب الصم والبكم ، وتحنن على البرص ، وبكى على القبر . ولا بد أن يكون هذا العالم قد فعل فى قلبه الرقيق فعل الشوك للأقدام العارية .

ولا شك فى أنه تألم أيضا آلاما شديدة بسبب عناد من أراد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم يريدوا . أكان هنالك اسم محقر لم يلصقوه به ، أو إهانة لم يكدسوها فوق رأسه ، أو حقد لم يمتلىء به قلب خاصته الذين جاء إليهم ، والذين قابلوا المحبة بالبغض الذى كان يحمل فى طياته سموم جهنم ، كما كانت محبته تحمل أريج الفردوس .

على أن عناصر الألم هذه جميعها لا تقاس بشيء بجانب الحزن البالغ الذى كابده إذ صار ذبيحة إثم البشرية . فى آية تالية نقرأ هذه العبارة « سكب للموت نفسه » . كان عملا اختياريا ذلك الذى رفعته إليه المحبة اللانهائية التى جعلت نفسه ذبيحة إثم .

وماذا كابد المسيح فوق الصليب ؟ لعل الآلام الجسدية التى برحت بجسده الطاهر لم يحس بها وسط آلام الحَبر التى بها شفينا . لقد جُرح ، ليس فى جسده الرقيق فحسب ، بل أيضا فى قلبه الذى يفيض محبة ، لقد سُحق بين شقّى رحى عدل الله وأمانته هو للحق . لقد ضُرب ، لأنه قبل على نفسه عقوبة إثم البشرية . لقد وقف أمام المسكونة متهما بخطايا الجنس البشرى وحاملا نتائجها . لقد ذاق الموت عن كل إنسان . لقد حمل الخطية ، وعارها ، وآلامها ، وقصاصها ، حتى صرخ للآب : « لماذا تركتنى » . فى هذا العمل الذى أتمه فوق الصليب أبطل الخطية ، ووَفّى قصاصها ، ومسح إثمها ، ووضع أساس فداء يشمل كل الجنس البشرى .

لم يكن ممكنا أن يحصل غير هذا . لم يكن ممكنا أن يحبنا إلى المنتهى دون أن يتحد معنا فى ذلك الميراث الأليم الذى ورثناه من أبينا الأول . وإذ صار ابن الإنسان ، لم يكن ممكنا إلا أن يشترك فى الحكم الذى صار من نصيب الجنس البشرى وإن كان هو نفسه بلا خطية . كان يجب أن يتألم معنا ومن أجلنا . وكان يجب أن يموت معنا ومن أجلنا . وكان يجب أن يوفى مطالب كسر الناموس معنا ومن أجلنا ، ويوفيها أبديا .

أتحب المسيح ؟ إن أول واجب يحملك إياه هو أن تحب الآخرين . هو يخبرك بأنه لن توجد محبة خالصة نحوه إلا إذا امتدت لمحبة من أحبهم هو . إن نفس العواطف البشرية التى تملأ قلوبنا من نحو الله ، يجب أن تمتد نحو الجميع . وإن كنت تحب محبة صادقة ، فإنك أنت أيضا تنال جزاءك من التعب والمشقة ، يجب أن تخرج أيضا خارج المحلة حاملا عاره . لا يمكنك أن تحب الآخرين دون أن تتألم معهم ومن أجلهم ، لا إلى الدرجة التى تحملها المسيح بل حسب طاقتك . لا تستغرب البلوى المحرقة إذا حدثت ، بل افرح لأنك دعيت لتكون شريكا لآلام المسيح ، لكى تفرح فرحا لا يُنطق به ومجيد عند استعلان مجده .

(٢) يقينية الجزاء اللانهائى

« يرى » . من المستحيل أن تتألم اختياريا من أجل الآخرين دون أن تفيدهم بأية طريقة من الطرق . طبيعى أنه توجد فى الحياة آلام تأديبية ، شديدة ، كالآلام التى تحل نتيجة الكبرياء الذى يثور ضد ناموس القدير ، والذى يهدر كالبحر إذ يرغى ويزبد ويتخبط على الصخر . وآلام من يتمردون على وصايا الله وأحكامه . وآلام من يرزحون تحت النكبات التى سببوها لأنفسهم .

هنالك آلام أخرى شافية بل واهبة للحياة : كآلام الأم عند ولادة الطفل . وآلام المرأة إذ ترفض أن تتخلى عن الضال سواء كان ابنها أو زوجها أو أخيها ، بل وتشترك فى عاره ، وترزح تحت نتائج عصيانه المتكرر ، وأخيرا تربحه لله بدموعها وصلواتها وتضحياتها . وآلام الطبيعة التى تئن وتتمخض معا لاستعلان السموات الجديدة والأرض الجديدة . وآلام المخلص الذى يهب الحياة والخلاص لربوات النفوس التى تولد ثانية فى الملكوت . وآلام الروح القدس الذى يشفع فى القديسين بأنات لا ينطق بها ، ويهيىء كنيسة الأبكار . وآلام أولاد الله الذين يئنون فى أنفسهم متوقعين التبنى فداء أجسادهم .

إن الأرض مليئة بكل أنواع الألم . على أن الآلام الأولى يختص بها آدم الأول ، والآلام الأخرى يختص بها آدم الثانى . الأولى تختص بعهد قضى عليه بالزوال ، والثانية تتصل بعصر أبهج نورا من أى نور رأته عين بشرية أو خطر على قلب إنسان .

ويل لك أيها الإنسان إن كنت لا تعرف شيئا عن هذا التعب المقدس ، إن كنت لم تدرك قط معنى الآلام من أجل نفوس الآخرين ، إن قلبك لم ينفطر بالصراخ الشديد والدموع المنهمرة ، إن كنت لم تدرك كيف تكون الرغبة فى أن يكون المرء محروما من المسيح فى سبيل خلاص إخوته وأنسبائه حسب الجسد .

ولكن طوبى لك إن كنت تعرف كل ذلك . قد يبدو بعض الأحيان أن آلامك عديمة الجدوى ، قد يبدو بأن الآلام التى تمزق أحشاءك من أجل نفوس الآخرين غير مثمرة . ولكن ذلك وهم باطل . فإن دموعك إذ تتساقط نقطة فنقطة فلا بد أن ترجح كفة الميزان . والصبر

لا بد أن يعمل عمله التام . وناموس الزرع والحصاد فى دائرة الطبيعة ينطبق تمام الانطباق على دائرة الحياة الروحية ، والله يضمن النتيجة ، فهو أمين . « الذاهب ذهابا بالبكاء حاملا مبذر الزرع مجيئا يجيء بالترنم حاملا حزمه » ، « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج » (مز ١٢٦ : ٥ و ٦) . وفى الأبدية السعيدة - إن لم يكن قبلها - سوف تجد نتيجة مجيدة لكل دمعة ، وأنّة ، وألم ، وصلاة .

(٣) طبيعة جزاء المسيح

سوف يتم ذلك الجزاء :

١- فى المجد الذى يوجه نحو الآب :

كان القصد للأقنوم الثانى فى الثالوث الأقدس أن يعلن طبيعة ومجد الأقنوم الأول لكى تحبه كل الكائنات العاقلة المقدسة . هذا ما فعله فى الخليقة ، فى إدارة كل العوالم ، ولكن فوق كل شىء فى صليبه . هنالك نرى البر والسلام يتلاثمان ، الحكمة التى شقت طريقا للخلاص تتوافق مع مطالب الناموس الأدبى ، الأمانة التى تممت - فى ملء الزمان - الوعد الأول ، بل ترى فوق كل شىء محبة الله . نحو الجلجثة تتجه أنظار جميع الكائنات لكى تكتشف فكرة جديدة عن صفات الله . وكلما مرت الأجيال ، وتكشفت عجائب جديدة فى الصليب ، رأى المسيح من تعب نفسه .

٢- فى فداء ربوات البشر الذين لا حصر لهم :

مهما كان حصاد الخطيئة عظيما ، فإننا نؤمن بأن المخَلّصين سوف يزيد عددهم كثيرا عن عدد الهالكين . ولن يُشبع المسيح غير هذا . أذكر بأنه فى العصر المسيحى الأول ، قبل أن يُذكر شىء عن انتصارات الإنجيل الأخيرة ، رأى يوحنا فى السماء جمعا كثيرا لم يستطع أحد أن يعده (رؤ ٧ : ٩) . ليست هذه سوى باكورة الحصاد ، فليتقدم من شاء

وليحصد الحصاد الكامل . فالشهداء تكتظ بهم السماء ، والجنود المجهولون الذين لم تدرج أسماؤهم ضمن عضوية أية كنيسة ، والأطفال الذين يحتضنهم المسيح ، والأتقياء فى كل أمة [مثل كرنيليوس] الذين نالوا الخلاص بموت ذلك الذى لم يسمعوا عنه من قبل ، وربوات الذين سوف ينضمون بعد إلى نهاية العالم - هؤلاء جميعا بمثابة جداول تملأ نهر المفديين حتى الفيضان . وإذ يتطلع المسيح إليهم « يرى من تعب نفسه ويشبع » .

٣- فى صفات المفديين :

إنه سوف يحضرهم لنفسه لا دنس فيهم ولا غضن أو شىء من مثل ذلك (أف ٥ : ٢٧) . وسوف يحضرهم لأبيه بلا عيب فى الابتهاج (يه ٢٤) ، زالت من طبيعتهم كل آثار الشيطان ، واكتملت فيهم صورة الآب . أتظن بأن المسيح حين يحضر لنفسه عروسه المجيدة ، التى اشتراها بدمه ، وقدسها بروحه ، مزينة بملابس زفافها - لا يرى من تعب نفسه ويشبع ؟

٤- وفى إبادة أعمال الشيطان :

إن ما يتضمنه الوعد الجليل بأنه سوف يبيد أعمال الشيطان لم يستعلن بعد . ولكننا سوف نراه مكملا فى الوقت المعين . سوف تتبدد كل الحجب ، وتنقشع كل السحب ، التى تحجب عن أعيننا رؤيته . سوف نرى ما يقصده الله . سوف نرى بأن اللعنة قد فارقت الطبيعة ، وأن النعمة قد ازدادت جدا حيث ملكت الخطية والموت ، وأن الإنسان قد ازداد اقترابا من الله أكثر مما لو كان قد بقى فى الفردوس دون السقوط ، وأن ممالك هذا العالم وكل العوالم الأخرى قد صارت للرب ولمسيحه .

سوف يرى المسيح من تعب نفسه ويشبع حين يسمع أصوات التسبيح تتصاعد من أفواه الملايين ، كأصوات الظفر التى تصاعدت من أفواه إسرائيل عند تحررهم من العبودية . وحين تردد الجوقات الملائكية نغماتها الشجية حول العرش . وحين تتناثر الأرواح الشريرة على شاطئ البحر البللورى الممزوج بالنار .

(٤) عظمة تلك النتائج

١- إنها لا بد أن تكون متناسبة مع مجد طبيعته :

ليس عسيرا إشباع طفل صغير ، على الأقل وقتيا . فالمعلومات الناقصة تسكت حب الاستطلاع فيه ، واللعب البسيطة تشبع هواه . ولكنه كلما اتسع أفق طبيعته تعذر إشباعه .

على أنه مما لا شك فيه أن الفرق بين طاقة الملاك وطاقة الإنسان أعظم من الفرق بين طاقة الرجل وطاقة الطفل . فإن كان الرجل يحتاج لإشباعه أكثر مما يحتاجه الطفل ، فكم يكون احتياج الملاك أعظم جدا . إن القوة التى يتنازع البشر من أجلها ليست إلا أمرا تافها أمام الملائكة الذين أعطى إليهم السلطان لضبط حركة الرياح وإدارة كل العوالم . والمعرفة التى يعتبرها البشر عجيبة ليست إلا لغو أطفال أمام الملائكة .

فيا لها من قوة لا تُحَد وحكمة لا توصف ينبغى تكدسها قبل أن ينطق الملاك بهذه الكلمة : كفى فقد شبعت . ولكن مهما كان الملاك عظيما فإن طاقته محدودة . إذن ، فأى مقياس لتلك البركة ، لمحصول النفوس ، لنتيجة تعب نفسه ، يستطيع أن يشبع الفادى ؟ إن طبيعته متسعة جدا فلا يشبعها أقل من نسل كنجوم السماء والرمل الذى على شاطئ البحر . إن عدم محدودية نتائج الفداء لا يدركه إلا الذين يدركون عدم محدودية طبيعة الفادى .

٢- ولا بد أن تتناسب مع عمق آلامه :

إن نتائج عمل الله تتناسب على الدوام مع القوة التى تخرج منه . لا تظن بأن الله يبذل مجهودا قويا دون أن يعلم من قبل أن هذا المجهود منتج . فإذا مد يمينه لأى عمل ، فلأنه يعلم أنه لا بد أن يتم ، وأن النتيجة لا بد عظيمة . لذلك إن رأينا أن ابن الله قد أخلى نفسه ، وتواضع حتى يولد فى بيت لحم ، وقَبِلَ آلام الجلجثة ، وموت الصليب ، فلا بد أن نعلم بأن الغنائم التى تقع من نصيبه ، والتى يقسمها على العظماء ، لا يمكن إلا أن تكون عظيمة جدا .

« يشبع » . سوف نسمع صوت الرضا والاكتفاء والشبع ، سوف نرى على وجهه علائم الظفر والارتياح . سوف نشهد تسليم الملك إلى الله الآب . سوف نرى شبعه إذ يقضى على سر الإثم . وإذا شبع المسيح فلا بد أن نشبع نحن أيضا . فلنثق فى هذا ، ونجد فيه راحتنا . وحينما تكاد نفوسنا أن تفشل بسبب شدة المتاعب والمخاطر ، ودموع الدماء ، والآلام المروعة ، التى جرتها الخطية على الكون ، فلنثق بأن كل شىء سوف ينتهى نهاية طيبة ، وأننا سوف نرتشف من شبع الرب حينما نرى من تعب نفسه ونشبع .

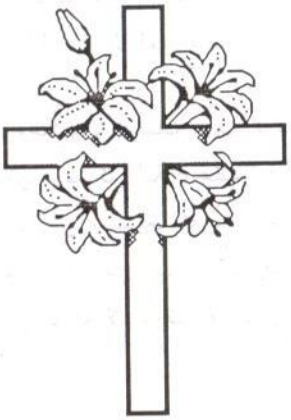

- ٢٣ -

عظمة حامل الخطية

إشعياء ٥٣ : ١٢ [١]

يجب أن لا نطيل النظر إلى السماء
ولو كانت مفتوحة أمام أعيننا
ولو كنا نرى المسيح صاعدا إليها
حيث يتوارى خلف أجواق الملائكة
فإننا سوف نرى شمس البر مرة أخرى سريعا
يرسل أشعة مخترقة السحب
فيبدد من قلوبنا كل خوف
بل يبعث فى نفوسنا الحياة

(كبل)

من المستحيل أن نخطئ إدراك شخصية المتكلم العظيمة حين يتحدث [بصيغة المتكلم] قائلا : « أقسم » ، فهذا هو صوت الله نفسه ، وقد لاق به ، وقد قدم عبده فى مستهل هذا الفصل الرائع [هوذا عبدى] أن يعلن رأيه عن حياته فى هذه الكلمات الختامية . لقد لاحظنا عند تحليل الأصحاح كيف أن رأى الجماعة ، الذين يتحدث النبى بلسانهم قائلا : « نحن » ، قد انتقل إلى أوجه النظر المختلفة - من العداوة إلى الانتقاد إلى الإشفاق - قبل أن يستقر إلى التوبة والإيمان . وبهذه المناسبة نقرر أن هذا تصوير

(١) « لذلك أقسم له بين الأعزاء . ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه ، وأحصى مع أثمة . وهو حمل خطية كثيرين وشفع فى المذنبين » .

حقيقى لوجهة نظر العالم بصفة عامة نحو يسوع الناصرى الذى حقق هذا المثل الأعلى الفريد . ويقينا أن الكلمات موضوع تأملنا الآن تعلن مقدما قرار الله حين يقضى إلى الأبد على سر الإثم والآلام ، وحين يسرع الزمن إلى يومه الأخير .

وهنا يتنبأ النبى نبوتين واضحتين عن حامل الخطية . الأولى أنه يجب أن يكون عظيما . والثانية أنه يجب أن يحتل مركزه الممتاز ، لا كمبدع دائرة تفكير جديد ، ولا كقائد نهضة اجتماعية ، ولا كقديس منقطع النظير فى قداسته ، بل كمتألم .

هذا ما يجب أن نلاحظه بدقة : وهو أن الآب القدير يقسم له بين الأعزاء ، ويجعله يقسم مع العظماء غنيمة « من أجل أنه سكب للموت نفسه » [وهذا تعبير يدل على أن الآلام اختيارية] ، ومن أجل أنه سمح لنفسه بأن يحصى مع أثمة ، لا كأمر طبيعى ، بل إشفاقا منه عليهم صار واحدا بينهم ، ومن أجل أنه شفع فى المذنبين ، إذ وقف بجانبهم ودافع عن قضيتهم .

نحن لا نتأمل هنا فى المجد الذى كان له مع الآب قبل إنشاء العالم . فإنه أخلى نفسه من هذا حين أطاع حتى الموت ، موت الصليب . ومع أنه مكلل بهذا المجد الآن ، إلا أن العظمة التى نالها بالموت ليست فقط أعظم مما نتصوره ، بل يجب أن تكون أعظم ما نهتم به .

(١) العظمة التى نالها المسيح نتيجة لطاعته حتى الموت

كان لائقا أن يمنح مثل هذا الجزاء من أجل خاطر أولئك الذين سوف يسلكون فى إثر خطوات سيدهم فيما بعد .هنا نرى ذاك الذى لم ينحرف قيد شعرة عن طريق الطاعة الضيق ، الذى مجدت حياته صفات الله وعظمتها . فلو كان قد بيّن أن هذه القداسة المنقطعة النظير كانت غير مجدية ، وأن الله لم يحفل بها قط ، بل سمح أن يضطجع عبده الأمين فى قبر مجهول ، ألا يكون هذا عثرة لنفوس الغيورين الأتقياء الذين يحتذون مثاله ، ويدفعهم إلى الاعتقاد بأن مصلحة الله لا تتفق مع مصلحة الإنسان ؟ لا يمكن قطعا أن يوجد شخص يستحق جزاء أعظم أو أفضل مما يستحقه المسيح . ولو كان هو لم ينل جزاءه

أما كان يخطر ببال البشر أن السماء لا تعطى جزاء عن الخدمات المخلصة الأمينة ؟ يقينا أنه كان يجب أن ينال جزاء ، وإلا حُكم على نظام الكون بأنه مقلوب الأوضاع .

ولكن أى جزاء كان يجب أن يناله ؟ أى جزاء يمكن أن يعوض عن ترك أمجاد السماء ، وأخذ طبيعتنا ، واجتيازه أدوار التجربة والأحزان والآلام ، وطاعته حتى الموت ، موت الصليب ؟ كل العوالم كانت ولا زالت ملكا له ، وكل الكائنات المقدسة اعترفت ولا زالت تعترف به خالقا وإلها ، كل دوائر الفكر والحركة والقوة والسلطان كانت ولا زالت ترسل له أجزل التسبيح والحمد والثناء . فأى جزاء كان يمكن أن يطلب أو ينال ؟

إن الجواب على هذا السؤال يمكن أن نجده حين نذكر مقدار السعادة التى نحس بها عندما ندخل السعادة على الآخرين ، ومقدار الفرح الذى نشعر به عندما ندخل الفرح إلى قلوب الآخرين ، فإن إسعاد الآخرين ، وتخليص نفوسهم وإغاثتهم تملأ قلوبنا غبطة لا تحد . على أن قوتنا محدودة ، وكذلك أيضا طاقتنا . فإننا لا نستطيع أن نفعل كل ما نريد . وعلى أى حال فإنك إن استطعت أن تزيل تلك المحدودية التى تفترضها طبيعتنا القابلة للفناء ، وظروفنا ، وإذا أتيح لنا أن نحقق إلى التمام كل ما تتوق إليه نفوسنا فى أقدس الساعات ، وإذا أمكن أن تكون رغبتنا فى مساعدة الآخرين مصحوبة بالعطف الذى لا يجرح أرق إحساس ، والحكمة التى لن تخطىء قط ، والقوة التى لا تضعف ، فعندئذ نرتشف للحال من منهل السعادة ونشبع كيسوع .

هذه هى سعادة يسوع ، وهذا هو الجزاء الذى منحه إياه الآب : لقد أعطى إليه كل سلطان فى السماء وعلى الأرض ، لأنه هو ابن الإنسان ويستطيع أن يستخدمه لخير أولئك الذين جعلهم إخوته بتنازله العجيب . وارتفع إلى يمين الآب لكى يظهر بالنار الأمة التى رفضته وصلبته بإعطائها التوبة ومغفرة الخطايا . والله أعطاه اسما [اسم يسوع المخلص] فوق كل اسم ، لكى فيه وبه تجثو كل ركبة ، ويعترف كل لسان ، أنه رب المجد الآب (فى ٢ : ٩ - ١١) . وكل من يتقدمون الآن إليه يخلصهم إلى التمام (عب ٧ : ٢٥) . وكل من يسلمون حياتهم له يُنقَذون من سلطان الظلمة ويُنقَلون إلى ملكوت محبة الله (كو ١ : ١٣) .

يا له من جزاء جليل ، وكل الذين يسلكون فى خطواته لا بد من أن ينالوا الجزاء الجليل . وعلى قدر ما نتشبه به فى تضحياته ، نماثله فى جزائه . وعلى قدر ما نشرب الكأس التى شربها ، ونصطبغ بالصبغة التى اصطبغها ، على قدر ما نكون أعوانا له فى عمل الخلاص فى حدود طاقتنا البشرية . هذا هو ما قصده عند التحدث عن جلوسنا معه على عرشه .

سل بولس لماذا كان يحاول دواما أن يقمع جسده ويستعبده ، ويسمح بأن يُضرب بالسياط ؟ لماذا حرم نفسه من متعات شرعية كثيرة ؟ لماذا كان لا يتناول من الطعام إلا الكفاف ؟ لماذا عاش حياة إنكار الذات لأقصى حدودها ؟ يجيبك بأن ذلك لرغبته الشديدة فى أن لا يخسر الجعالة بعد أن كرز عن شروط الجهاد من أجل الآخرين . وإذا تقدمت خطوة أخرى وسألت عما كانت تتضمنه هذه الجعالة ، أجابك بكل وقار إن سحرها وجاذبيتها وقيمتها بالنسبة إليه تتضمن فى القوة العظمى التى تمنحها لخلاص الآخرين (١ كو ٩ : ٢٠ - ٢٧) .

هذه هى جعالة السماء الأسمى : إن كل من يسكبون أنفسهم للموت ينالون فرصا عظمى وإمكانيات أسمى للخدمة ، ومما هو واضح جدا أنهم لا يسيئون استعمالها لضرر أنفسهم ، وواضح أيضا أن استخدام هذه الامتيازات يضمن أعمق البركات لمن يستخدمونها .

(٢) العظمة التى أضفاها موت المسيح وجعلته بين العظماء

إنه مستحق أن يأخذ سفر نصيب البشر العجيب ويفك ختومه بسبب النور الذى سلطه على أسرار الظلمة العجيبة التى هى من نصيب كل منا .

١- الألم :

إنه مع الأسف الشديد موجود فى كل مكان كما رأينا سابقا . وهو سوف يدركنا إن آجلا أو عاجلا ، وحينما ينشب أظفاره فينا نجد الميل فى داخلنا لاتهام أنفسنا أو للتشكك فى الله . هذا هو الصراخ الذى ينساب من بين أفواهنا لأول وهلة : هل أتيت لتذكير إثمى

والانتقام من خطايا صبای ؟ وهذا هو صراخنا التالی : الله ظالم أو لا يبالی ، وإلا لما سمح أن تحل بأحد أولاده الأبرياء هذه الآلام ، لا عدل فی إدارته للعالم ، سوف أباركه وأموت .

على أن المسيح علمنا أنه توجد طريقة ثالثة لننظر بها إلى الألم . فإنه لم يفعل خطية ومع ذلك عانى آلاما لم يعانها أی شخص من مواليد النساء . من ذلك يتضح إذن أن الآلام لا يتحتم أن تكون فی كل الأحوال علامة على خطية خاصة . لقد شرب كأس الآلام مُرة حتى الثمالة ، وفی هولها صرخ هذه الصرخة الداوية « إلهی إلهی لماذا تركتنی » ، ومع ذلك لم يخطر بباله قط أنه قد حصل أی انحراف فی إدارة دفة العالم من الناحية الأدبية . لذلك فإن موت يسوع قد سلب من الموت هاتين الفكرتين ، وعلمنا أنه كثيرا ما يرسل الألم لإفادة الآخرين ، وأننا يجب أن تحمله على هذا الأساس . ولأن الله يحب جنسنا ، ويريد أن يخلصه ويضفی عليه بركات غنية ، فإنه يسمح للبعض بل للكثيرين بأن يتجرعوا كأس الآلام لكی يسكب بركات جزيلة جدا على الجميع .

إذن فحينما نُدعى لتحمل الآلام ، يجب أن لا تصل بنا الغباوة لدرجة اتهام الله بالظلم ، سيما إن كنا لا نحس بخطية خاصة ، بل لنذكر أن احتمالنا بالصبر للآلام ، جسدية كانت أم نفسية ، سوف يؤول يقينا إلى زيادة إتمام أغراض المسيح الفدائية التی تملأ قلبه ، الأغراض التی دعانا لنأخذ نصيبنا فيها .

يا لها من خدمة جليلة لا تقدر ، تلك التی تممها المسيح نحو تحويل مجرى الآلام ، وإقناع المتألمين أنهم بتعب أنفسهم يغنون العالم ، وإظهار هذه الحقيقة للمضطهَدين والمنسحقين والمرضى أن لديهم فرصة للتعاون مع رئيس المتألمين نحو تغيير ذلك الجو المظلم المليء بالأحزان لهم ولغيرهم . من أجل هذا نحن نحسب المسيح عظيما ، لأنه بموته قلب أوضاع الآلام .

٢- الموت :

إن البشر يرهبونه . هو الظلمة المرعبة المحتمة التی تتسلل إلى أقوى الشخصيات وأسعدها . أما المسيح فإنه بموته أبطل الموت وأنار الحياة والخلود . لقد تحدث عن ذهابه إلى أبيه ، عن اتحاده ثانية بخاصته فی الضفة الأخرى لنهر الموت ، فی الفردوس ؛ وعن

مجيئه ثانية ليقبل خاصته لنفسه . لقد بيّن أن هنالك طريقا يعبر الوادى المظلم يستطيع أن يجوزه ويكرر اجتيازه حتى يدخل كل خرافه إلى الحظيرة سالمين . هو شخصيا لم يرهب الموت ، وعلمنا نحن أيضا أن لا نرهبه ؛ وعلمنا أنه ليس إلا طريقا للوصول إلى وطننا .

قبل مجيء المسيح ، كانت نظرة البشر إلى الموت يحوطها الكثير من الغموض ، لا يعلمون ما وراءه علم اليقين . كانوا ينظرون إليه نظرة كولومبوس إلى الغرب قبل أن تقلع سفينته إليه . ولكن ، حين قام المسيح ، لم يعد الموت أو القيامة موضوعا للتساؤل أو التخمين ، بل تحدثت هذه الحقيقة لكل الأجيال بأعلى صوتها ، فإنه قد أنار الحياة والخلود . من أجل هذا نحن نحسب المسيح عظيما ، لأنه بموته أبطل الموت .

٣- الخطية :

حينما مات المسيح على الصليب أحصى مع أثمة ، ولكنه تحدى جميع الأثمة وتميز عنهم وحمل خطيتهم . لقد وُضعت عليه كل خطايا البشرية . لقد حمل عنا الإثم الذى حُسب علينا بسبب انتسابنا لذرية آدم الساقطة ، كما حمل عقوبته . لقد حمل خطية العالم كحمل الله . لقد حملها إلى أرض النسيان لكى لا تُذكر ثانية كما كان يفعل تيس عزازيل .

والأكثر من ذلك أنه حمل خطايانا نحن فى جسده على الخشبة . إنه لم يحمل فقط الخطية التى ورثناها بصفة عامة من آدم ، بل الخطايا ، خطاياى وخطاياك ، حتى إذا ما اعترفنا بها ، بالتذلل والتوبة ، نلنا الغفران فى الحال ، الغفران الأكيد ، المضمون بأمانة وعدل الله . فإنه يجب أن يكون أمينا لمواعيده . أما النتائج التأديبية القصاصية ، فقد تلاشت إلى الأبد ، إذ وفيت حين قدم نفسه كفارة وذبيحة عنا أجمعين . هذا بلا شك يدفعنا بأن نحسب المسيح عظيما ، فإنه بموته أبطل التعدى ، وضع حدا للخطايا ، طهر الإثم ، وأتى بالبر الأبدى . إنك مستحق يا حمل الله ، لأنك ذُبحت وفديتنا لله بدمك .

(٣) العظمة التى يضفيها عليها موته فى نظر سائر أجناس الوجود

لا إلى جبل التطويبات ، بل إلى الصليب ، سوف ترسل العوالم البعيدة وفودها فى كل الأجيال القادمة لتتعلم الدروس الكثيرة التى لن يستطيع أن يلقنها إلا الصليب . هنالك يتعلمون أن يعرفوا قلب الله ، ويعرفوا بغضته للخطية ، ومحبته للخطاة ، وأمانته لعهوده وبره وحقه . إن الصليب هو الوسيلة السماوية التى تعيننا على تحليل عناصر الطبيعة الإلهية . هنالك يدهشون إذ يكتشفون عمق المحبة الإلهية ، التى تستطيع أن تتنازل إلى هذه الدرجة من التواضع والآلام لكى تربح عروسها . هنالك يدركون بسرور نصرة ابن الله على كل شر العدو وقوته .

لقد ظلت فوهة الجحيم أجيالا طويلة تقذف حممها على الكون لخرابه وتعاسته ، ولكن منذ مات المسيح وقام ، تحطمت قوته وقضى على مملكته . يا لها من تعزية وإغاثة لكل الكون . لأن ما فعله المسيح فوق الصليب لا يشمل الجنس البشرى فقط ، بل كل الأجناس وكل الكائنات التى يعلن لها السلام . فإنه إذ عمل الصلح بدم صليبه ، صالح الكل لنفسه نهائيا ، سواء كان ما على الأرض أم ما فى السموات .

- ٢٤ -

ترنمى أيتها العاقر

إشعياء ٥٤ : ١ [١]

رغم كل ذلك فإننا لم نفقد الأمل بعد
لأن حرارة الشمس اللافحة يعقبها الصقيع
ووسط الكون الشامل
يدوى صوت ملاك الموت مناديا
« ارتفع إلى هنا » وحينئذ يستقر كل شىء
ألا تذهبين أيتها النفس ؟
نعم سأذهب ، فترنمى أيتها القلوب الكسيرة
(براوننج)

رأينا فى الفصول السابقة أن الدعوة وجهت للمسبيين لمغادرة بابل والتطلع إلى عبد الرب الذى صار حاملا لخطاياهم وخطايا كل العالم . وهنا يوجه النبى أنظارنا بشكل عجيب إلى أورشليم المدينة المقفرة . هذه هى الصفات التى يطلقها عليها من لا يخطىء قط : عاقر ، مهجورة ، مستوحشة . يؤيد هذا شهادة أحد المعاصرين ، إذ نقرأ ما دونه نحميا الرجل الأمين : « ثم قلت لهم أنتم ترون الشر الذى نحن فيه كيف أن أورشليم خربة وأبوابها قد أحرقت بالنار » (نح ١ : ٣ ، ٢ : ٣ و ١٣ - ١٧) .

---

(١) « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد . أشيدى بالترنم أيتها التى لم تتمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل قال الرب » .

وكيف كان ذلك ؟ ألم يعلمنا الوحى أن الشفيع الأعظم قد رفع الخطية إذ قَبِلَ على نفسه الجراحات والانسحاق ، والخَبر والموت ؟ فكيف تجلس إذن هذه المدينة ذليلة كسيرة مقفرة على وجه الأرض ؟ ألا يستطيع غفران الله الذى انتصر على الخطية أن ينتصر أيضا على الخراب الذى سببته الخطية ؟ أيمكن أن يكون كاملا ذلك الفداء الذى يقصر عن أن يشمل كل نتائج الخطية ؟

هذا يفتح لنا موضوعا عظيما للبحث يمسنا أجمعين . نحن نعلم أن خطيتنا ، وإن غُفرت ، إلا أن نتائج معينة تبقى ، وهذه ما ترمز إليها تلك المدينة الخربة . نحن لا نستطيع أن نمحو الماضى ، والله نفسه أيضا لا يمحوه ، فإنه لن يكون كأنه لم يكن . سنوات السبى السبعون ، الخزى والعار والأحزان ، إيلام الله ، الفرص الضائعة ، الأشواك التى غرسوها فى الأرض بجهلهم وحماقتهم فتأصلت . آه ، إن الله يستطيع أن يغفر ، أما هذه الأشياء فلن تتبدل الآن . ولكن ما معنى كلمة « الفادى » ؟ ما معنى هذه العبارة التى تؤكد أنه حيث ملكت الخطية للموت هناك تملك النعمة للحياة الأبدية ؟ ماذا يقصد بهذا الوعد الذى يؤكد أنه « عوضا عن الشوك ينبت سرو وعوضا عن القريس يطلع آس » (أش ٥٥ : ١٣) ؟ كثيرا ما خطرت هذه الأسئلة فى بالنا وإن لم ترددها أفواهنا . ولذا يحسن أن نجد عنها إجابة . فإنها تفتح أمامنا بابا عظيما للبحث ، يدور حول النتائج الطبيعية للخطية ، وكيف يعالجها الله .

(١) النتائج الطبيعية للخطية

١- يجب أن نميز بينها وبين النتائج التأديبية أو القصاصية :

هب أن رجلا سيق أمام القضاء بسبب السكْر والعبث بالأمن العام . هنالك نتيجتان لتلك الشهوة الجامحة . فإنه أولا قد تعدى على شرائع بلاده ، الأمر الذى من أجله يجب أن تفرض عليه عقوبة بالغرامة أو السجن . ولكنه من الناحية الأخرى ، فضلا عن هذا ، قد سبب لنفسه الصداع الشديد ، الكآبة وانقباض النفس ، إجهاد الأعصاب . وهذه هى النتائج الطبيعية الحتمية . هذه تتابعه وتلهبه بوخزات الضمير القاسية حتى بعد استيفاء القصاص حسب شرائع بلاده .

هكذا حينما نخطىء ضد الله تحدث نتيجتان . فإن خطيتنا تصرخ ضدنا كما صرخ دم هابيل ضد قايين ، يرتفع صوتها إلى أعلى السموات ، ولا يمكن تسكينه إلا بشفاعة دم المسيح . حينما نأخذ ذلك الدم فى أيدينا ، ونحمله معنا ونقدمه كفارة عنا ، فحينئذ ، وحينئذ فقط ، نجد سلاما وراحة وخلاصا من الخطية ومن قصاصها الذى بدون هذا لا بد أن يتابعنا . ولكن حين يتم هذا ، وننال الغفران ، والرضا والبركة ، فلا تزال هنالك نتائج أخرى يجب أن نواجهها . قد تُغفر للسكير خطيته ، ولكن صحته تعتل ، وثروته تتأثر . ولا يمكن أن يكون ما كان ممكنا أن يحدث لو أنه عاش بتعقل وتعفف .

خذ مثلا آخر : إنسان حصر كل جهوده فى الاشتغال بالأعمال السياسية والخدمات الاجتماعية ، وأهمل إهمالا مروعا فى واجباته العائلية . ليلة بعد أخرى يتغيب عن أطفاله الصغار حتى يحسبوه غريبا . لا يجد وقتا يجالسهم فيه ، ولا مجال لتبادل الثقة ، وبذلك لا تتوفر تلك الروابط المقدسة التى تجعل الرجل مركز الدائرة فى العائلة . والأم لا تستطيع أن تقدم لصغارها ما يحتاجونه من قوة الشكيمة وثبات العزيمة . وبدون أن يشعر ، تتباعد عنه العائلة . وبعد سنوات قليلة ، حينما يلمس الفشل بنفسه ، يجد مع الأسف الشديد أن محبة الأبناء له كادت تنعدم . والآن وقد صار الأولاد رجالا ، فإنهم يطلبون مسراتهم خارج البيت ، أما البنات فإنهن يشعرن بالعجز الشديد حينما يجدنه يقضى الساعات المضنية القصيرة فى رفقتهن . وأخيرا يكتشف غلطته ويحاول علاجها ، ولكنه يجد أن الوقت قد فات . قد يغفر له الله ، وقد تصفح عنه زوجته التى لم تتباعد عنه قط ، ولكنه لا يستطيع أن يسترد تلك المحبة التى خسرها . هذه هى أورشليمه الخربة .

٢- وهذا التمييز يعلمنا إياه الكتاب :

ويكفى هنا أن نورد لك مثلا واحدا . عندما قطع داود حبل فترة الصمت الطويلة ، متأثرا بالمثل الذى قدمه إليه ناثان النبى ، وصرخ قائلا : « قد أخطأت » ، أجابه النبى على الفور : « الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك » ، ولكنه أضاف إلى ذلك هذه الكلمات : « لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد » . ومن ناحية نظر الله لخطيته ، فقد أزيلت فى الحال بمجرد اعترافه ، أما من جهة نتائجها الطبيعية ، فإنها قد تابعته سنوات طويلة . فموت ابن بثشبع ، وقتل أمنون ، وتمرد ابشالوم ، وتمزيق المملكة - هذه كانت حصاد تلك الخطية التى سبق أن زرعها .

لا داعى لتكرار الدرس الذى يعلمنا إياه هذا الأصحاح ، بل لنذكر فقط ما يؤكده لنا الأصحاح الأربعون أن إثم أورشليم قد عفى عنه ، ونقارن هذا بما يشير إليه هذا الأصحاح من جهة حالتها الخربة . من ذلك يتضح إذن أننا يصح أن نثق من غفران مخلصنا الكامل بالتوبة والإيمان ، ومع ذلك يبقى الإتلاف المخزى وأثر التئام الجروح ، وخسارة السنوات الطويلة - الأمور التى يرمز إليها خراب هذه المدينة .

٣- وهذه النتائج الطبيعية أمرٌ من أن تُحتمل :

إن الإحصاء المدون هنا عنها يذكرنا بمياه مارة قبل أن تلقى فيها - بإرشاد إلهى - الشجرة التى هى رمز صادق للصليب . ضمن النتائج الطبيعية للخطية الحرمان من النسل ، الكد فى العمل بلا جدوى ، عدم الشعور برفقة الله ، الآلام النفسية أو العصبية ، أو آلام الظروف السيئة ، أو الآلام التى نسببها للآخرين وهى أسوأ أنواع الآلام . وقد تكون هذه النتائج بعض الأحيان مقترنة بالمحن التى تدوم سنوات طويلة . حينما تغرينا الشهوة ، لنذكر مرارة هذه النتائج ، ولنذكر أنها محتمة . صحيح إننا بمجرد الاعتراف والإيمان نضمن إعادة رضاء الله ، ولكن صحيح أيضا أن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد حتما . وحتى إذا كان الإنسان مسيحيا ، ونال نعمة فى عينى الله ، وحصل على الغفران ، فإنه إن زرع للجسد فمن الجسد يجب أن يحصد .

(٢) كيف يحول الله هذه النتائج الطبيعية للخطية

يقول الله : ترنمى ، ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد . أشيدى بالترنم .

يقول إسرائيل : كيف أترنم ومدينتى خربة ، وهيكلى محرق بالنار ، ومثمناتى صارت نهبا ؟ كيف أترنم ؟

فيجيبه الله : لا مانع ، فقد جاء وقت الترنم . ترنمى لا من أجل ما عندك ، بل من أجل ما وعدت أن أعطيك . « أوسعى مكان خيمتك . ولتبسط شقق مساكنك . لا تمسكى . أطيلى أطنابك وشددى أوتادك . لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمما ويعمر مدنا خربة » .

ولكن نتائج عصياننا باقية . إنك يا رب لا يمكن أن تمحوها حتى إذا غفرت . لا يمكن أن ترد إلينا سنى السبى السبعين . لا يمكن أن تمحو آثار الجروح والانسحاق والخَبر . لا يمكن أن تحول دون متابعة الخطية لنا .

فيجيب الرب رغم ذلك : أيتها العاقر يجب أن تترنمى كما فعلتِ حين خرجتِ من مصر . ترنمى ، لا بنفس شدة الفرح ، بل بنظرة أعمق إلى تلك النعمة التى علاوة على غفرانها الكامل فإنها تستطيع أن تصلح الماضى الذى لا يصلح ، وتعوض عن الشوك بالسرو ؛ وعن القريس بالآس ، وتخرج من الشر خيرا ، وتحول ابن أونى [أى ابن الحزن] إلى بنيامين [أى ابن اليمين] .

هكذا يستطيع الله أبونا أن يجعل الرجال والنساء فى منتصف الحياة يترنمون ثانية - كما فى أيام شبابهم - بفرح تخامره ذكريات السقطات والتعديات الماضية التى أنتجت عسلا كرِمّة أسد شمشون . وكما حول الله خطية آدم فى العالم المتسع إلى غنى الجنس البشرى ، هكذا يحدث أيضا فى عالم اختباراتنا الفردية الضيق ، إذ تتحول سقطاتنا إلى قيام ، وتتحول الهزيمة إلى نصرة ، وعن طريق اختبارات البرية ندخل أرض الراحة .

لنوضح هذا من تاريخ السبى ؛ فإنه رغم مرارة الخسارة المباشرة نتيجة عصيانهم الذى استحقوا من أجله قصاص السبى ، فإن هذا السبى قد تحول إلى إخصاب الحياة الروحية فى الشعب المختار ، بل فى العالم ، من ثلاث نواح :

١- إنهم كونوا فكرة جديدة متسعة عن الله :

قبل ذلك الوقت ، كانوا يتخيلونه إلها محليا كإله الأمم المجاورة . أما الآن ، فقد تعلموا بأن قدوس إسرائيل يجب أن يدعى إله كل الأرض (ع ٥) .

٢- وكونوا فكرة أعمق عن طبيعة الديانة الحقيقية :

قبل السبى ، كانت فكرة الأغلبية الساحقة من شعب اليهود عن الديانة ، أنها

تنحصر فى الفرائض والطقوس والممارسات الخارجية . ولكن حينما حرموا من الهيكل والمذبح والكهنة ، وظل الأنبياء يحثونهم على التقوى ، ، صار واضحا لأبسط العقول أن الديانة الحقيقية لا تقوم بالأمور المادية الحسية ، بل يجب أن تتغلغل فى أعماق النفس . ففى السبى نجد لأول مرة تأسيس المجامع حيث تستطيع نفوس الأتقياء عبادة الله فى بساطة وروحانية .

٣- وأدركوا أن رسالتهم يجب أن يتسع مداها لتشمل كل العالم :

لقد استنارت عقول الشعب المختار ، وخلقت فيها فكرة جديدة عن مقاصد الله فى دعوتهم وتأديبهم ، إذ أدركوا أنهم يجب أن يكونوا كندى الرب على الأرض ، ويذيعوا فى كل مكان تلك الحقائق المقدسة التى أقامتهم عليها العناية الإلهية حراسا ، ويوسعوا خيمتهم لتشمل الأمم (غل ٤ : ٢٧) . إذن فقد كانت هنالك فكرة أن رفضهم كان مصالحة للعالم (رو ١١ : ١٥) .

هذه كانت نتائج سبيهم ، فإن نعمة الله مست ظلمة وسواد مصائبهم التى استحقوها بعدل ، وحولتها إلى ذهب . وهذا ما لا يزال يحصل إلى الآن . فإن السكير بعد أن تُغفر له خطيته ، لا يستطيع أن يمحو ما حدث نحو إتلاف الصحة والثروة ، ولكنه يتعلم كثيرا عن التواضع ، والتروى ، ويخلق فيه الميل لإنقاذ أولئك الساقطين تحت نفس التجربة التى سبق أن تردّى هو إليها . والذى يكسر نواميس الحياة العائلية تصير عواطفه أرق ، ويزداد إنكارا لذاته ومحبة لكل أفراد أسرته أكثر مما كان قبل أن يذوق مرارة الفشل الذريع . والذين قد تجرعوا مرارة نتائج خطاياهم ، تلمس فيهم الدعة والتواضع ، ودقة الإحساس ، ورقة الكلام ، والعطف على الآخرين فى تجاربهم وسقطاتهم ، والرغبة الملحة فى تقديم النصائح للآخرين ، والصلاة من أجلهم - وهذه كلها صفات غالية جدا . والابن الضال الذى صفح عنه أبوه يستطيع التحدث عن محبته بطريقة يعجز عنها الابن الأكبر . وحينما نسمعه يتحدث ، ندرك أنه يقدم إلينا نفائس ثمينة مما جمعه باختباراته فى الكورة البعيدة .

وحينما نكتئب ونحزن من أجل خطايانا ، ونندب حظنا بسبب ما كلفتنا من نفقات وآلام ، فإننا فى نفس الوقت نستطيع أن نتطلع إلى الله وهو يعمل محوّلا نفاية حياتنا إلى أجمل نسيج ، كما تستخرج الأصباغ النفيسة من بعض النفايات ، والورق الناصع البياض من الخرق البالية القذرة . فى سبينا نستطيع أن نكوّن آراء جديدة عن الله ، عن الديانة الحقيقية ، عن رسالتنا بين البشر . ربما نستطيع الوصول إليها بطريقة أخرى لو لم نسقط ، ولكننا قد نتعلمها تحت ظروف تعطى لذة خاصة لتأكيداتنا لهذه الحقائق العظيمة .

(٣) كلمات معزية للمتألمين من نتائج أخطاء الماضى

إن الماضى لن يتبدل ، ولكن مما يعزينا أن نعرف أنه يمكن الصفح عنه ، وأن النفس يمكن أن تتطهر . هذه الحقائق الجوهرية يجب أن لا تغرب عن بالنا وسط حزننا الشديد من أجل الخطية .

هنالك أيضا فرق شاسع جدا بين القصاص والتأديب . فالأول تحمّله عنا المخلّص الذى حمل خطية الإنسان وقصاصها على الصليب ، أما الثانى فإنه من نصيبنا نحن الذين اتحدنا معه بالإيمان الحى . يجب أن لا نقول بأننا ننال القصاص حينما تسبب لنا أخطاء الماضى بعض النكبات الشديدة ، بل إننا نؤدب لكى ندان مع العالم . ونفس الظروف التى تكون قصاصا للأشرار تكون تأديبا لأولاد الله . إن أبانا يؤدبنا لخيرنا ، ويستخدم النتائج الطبيعية لخطايانا كعصى التأديب .

فى مثل هذه الأوقات يدعونا الله إليه ثانية « كامرأة مهجورة ومحزونة الروح » لأنه يعرف مرارة الفشل والعار للنفس المرذولة (ع ٦) . هو ينتظر حتى يجمعنا بمراحم عظيمة ، ويرحمنا بإحسان أبدى (ع ٧ و ٨) . فلنلب نداءه ونرجع إليه . ولا نسمح للأحزان والآلام التى نرزح تحتها أن تفصلنا عنه . بل لنحسبها فرصة لطلب مساعدة أوفر .

ويجب أيضا أن نؤمن بمحبته التى لن تتزعزع . هو لا يزال عريسنا ولا يمكن أن يبعدنا عنه ، والإحسان الذى رحمنا به أبدى ، بل أنه حلف أن مياه الموت والخراب لن تفصلنا عنه إلى الأبد (ع ٩) ، وقطع معنا « عهد سلامه » الذى لا يتزعزع ولو زالت

الجبال وتزعزعت الآكام (ع ١٠) . قد نتزايد بلادة وتراخيا ، ونجلب على أنفسنا الآلام والويلات ، ونحزنه ونهينه ، ونقف حجر عثرة فى سبيل إتمام مقاصده . أما هو فلا يمكن أن يكف عن محبتنا ، فإن رحمته تظل تعانقنا . وإن كان يحزن إذ يرى الآلام التى نسببها لأنفسنا ، إلا أنه يستخدمها كأتون النار المحماة ، التى لا تفعل أكثر من أن تحرق الوثق التى ربطنا بها ، ولكن لن تمس جسدنا ، ولن تحرق شعرة واحدة من رؤوسنا .

إن صعدت إلى السموات فإن محبتك هناك ، وإن فرشت فى الهاوية فهنالك أيضا محبتك . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر ، وجعلته فاصلا منيعا بينى وبينك ، فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . إن قلت إنما الظلمة تغشانى ، فالليل يضىء حولى ، وفى وسطه تتابعنى فى كل خطوة وتردنى إليك . وعن طريق زيغاتى وابتعادى عنك ، تتمم أسمى مقاصدك نحو طهارتى وقداستى .

عجيبة جدا هذه المحبة ، لا أستطيع إدراكها ، ولكنى أضطجع فى أذرعها الأبدية (مز ١٣٩) .

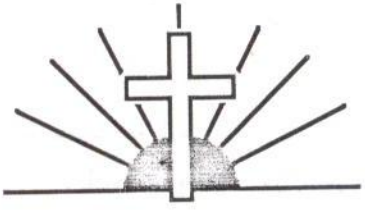

- ٢٥ -

مدينة الله

إشعياء ٥٤ : ١١ [١]

هنالك فى الأفق البعيد
ترتفع أبراج المدينة
حيث يسكن إلهنا
هذا البيت الجميل بيتنا
شوارعها مرصوفة حجارة بهرمانية
أبوابها من ذهب
نهرها يفرح القلب
وتفيض منها أفراح لا يُعبَّر عنها
(دين الفورد)

لا تزال الإشارة هنا لأورشليم . فى الفقرة السابقة يوجه إليها الحديث كامرأة عاقر ، وهنا يوجه إليها على أساس أنها سوف تقوم حتما من خرابها ، الذى رزحت تحته طويلا ، لتصير فرح كل الأرض . طبيعى أن الكلمات تشير مبدئيا إلى إعادة بناء المدينة الفعلى ، الذى تم على يدى نحميا الصالح . على أن هنالك إشارة أبعد ومعنى روحيا أعمق . فهذه الكلمات لا بد أن تشير إلى مدينة الله ، التى تقوم على الدوام وسط أطلال كل الأبنية الأخرى . إن عينى مهندس الكون الأعظم الساهرتين دواما تراقبانها ، وهى مبنية بأيد غير منظورة ، لا يسكنها إلا الحق والبر ، وتقوم ببطء من وسط أكوام القمامة إلى القوة والجمال .

---

(١) « أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية هأنذا أبنى بالأثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك » .

هنا نرى وصفا للبناء الذى لا يقدر بثمن ، وامتيازات سكانها ، والأمن الذى تؤكده كلمة الله . ويجب أن لا نتردد عن تطبيق هذه الرؤيا المباركة على أنفسنا . إنها يقينا فى متناول أيدينا وكما تؤكده الكلمات الختامية فى هذا الأصحاح التى تؤكد أن : « هذا هو ميراث كل عبيد الرب » .

(١) قيمة البناء النفيسة جدا التى لا تقدر بثمن

يا له من إحصاء مشوق للحجارة الكريمة . فالأثمد ، والياقوت الأزرق ، والحجارة البهرمانية ، والحجارة الكريمة ، تنافس بعضها بعضا ، وتتلألأ ضياء وبهاء ومجدا . والآن ، لنتأمل قليلا فى طبيعة اللآلئ . إنها بطبيعتها ليست إلا كميات من المادة المعتمة . فالأثمد من الطين ، والماس من الكربون ، ولكن ما هو سبب اختلاف مظهرها عن مظهر عنصرها الأصلى ؟ ليس من اليسير الإجابة على هذا السؤال ، ولكن لعل هذا المظهر العجيب يعزى للتبلور الذى حدث تحت ظروف إستثنائية من التقلص والضغط والنار . فالجوهرة النفيسة قطعة من الأرض العادية جازت ظروفا غير عادية . لذا فإن هنالك تناسبا فى توجيه هذه الكلمات لشعب الله المتألم بسبب ما حل بهم من التقلص الشديد والضغط المروع والنار المحرقة . لقد كانوا يحسبون هذه الظروف قاسية ، ولم يدركوا لماذا عوملوا بهذه الشدة . ولكنهم سوف يتبينون كل شىء يوما ما حينما يدركون أن الله كان يهيىء ياقوتا للشُرَف [النوافذ] ، وحجارة بهرمانية للأبواب ، وياقوتا أزرق للأساسات .

١- أساسات من الياقوت الأزرق :

الياقوت الأزرق من أجمل الأحجار الكريمة . إنه يولد فى الظلام ، ولكنه يخبىء فى طياته سر الجمال المنقطع النظير . وزرقة هذا المعدن النفيس تحتفظ إلى الأبد بجمال الجنطيانا [١] وزهر البنفسج وزهر أذن الفار [٢] ، وجمال سماء الصيف وبحار الصيف . وطالما ذكر هذا المعدن فى الكتاب المقدس . فشيوخ إسرائيل « رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه

---

(١) أعشاب مرة Gentian .

(٢) Forget-me-not .

شبه ضعة من العقيق [الياقوت] الأزرق الشفاف » (خر ٢٤ : ١٠) . وكان هو الخامس بين الحجارة الكريمة التى توضع على صدرة القضاء (خر ٢٨ : ١٧ و ١٨) ، والثانى بين أساسات أورشليم الجديدة (رؤ ٢١ : ١٩) . واللون الأزرق هو اللون الغالب فى الطبيعة ، فإنك تراه فى البحار والسماء . وكان هو أيضا السائد فى خيمة الاجتماع وفى الهيكل ، فكان يقترن دواما بالذهب فى وصف الأثاثات المقدسة . وكما كان الذهب يرمز لمجد وعظمة الله ، هكذا كان يرمز اللون الأزرق لمحبته ونعمته فى يسوع المسيح .

إنه لمما يلفت الأنظار جدا أن يخبرنا الوحى بأن أساسات البناء الإلهى توضع من حجارة الياقوت الأزرق .

أولا : إنها « مملوءة محبة » . فالياقوت الأزرق رمز للمحبة ، والحقيقة الراهنة التى تتغلغل فى حياتنا أجمعين وفى كل تاريخ الجنس البشرى هى محبة الله . تعمق كما شئت ، أو اذهب إلى أقاصى الأرض ، فإنك لا بد أن تأتى آخر الأمر إلى أساس محبة الله فى المسيح .

ثانيا : إنها متينة وقوية . اللآلئ تدوم أكثر من كل الأشياء المأخوذة من الأرض . وعلى قدر صلابتها يكون جمالها . هكذا أيضا أساس الرجاء المسيحى . فإنه ليس أضغاث أحلام ، ولا بناء قصور فى الهواء ، ولا سحابة صيف تذريها الريح ، بل هو خالد أبدى كعرش الله .

ثالثا : إنها جميلة . إن جمال عالم الله ليس محصورا فقط فيما تراه العين البشرية ، بل يتصل أيضا بغير المنظور . فإنه لا يكتفى بأن يضفى جمالا على الزهور والغابات والبرارى ، بل أيضا على أساسات الأرض حيث يكمن البللور الصخرى الأبيض الشفاف ، وحجر الجرانيت ، والحجر السماقى ، بألوانها الرائعة الجمال . ولكن ما أجمل أساسات ديانتنا - العهد الذى أبرم فى غرفة مشورة الأبدية ، دم الكفارة ، دعوة الفادى للهالكين ، المقاصد الأزلية الألهية التى دبرت منذ الدهور أن تنتصر النعمة على الخطية .

٢- شرف من الياقوت :

يتكون الياقوت من البللور الصخرى بأنواعه ، ويحمل فى شكله طابع النار . والواقع أنه يوجد دائما فى الصخور النارية ، حيث يتساقط منها حينما يتحلل بتأثير الماء والهواء . والياقوت شفاف نوعا ما ، لا هو بالمعتم كحجر الصوان ، ولا هو شفاف جدا كالبللور ، بل هو يسمح بدخول النور ويحد منه كثيرا عند اجتيازه .

الله يصنع الشرف من الياقوت . وهذا يمكن تفسيره بأن الله يأخذ أحزاننا ويجعلها نوافذ نتطلع منها إلى غير المنظور . نحن فى هذا العالم لا ننظر بالعيان ، ولا نعرف كما عرفنا . فإن واسطة النظر فينا تبقى على الدوام معتمة نوعا ما . ولكن لنشكر الله كل الشكر لأننا على كل حال نستطيع أن نرى . فى الحزن نرى طبيعة العالم التى لا تشبع ولا تروى ، ونرى حقيقة غير المنظور ، ونعلم كيف نقدر رقة وعذوبة المحبة البشرية ، ونتعمق فى فهم معنى أعمال العناية الإلهية ، ونتطلع إلى عِظم قيمة الكتاب المقدس وحقه . إن الشُرَف ، وإن كانت من ياقوت ، إلا أنها لا تزال نوافذ . يا من تعصف بك الزوابع ولا تجد تعزية ، يجب أن تشكر إلهك رغم كل ذلك لأنك تجوز النار ، على شرط أن تكون مبصرا .

٣- أبواب من حجارة بهرمانية :

لا يُعرف على وجه التحديد نوع الحجر الكريم الذى تعنيه اللغة العبرية هنا . ويبدو أنه من الأفضل أن نقرر بأن المقصود هو ما ورد فى رؤيا مماثلة فى سفر الرؤيا ، والمتضمن أن الأبواب لؤلؤية (رؤ ٢١ : ٢١) . المعروف أن اللؤلؤ يتكون من إحداث جرح فى المحار ، وهذا يدفعها أن تسكب من داخلها السائل الثمين الذى يتجمد فيصير لؤلؤة . إن كان الأمر كذلك ، فإن كل لؤلؤة تتزين بها المرأة إنما هى أثر دائم لجرح مؤلم . وعلى أى حال ، فإن كل لؤلؤة تحيى ذكرى مخاطرة الإنسان بحياته حين يغوص فى أعماق البحار . تأمل فى أبواب أخرجت من أعماق البحار ، كل منها نتيجة الآلام والمخاطرة بالحياة الكريمة . هذا يصدق أيضا على الحياة ، فإن كل خروج إلى مجال أوسع ، للخدمة إلى حياة أسمى ، إلى مسئولية أعظم لإسداء الخير - هذه كلها لا يمكن أن تتم إلا بالأحزان ، وإنكار الذات ، والآلام . لا يوجد باب فى الحياة الحقيقية لم يكلفنا ثمنا غاليا . والله يحوّل لآلئنا إلى أبواب ، ويجعل أبوابنا من لآلئ .

حينما تغوص فى بحار من الأحزان والآلام ، أو تعصف بك العواصف ، ولا تجد تعزية ، فتطلع إلى نتيجة هذا التأديب الشديد . إنه « فى الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن . وأما أخيرا فيعطى الذين يتدربون به ثمر بر للسلام » (عب ١٢ : ١١) . وخفة ضيقتنا ، التى إن هى إلا وقتية ، هى كنير ثقيل الحمل ، وتجهد كل أعصابنا ، ولكنها فى الناحية الأخرى من السور تطحن غلالا من ذهب تعوضنا أضعاف ما نتوقع . فتعلم إذن بأن تتطلع إلى الله ، وهو يجعل الأحجار الكريمة الجميلة مخارج لحياتك ، أسوار خلاص ، وأبواب تسبيح (أش ٦٠ : ١٨) . أليس جميلا جدا أن ندرك بأن الله يخرج اللآلىء من الأمور العادية جدا عن طريق نيران التجارب والآلام ؟

(٢) إمتيازات أبناء المدينة

١- إنهم يصيرون جميعا « تلاميذ الرب » [١] :

اقتبس ربنا المبارك كلمات هذا الوعد فى أحد خطاباته الرائعة فقال : « إنه مكتوب فى الأنبياء : ويكون الجميع متعلمين من الله . فكل من سمع من الآب وتعلم يقبل إلىّ » (يو ٦ : ٤٥) ؛ يا لها من حقيقة رائعة الجمال أن ندرك بأن الله قد أنشأ مدرسة فى هذا العالم المظلم ، وتعهد بأن يكون هو نفسه المعلم فيها . إنه لا يعهد لأى يد أدنى مهمة تهذيب النفوس البشرية . ولكن لا تخف ، فإن الذى يُعلّم هو الآب « هو يعرف جبلتنا ويذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٤) . من المؤسف جدا أن الكثيرين يسمعون ولا يتعلمون . هنالك فارق عظيم بين الأمرين .

حينما كنا فى المدرسة ، وكان الباب يترك مفتوحا إذ يطل على الحديقة ، كثيرا ما كانت عيوننا تتحول من الكتاب إلى الفراشة وهى تحوم حول الزهور ، أو النحل وهو ينتقل من زهرة إلى أخرى ، أو العصافير وهى تطير هنا وهنالك . لقد كنا نسمع المدرس ولكننا ما كنا نتعلم ، وكان الدرس يعاد . وكم كان مضجرا جدا أن يعاد الدرس بينما الطبيعة كلها تنتظرنا فى الخارج . وهكذا نحن أيضا نفوّت على أنفسنا تلك الدروس الإلهية المقدمة

---

(١) أو « متعلمين من الله » حسب الترجمة الإنجليزية .

لنا على صفحات الكتاب المقدس ، أو الضمير ، أو الحياة البشرية ، والتى تحمل فى طياتها أعمق عواطف الرقة واللطف الإلهية . إن كنا قد تعلمنا حقيقة من الآب فيجب أن نأتى حتما عند أقدام يسوع . حينما يقول البشر أنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يؤمنون بيسوع المسيح الذى أرسله ، فإنهم يتباعدون عن الحق ، سواء كانوا يدرون أو لا يدرون . إن كل من يعتقد بالله بإخلاص ينبغى أن يأتى إلى المسيح .

إن أول الامتيازات المباركة لأبناء مدينة الله هو أن يكونوا متعلمين من الله ، أن يقودهم هو بيده إلى معرفة كاملة لأسرار الفداء ، أن يجلسوا عند قدميه ، أن يكونوا طلبَة فى مدرسته : أن يكونوا تلاميذه ، أن ينالوا ما طلبه المرنم مرارا عندما صرخ قائلا : « علمنى يا رب طريق فرائضك فأحفظها إلى النهاية » (مز ١١٩ : ٣٣) . قدنى فى طريقك وعلمنى .

٢- سلام بنيك كثير :

إننا أولا نحصل على سلام مع الله بالإيمان بدم المسيح وبره ، من ثم نحصل على سلام الله الذى قيل عنه أنه كثير ، وفى موضع آخر « أنه يفوق كل عقل » .

إذا أردت سبر غور المحيط فإن بعض أجزائه تهزأ بحبل المقياس . قد يكون طول الحبل ألف قامة أو ألفين أو ستة آلاف ، ومع ذلك لا يصل إلى العمق . هكذا عندما يجىء سلام الله من كل أطراف العالم إلى القلب باسطا أجنحة راحته . إنه أفضل من الفرح المتقلب والمتذبذب ، وأفضل من نشوة السرور التى قد يكون لها رد فعلها . هو عميق ، وحلو ، وهادئ ، وشامل ، لم تر عين نظيره ، ولا سمعت أذن به ، ولم يخطر على بال قلب بشر .

وهذان الامتيازان يتوقف كل منهما على الآخر . فإنه كلما ازدادت معرفتك بالله ازداد سلامك ، لأنك تجده أكثر جدارة بثقتك . وحينما تعلم أن صديقك جدير بكل ثقتك يكون بينكما سلام . السلام ينمو ، فبعد أن يكون ضئيلا يصبح كثيرا ، وبعد أن يكون متوقفا لدرجة كبيرة على الاختبار يصبح ثابتا ودائما . وهو يكون دواما بنسبة اتساع دائرة إدراكنا لله . إذن ، « فتعرف به واسلم [وكن فى سلام] بذلك يأتيك لهم » (أى ٢٢ : ٢١) « سلامة [سلام] جزيلة لمحبى شريعتك وليس لهم معثرة » (مز ١١٩ : ١٦٥) .

٣- أمنهم :

« أنا خلقت المهلك ليخرب » (ع ١٦) . يؤدى المهلك مهمة نافعة جدا . فالسكين تنزع الأغصان الميتة ، والنار تأكل الأقذار ، والرفش يعزل التبن عن القمح ، والريح الشرقية تكسر الغابات ، والصقيع يفتت الأرض ، وقطعان المواشى تُلتهَم . « أنا خلقت المهلك ليخرب » هذه تعبر عن الفكرة القوية التى كانت لدى اليهود المتضمنة بأن الله يسمح بالبلايا ، وأنه يحولها ، وأنه يخرج خيرا من الشر الذى يُظَن بأنه متلف لكل خير .

لا تستغرب البلوى المحرقة إن أتت لامتحانك . لا ترهب إذا رأيت « الحداد الذى ينفخ الفحم فى النار ويخرج آلة لعمله » (ع ١٦) حتى وإن كانت أسنان هذه الآلة تبعث الرعب فى قلب من هو أقوى منك ؛ فإن الله « خلقه » وهو يستطيع أن يسيطر عليه ويحسن استخدامه . لن تستطيع أية خليقة خلقها الله أن تفعل أكثر مما يسمح به . أبوك فوق الكل ، وهو قد قال دون تردد أو تحفظ إن كل آلة صورت ضد خاصته لا تنجح ، وكل لسان يقوم عليهم فى القضاء يحكمون عليه (ع ١٧) .

من المستحيل أن نتخلص من المحن . ولو استطعنا لما كان ذلك خيرا لنا . « ها أنهم يجتمعون اجتماعا [أو يقينا] » ضدك (ع ١٥) . قال السيد : « فى العالم سيكون لكم ضيق . إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضنى قبلكم . إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم » ولكنهم لن يمسوكم بأذى . استمروا فى عمل ما هو مستقيم فى عينيه . ناظرين إلى مجده . ومعتزمين إتمام إرادته . قد تضطرم النيران حولكم ، ولكنها لن تفعل أكثر من أن تحرق وثقكم . وقد تعصف عليكم العواصف ، ولكنها لن تمسكوا بأى أذى . لا تحاولوا أن تظهروا حقكم وتنتقموا لأنفسكم « كفوا واعلموا أنى أنا الله » (مز ٤٦ : ١٠) . سوف يتدخل فى اللحظة المناسبة ، سوف يظهر حقكم ؛ سوف يرد سيف أعدائكم عليهم ، ويخرس كل صوت يتهم أو يشتكى . هذا هو ميراثك ، فإن كنت عبده ، ثق بأن كرامتك فى صيانة إلهية .

هذه هى مدينة الله ، ونحن نسير فى طرقاتها يوما فيوما . لقد أتينا إلى جبل صهيون ، مدينة الله الحى : أورشليم السماوية ، نسيمها عليل . موسيقاها شجية . سكانها القديسون المنيرون يلتقون بنا فى طرقاتها . مصالحها وخدماتها تشغل أيدينا ؛ أورشليم الجديدة قد هبطت - إلينا - من عند الله من السماء ، وهى بيننا .

- ٢٦ -

قائدنا الممجد

إشعياء ٥٥ : ٤ [١]

لقد صعد إلى السماء
أما نحن فباقون فى عالم الخطية والشقاء
وفى الفراغ الذى تركه على الأرض
نعيش محرومين منه
ولا زال أمامنا عمله لنؤديه
ولا زال فى إمكاننا اقتفاء خطواته
والجد فى طلبه فى الصديق والعدو
وإظهار صورته فى حياتنا

(ستانلى)

هنالك أشياء لا نستطيع شراءها بالمال . من الهراء أن نحاول شراءها بالذهب أو الفضة أو ما يماثلها ، فهى بلا ثمن . إذن فهى بعيدة عن الأغنياء الذين يتوهمون أن المال هو الواسطة الوحيدة للحصول على كل شىء ، والذين يتعذر عليهم أن يفكروا فى ثروة أخرى غير التى يتبادلونها فى الأسواق . ولكنها فى متناول من ليس لهم فضة ، ومع ذلك يتعطشون لها جدا . وسوف يتضح لنا قريبا كنه هذه الأشياء . ويكفى القول إنها متوفرة فى شخصية سامية ، وإنه من المستحيل الحصول عليها إلا إذا اتحدنا به فى شركة حية .

---

(١) « هوذا قد جعلته شارعا للشعوب رئيسا وموصيا للشعوب » .

كان من الضرورى جدا أن يلفت الله أنظار الشعب اليهودى إلى هذه الأشياء التى لا تُشترَى بمال . فإن حياتهم فى بابل كانت مترفهة جدا . لقد أثروا فجأة ، وبكل سهولة بدلوا امتيازهم الروحى كقادة روحيين بين البشر بأمور مادية حبا فى كسب الثروة ، حتى أنه كان هنالك خطر شديد أن يحولوا أنظارهم عن أهم حقائق العالم الروحى . لذلك كانوا فى أمس الحاجة لمن يذكرهم بأن تعطش النفس الروحى لا يمكن إرواؤه بالمياه الكائن مصدرها فى أعماق الأرض ، ولو كانت البئر عميقة كبئر سوخار ، وأن جوعها لا يمكن إشباعه بالطعام الذى تكتظ به مائدة الغنى الذى قسى قلبه على لعازر . إن الشبع الحقيقى ، وهو الخبز اليقينى والدسم الذى يلذذ النفس ، لا يمكن الحصول عليه إلا حيث انعدمت ماديات هذا العالم ، ولا يمكن أن يضمن إلا فى حياة الشركة مع ذاك الذى يرن صوته دواما فى أسواق العالم قائلا : « أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه . والذى ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا ، هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمرا ولبنا . استمعوا لى استماعا وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم » .

هذه الهبات الروحية التى بها تحيا الروح تعطى بعهد . وكل إنسان يجب أن يدخل فى هذا العهد مع الله . ومع ذلك فإن هذا قد قطع نيابة عن نفوس جميع المؤمنين بواسطة ممثلهم ، ابن الإنسان الممجد .

وهنا نرى أمامنا ثلاث نواح للتأمل فيها : رئيس الحياة ، العهد الأبدى ، الإمدادات الوفيرة التى لنا فيه .

(١) رئيس الحياة

« هوذا قد جعلته شارعا للشعوب رئيسا وموصيا للشعوب » .

١- كان يرمز إليه داود :

كان هذا الغلام الراعى هبة الله لإسرائيل لإنقاذ شعبه من الفوضى التى جرها عناد شاول ، ولإنقاذ الأرض من غارات الفلسطينيين ، ولرعايتهم كقطيع غنم . لقد قطع الله

معه عهدا أن « يصنع له بيتا » ، وأن يجلس ابنه على عرشه ، وأكد له هذا العهد برفقته الإلهية له ، وتثبيت « كرسى مملكته إلى الأبد » . كانت هذه هى مراحم داود الصادقة حين جعله الله « رئيسا على شعبه » (٢ صم ٧ : ٨ - ١٧) .

فى كل هذه النواحى دخل القدير فى عهد مع الابن الأعظم لداود . فقد جعله رئيسا ، وجعل اسمه عظيما ، وكرسى مملكته ثابت إلى الأبد ، ومملكته وطيدة الأركان ، وبيته ثابت ، « ويكون اسمه إلى الدهر . قدام الشمس يمتد اسمه ، ويتباركون به . كل أمم الأرض يطوبونه » (مز ٧٢ : ١٧) .

لقد تلوث الرمز بخطية داود وعدم أمانته . وعينة الأشياء السماوية تحمل هنا دواما آثار الاضطراب وأقذار هذا العالم . ولكن رغم كل ذلك فإن الله من جانبه لم يعرف تغييرا أو ظِل دوران أو شبه رجوع عن قصده . فإن مراحمه أكيدة . وبالأحرى جدا فى حالة المسيح ، فإن القصد الأبدى لا يمكن أن يفشل . لا يمكن أن يحصل أى تقصير من جانبه فى إتمام شروط العهد ، والله لا يمكن أن يرجع عن كلمته . لقد قطع مع ابنه عهدا مرتبا فى كل شىء ومضمونا . من الأيسر أن يختل تتابع الليل والنهار من أن تختل نقطة واحدة من ذلك العهد .

٢- وهذا اللقب أطلق على يسوع بعد قيامته :

فى العهد الجديد نجد المسيح يدعى رئيسا أربع مرات فقط ، وكل هذه المرات ذكرت أثناء الحديث عن قيامته . فبطرس فى موعظته فى الهيكل يتهم اليهود بقتل « رئيس الحياة » ، وبعد ذلك مباشرة يضيف هذه الكلمات : « الذى أقامه الله من الأموات » (أع ٣ : ١٤ و ١٥) . وأمام السنهدريم يؤكد أن الله « رفعه بيمينه رئيسا ومخلصا » (أع ٥ : ٣١) . وواضح أن الرفع هنا يشير إلى صعوده من أعماق القبر إلى يمين العظمة .

وفى رسالة العبرانيين يخبرنا الرسول أن الله كمل رئيس خلاصنا بالآلام (عب ٢ : ١٠) ، وأنه كلله بالمجد والكرامة . وأيضا فى نفس الرسالة يطلب منا الرسول أن ننظر إلى « رئيس الإيمان ومكمله الذى جلس فى يمين عرش الله » (عب ١٢ : ٢) .

٣- إن المعنى الأصلى للكلمة عجيب جدا :

إنها تعنى - لغويا - الشخص الأول المتقدم صفا من الرجال ، ولذلك فهو رئيسهم وقائدهم . إذن فهذا يحمل إلى أذهاننا أن الرب هو المتقدم على حفل كبير من النفوس الذين يقودهم من ظلمة القبر وفساده ، ويخطو بهم فى الهواء فوق كل رياسة وسلطان إلى عرش الله نفسه . هو « بكر من الأموات ، لكى يكون متقدما فى كل شىء ورئيس ملوك الأرض » (كو ١ : ١٨ ، رؤ ١ : ٥) . إنه بقيامته من الأموات أعلن نورا للأمم .

وهذه الفكرة - قيادة المسيح لمحفل عظيم - لدى تطبيقها على الكلمات السابقة ، نستخلص منها نتائج جليلة .

أولا : إنه يقود الموتى من الموت إلى الحياة :

هنالك وجه شبه كبير بين حياة وأعمال كل من يشوع ويسوع . فإنه بعد موت موسى أعطى الله ليشوع أن يكون شاهدا للشعب عن الحق والبر - أن يكون رئيسهم وقائدهم . ولكى يكون وجه الشبه تاما ، نتصور أن يشوع تقدم أولا مجتازا قاع نهر الأردن الجاف ، ومعه جماعة قليلة من الكهنة حاملين تابوت العهد على أكتافهم ، ثم اقتفى خطواته محفل إسرائيل العظيم . لا نستطيع الجزم إن كان هذا هو الترتيب الذى حصل . ولكن على الأقل هذا هو الثابت أن المسيح قد تقدمنا واجتاز نهر الأردن [الذى يرمز دواما إلى الموت] وأنه سوف يُبقى النهر جافا حتى يجوز كل واحد من المفديين .

ثانيا : ويوقد المغلوبين إلى نصرة السماويات :

بارتفاعه إلى يمين العرش فتح طريقا تسلكه فى كل الأجيال جماهير لا تحصى . حيث يكون هو يكونون هم أيضا ، وكما غلب هو يغلبون هم أيضا . وكما أنه متسلط على كل رياسة وسلطان سوف يجلسون هم أيضا على عرشه حتى يخضع كل أعدائهم تحت موطىء أقدامهم .

ثالثا : ويقود المتألمين من الآلام إلى الكمال :

هذا ما يحصل نتيجة الآلام الشديدة التى تقدسها نعمة الروح القدس « مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به » (عب ٥ : ٨) . وقد حوّل الآلام وبيّن أنها مجرد أداة فى يد الله يستخدمها للتطهير والتأديب والتقوية والسمو - وهذه كلها أصبحت ميراث شعب الله المتألم . كل الذين يتألمون بتواضع ووداعة حسب مشيئة الله إنما يسيرون فى المحفل العظيم الذى يرأسه هو .

رابعا : ويقود أيضا صفوف المؤمنين :

فى الأصحاح الحادى عشر من رسالة العبرانيين الخالدة ، يسجل لنا الرسول قائمة عن أبطال الإيمان . على أنه يحرص بأن يخبرنا أن المسيح هو رئيس الإيمان الحقيقى ، ولو كان هابيل هو الأول فى الأقدمية ، ولو كان إبراهيم هو جدهم الأول ، ولو كان موسى هو الأول من جهة الأعمال العجيبة التى تممها .

٤- وهذه الاستنتاجات المستقاة من العهد الجديد تثبتها وتؤيدها العبارة المدونة هنا :

« ها أمة لا تعرفها تدعوها » . لا يمكن أن تشير هذه الكلمات إلا للأمم الذين كانوا بعيدين . « وأمة لا تعرفك تركض إليك » . لا تَصْدُق هذه الكلمات إلا على الجموع الغفيرة التى تحدث عنها للسيد اليونانيون الذين أتوا إليه قبل موته ، والذين قال عنهم : « وأنا إن ارتفعت أجذب إلىّ الجميع » . هذه الكلمات خطاب موجه مباشرة من شعب الله إلى قائدهم ورئيسهم . إنهم يذكرونه - بروح الشكر - بأن « قدوس إسرائيل قد مجده » . ومتى قبل الرب كرامة ومجدا إلا حين أعطى اسما فوق كل اسم - لدى طاعته حتى الموت - به تجثو كل ركبة ويعترف كل لسان ؟

أيها القائد المجيد لنفوس المؤمنين ! يا من بدأت خروجا عظيما من القبر ، ومن ظلمة سيادة محبة الذات والخطية ، ومن عالم الماديات الزائل إلى غير المنظور الأبدى ، **العالم الذى لا خطية فيه ولا حزن** : إننا نتوسل - نحن الذين نتبعك - بأن الأمة

التى لم تعرفك تركض إليك . وأن تلتف حول رايتك شعوب كثيرة . وأن يهرع إليك الكثيرون الذين يضيعون جهودهم وراء المياه التى لا تروى ظمأهم ، والطعام الذى لا يشبع جوعهم ، ويتبعوك إلى نهر مياه الحياة وإلى شجرة الحياة التى فى وسط فردوس الله .

إن الله يقدم لك أعظم هبة . فهل تقبلها ؟ إنه يقدم لك ابنه الوحيد ويهبك معه أيضا كل شىء . فتقدم إليه واقبل هبته ، اتخذه لك تعزية ، وغذاء ، وخلاصا إلى أبد الدهور .

(٢) العهد الأبدى

قبيل نهاية حياة داود تَغنى أغنية قصيرة كان واثقا خلالها من أن روح الرب هو الذى يتحدث فيه ، وأن كلمته تجرى على لسانه . ويبدو أنه قد أتيح له بأن يرى الفرص الكثيرة التى ضاعت عليه فى حياته . استمع إليه وهو يقرر بكل حزن أن من يتسلط على الناس بالبر والعدل يكون كإشراق الشمس ، كالصباح الصحو : كعشب الأرض الذى يخرج منه نتيجة فعل المطر والشمس . هذا ما كان ممكنا أن يكون حكمه . ولكن ذلك الحلم الجميل لم يتحقق ، فإن حكمه لم يكن دواما فى خوف الله . لقد ارتكب الإثم الذى من أجله تأدب بقضيب الناس وبضربات بنى آدم (٢ صم ٧ : ١٤ و ١٥ ، ٢٣ : ٣) .

لقد صفح الله عن إثمه ، ولكن النتائج الطبيعية لازمته . فبيته لم يكن مع الله كما كان هو ، إذ مزقه الزنا والقتل والبغض . وفى كلماته الأخيرة يقرر بأن الأشرار لا يمكن أن يؤخذوا إلا إذا كانت اليد مسلحة بالسيف والرمح . كان أدونيا ، ويوآب ، وشمعى ، وغيرهم ، كأشواك فى جنب الملك الشيخ . ولكنه رغم كل ذلك تيقن أن عهد الله معه مضمون وأكيد . فقد سبق أن قال له الله : « رحمتى لا تنزع كما نزعتها من شاول الذى أزلته من أمامك » . أما داود نفسه ، فإنه يتحدث عن هذا العهد بهذه الكلمات : « وضع لى عهدا أبديا متقنا فى كل شىء ومحفوظا [أكيدا] » .

لقد وضع عهدا مماثلا بين الآب وبين الابن كمثل للمفديين . والله لن يكسر أى نقطة واحدة منه . وعمل الصليب قد قبل نهائيا نيابة عنا . والدم الكريم قد حسب كفارة

كافية . وطاعة المسيح وموته كافيان . فالذين يؤمنون به لن يهلكوا . ومراحم الله لنا فى المسيح مضمونة وأكيدة . ولكننا يجب أن ندخل ذلك العهد . لاحظ التأكيدات : استمعوا (ع ٢ و ٣) ؛ تعالوا (ع ١) ؛ أميلوا آذانكم (ع ٣) ؛ « فأقطع لكم عهدا أبديا » (ع ٣) .

يتحدث الناس هذه الأيام كثيرا عن وحدة الجنس البشرى ، ويحاولون أن يُصَنِّفوا البشر فى عائلة واحدة كبيرة ، وذلك إثباتا للنظرية الصادقة المماثلة : نظرية الفردية (Individualism) . وهاتان النظريتان يجب ألا تتصادما . فكل منهما لازم لتقدم النفس تقدما حقيقيا . صحيح أن كل الذين يتوبون ويؤمنون يدخلون ضمن ذلك العهد الأبدى ؛ ولكنه صحيح أيضا أن هنالك علاقة شخصية بين الله وكل نفس ، بفضلها تدخل معه فى شركة لا تفصلها عنه حياة أو موت ؛ أمور حاضرة أو مستقبلة .

(٣) الإمدادات الوفيرة

هنا يصفها النبى بأوصاف كثيرة . المياه ، الخمر ، اللبن ، الخبز للشبع ، الطيب ، الدسم . هنا تقدم لنا الدعوة للمجىء للمياه ، حيث نجد وليمة مهيأة نجلس إليها لنأكل . كل هذا يذكرنا بكلمات الرسائل المتضمنة غنى يفوق كل عقل . « باركنا بكل بركة روحية فى السمويات فى المسيح » . « كل شىء لكم » . « قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى » .

كثيرا ما كانت نظراتنا إلى الصلاة أننا بها نحصل لأنفسنا على ما نحتاجه للحياة أو للخدمة . فيقول الواحد منا : سأصلى نهارا وليلا من أجل هذه النعمة أو تلك . سأشترى هذه القوة بالدموع والتنهدات والابتهالات الكثيرة . ولكن ليتنا ندرك أن المائدة مبسوطة . وأن فيها كل كفايتنا . وأن أسماءنا مدونة عليها . وأن الأبواب مفتوحة . وأن كل ما علينا هو أن نأخذ . كل ما حصل عليه الرسل ملك لنا . كل ما يمكن أن يعطيه الله قد أعطاه . كل ما تحتاجه النفس معد وفى متناول اليد . ليس علينا أن نصعد إلى السماء لنحدر نعمة الله . أو نهبط إلى أى عمق لنصعدها . بل هى قريبة . هى هنا . « كلوا

أيها الأصحاب . اشربوا واسكروا [1] أيها الأحباء » . ليست هنالك حدود لمن يدعوهم الله ليكونوا ضيوفه للجلوس إلى مائدة ابنه . كثيرا ما نتحدث كأن الوليمة ستقدم فى نهاية هذه الحياة . على أن الثيران والمسمنات قد ذبحت ، وكل شىء معد الآن ، فتعال .

بلا فضة وبلا ثمن . وهل هذا صحيح ؟ أحقا أننا لا ندفع شيئا ؟ ليس الشراء حسب طريقة العالم . فنحن نشترى بمجرد الاعتراف بحاجتنا ، والتقدم شاعرين بفقرنا وعوزنا ، والرغبة أن نكون ضيوفا على مائدة الله السخية الغنية . إن الأموال التى نشترى بها ثروة السماء التى لا تقدر بثمن هى أن نفرغ أنفسنا من أنفسنا . أن نقبل بأن نأخذ - كأطفال صغار - من يد الله ، دون أن نظن بأننا نستطيع أن نشتريها بصلواتنا ودموعنا .

يجب أن لا يغرب عن ذهننا أن إمدادات نعمة الله لا يتمتع بها إلا الذين يتبعون المسيح قائدهم ويطيعون وصاياه . إن قائدنا هذا يطلب الطاعة المطلقة . فإن قال تعالوا ، وجب علينا أن نأتى مهما تركنا . وإن قال اذهبوا ، وجب علينا الذهاب مهما كانت الصعوبات التى ندفع أنفسنا إليها أو المخاطر التى تنتظرنا . وإن قال افعلوا هذا ، وجبت علينا الطاعة بلا تردد . فاركض إليه ، اثبت فيه ، إجلس معه فى السماويات ، أطعه . إقبله كأفضل هبات الله . إعطه المجد والولاء . بذلك تشرب خمرا ولبنا ، وتأكل خبزا للشبع ، وتتلذذ بدسم هيكله المقدس .

وهكذا تشترك الأرض - إلى حد ما - فى بركات ذلك العالم الأبدى الذى قيل فيه « هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب . لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد . ولا تقع عليهم الشمس ولا شىء من الحر » .

فى الواقع إن كل الكنيسة تشرب من نفس النهر الواحد ، وتحيا فى نفس الظروف الواحدة . وفى كل عالم يجب على الرعية أن تتبع قيادة المسيح . فى كل عالم يشربون من نهر مياه الحياة الخارج من عرش الله والخروف ، فالواحد يشرب من النهر بجوار منبعه ، والآخر يشرب منه فى منخفضات هذا العالم .

---

(١) أو «اشربوا بوفرة » (نش ٥ : ١) حسب الترجمة الإنجليزية .

- ٢٧ -

الآفاق القريبة السماوية

إشعياء ٥٥ : ٩ [١]

محبتى ثابتة لا تتغير
أعلى من الأعالى
وأعمق من الأعماق
مجانية وأمينة وقوية كالموت
(كوپر)

أفكار الله . إننا نستطيع أن نكون عنها فكرة من أعمال يديه ، سواء فى الطبيعة ، أو فى أعمال عنايته ، أو فى عمل الفداء . يتحدث عنها المرنم ويصفها بأنها من جهة بقائها ثابتة ، وتفوق كل إحصاء بشرى ، وأعمق من أن يُسبر غورها (مز ١٣٩ : ١٧ و ١٨) . قيل عن كپلر (Kepler) بأنه فى إحدى الليالى ، إذ كان يرقب حركات الأجرام السماوية ، وقضى فى هذا ساعات طويلة ، صرخ قائلا : « لقد كنت أفكر وأطيل التفكير فى أفكار الله الأولى » . ولكن هناك أفكارا أسبق من تلك التى انطبعت على الطبيعة . فالمحبة التى أدت إلى اختيار الإنسان فى المسيح ، والتى سوف تبلغ أوج الكمال فى المجد ، أسبق جدا . لنتأمل طويلا فى أفكار الله هذه حتى نصرخ قائلين : « ما أكرم أفكارك يا الله عندى . ما أكثر جملتها » (مز ١٣٩ : ١٧) .

---

(١) « لأنه كما علت السموات عن الأرض ، هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم » .

طرق الله . لقد عرفها لموسى كأنه أمكنة أن يهب معرفة عن تصرفاته لعبده الأمين أكثر مما كان ممكنا لبنى إسرائيل ، الذين إنما أعطى لهم معرفة أعماله فقط . إن طريق الله فى بحر الأسرار ، طريقه فى لجة الأحزان . كانت طلبة المرنم أن يتعلم طرقه ، وكانت شكوى الله ضد إسرائيل أنهم لم يعرفوها .

هذه الطرق وتلك الأفكار هى التى قيل عنها هنا إنها علت عن طرقنا وعن أفكارنا كما علت السموات عن الأرض . أولا : إن السموات عالية جدا عن الأرض **ولذلك فهى طاهرة جدا** . وثانيا : إنها عالية جدا **ولذلك فهى غزيرة جدا** . وثالثا : إنها عالية جدا **ولذلك فهى جوادة وكريمة جدا** . وهى فى كل من هذه النواحى الثلاث تمثل طبيعة الله ورحمته .

(١) إنها عالية جدا ولذلك فهى طاهرة جدا

إن السماء « لن يدخلها شىء دنس ولا ما يصنع رجسا وكذبا » . إن الأبخرة العفنة المتصاعدة من المياه الآسنة ، والدخان وكل الأقذار المتصاعدة لا تقوى على تلويث هذا الجو الطاهر . والسماء خير ما يمثل طهارة الله ، الذى اسمه قدوس ، والذى يسكن الأقداس فى الأعالى . والفرق بين السماء والأرض فى هذه الناحية كالفرق بين أفكار وطرق الله وأفكار وطرق الإنسان . هذا ما نتعلمه من هذه الكلمات : « ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه . . لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب . لأنه كما علت السموات . . إلخ » .

طبيعى أن الإنسان لم يستطع قط الوصول إلى حدود طرق الله وأفكاره فى مقياسها وحركاتها وعدم محدوديتها أو اتساع مداها . وهذا ليس مطلوبا ، كما أنه لا يحسب علينا خطية إن قصرنا عن الوصول إلى مقياسها أو كميتها . ولكن ، طالما كنا قد خلقنا على صورة الله ، فواضح أنه ممكن أن نظهر شبها كبيرا لأفكاره وطرقه ، على الأقل فى نوعها وطبيعتها .

تدل إحصائيات الفلكيين على أن هنالك وجها للشبه بين فكر الله وفكر الإنسان فى الحساب والرياضيات . وتصوير عمل الله بمعرفة المصور أو النحات ، يدل على أن هنالك وجها للشبه من ناحية تقدير الجمال . والميل الدائم فى الإنسان للإنتاج ، سواء كان شاعرا أو خادما ، يدل على أن هنالك وجها للشبه من ناحية القدرة على الخلق والإنتاج . كذلك لا بد أن يكون هنالك وجه للشبه فى الناحية الأدبية والناحية الروحية . فما يصدق على الله يصدق علينا نحن أيضا . وكما توجد المحبة والطهارة والعطف والتواضع فى الله ، توجد كذلك فى الإنسان . ولدى فحص أعماق قلوبنا فحصا دقيقا ، نستطيع أن نكوّن فكرة عن أعماق الله . فإن خلقة الإنسان الأصلية على صورة الله ، والتجسد ، اللذان برهنا لنا على أنه أمكن لله أن يفكر وأن يعمل عن طريق طبيعتنا ، يؤكدان بلا شك أن الإنسان يستطيع ، بل يجب أن يفكر أفكار الله ويسلك فى طرق الله . فإن كنت تعيش على الأرض ، إلا أنك لست ابن الأرض بل ابن السماء ، وأنك دعيت ، لا لطلب الأشياء التى من تحت ، بل التى من فوق ؛ الأشياء الإلهية ، ولطلب الأبدية .

على أن دخول الخطية إلى عالمنا قد غيّر كل هذا . فالجميع يشهدون أن جاذبية الأرض قوية جدا . والأمور الوقتية المنظورة ، بما فيها من جاذبية وتوافق للحواس البشرية ، قد أفسدت ذلك التوافق الذى قصد الخالق أن يكون موجودا بينه وبين الإنسان . ولعل الأمر لا يحتاج إلى أى توضيح أو تأكيد أن تصور أفكار قلب الإنسان شريرة بصفة دائمة ، وطرقه فاسدة . وأن اتجاه تفكيرنا وطرقنا إنما هو بالطبيعة إلى أسفل ، أرضى ، جسدانى ، شيطانى . ومن هنا نشأت الهوة السحيقة المخيفة بين طرق وأفكار الله وطرقنا وأفكارنا .

لذلك فمن المستحيل للإنسان الطبيعى أن يعرف الله . إننا نستطيع فقط أن نعرف بعضنا بعضا بروح الإنسان الساكن فينا . فعطفنا البشرى الحساس يعلن لنا فى طرفة عين ما تعجز عن تعبيره أية لغة بشرية . على أننا يجب أن نكون متشابهين فى العقلية قبل أن نستطيع قراءة أفكار بعضنا البعض . هكذا الحال بيننا وبين الله . فالإنسان الطبيعى ، الذى قد تباعد عن الله فى تفكيره وطرقه ، لا يستطيع أن يقبل ما لروح الله ، كما يعجز الإنسان المتوحش عن فهم أفكار وطرق الإنسان المثقف ثقافة عالية علمية وروحية . « ولكن الإنسان الطبيعى لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحيا » (١ كو ٢ : ١٤) .

ومن المستحيل أيضا للإنسان الطبيعى أن يرضى الله ، فأفكار الله قداسة وطرقه طهارة ، أما طرق وأفكار الأشرار فإنها نجسة وفاسدة . أفكار الله محبة وطرقه رقة وعطف ، أما طرق وأفكار الأشرار فإنها تتركز فى ذواتهم وضارة مؤذية . أفكار الله حق وطرقه عدل ، أما طرق وأفكار الأشرار فإنها غير مخلصة وغاشة . لذلك فمن المستحيل على من يعيشون فى الجسد أن يرضوا الله ، لأنهم ليسوا خاضعين لناموس الله ، بل لأنهم أيضا لا يستطيعون (رو ٨ : ٧) .

ومن المستحيل كذلك للإنسان الطبيعى أن يعيش مع الله إلى الأبد إلا إذا ترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره . مهما كانت آلام الظلمة الخارجية شديدة ، فإن الآلام الداخلية للأشرار والنجسين أشد بما لا يقاس . لا شىء يؤلم العين المريضة قدر نور الشمس الذى يفرح به الشاب . ولا شىء يؤلم النفس النجسة أشد مما لو اضطرت أن تعيش إلى الأبد فى نور حضرة الله ، الأمر الذى كانت تقاومه وتنفر منه بصفة دائمة . لو أنه أتيح لشخص كهذا دخول مدينة الله بنورها الذى يفوق نور الشمس بهاء ، وموسيقاها الشجية ، وقديسيها المبجلين ، وترانيمها العذبة ، لسمعت مرة أخرى تلك الصرخة القديمة : « ما لنا ولك يا قدوس الله . أأتيت لتهلكنا » . إن وجودنا فى حضرتك يسبب لنا عذابا ما بعده عذاب .

لذلك كان لا بد من صدور الأمر أن يترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره . يجب أن يرجع الأشرار عن طرقهم الشريرة ويعكسوا اتجاه تفكيرهم . والعين التى كانت مثبتة فى الأباطيل ، يجب أن ترفع لتتبع آثار السيد وهو صاعد إلى السماء . والأقدام التى كادت تنزلق فى الهاوية لهلاكها ، يجب أن تركض فى طريق وصايا الله . والإرادة يجب أن تخضع لإرادة الله لكى يفعل بها ما هو مرضى فى عينيه لمجد اسمه القدوس . إن صعود الرب إلى السماء يرشدنا إلى الاتجاه الذى ينبغى أن نتجه إليه ، والروح القدس يقدم لنا القوة التى بها نحيا الحياة الجديدة السامية (كو ٣ : ١ - ٤) . وهكذا تنحدر إلى أرضنا حياة السماء الطاهرة ، كما كان الرب يسوع أثناء إقامته على الأرض لا يتردد عن التحدث عن نفسه بأنه فى السماء (يو ٣ : ١٣) .

(٢) وهى عالية جدا ولذلك فهى غزيرة جدا

قس ارتفاع السماء عن الأرض ، واربط نفسك بأحد الملائكة الذين يطيرون فى السماء ، ودعه يرشدك إلى حدود الأجرام السماوية حيث يضىء نيتون وأورانوس . ثم اعبر المسافة الشاسعة جدا بينهما وبين أقرب كوكب ثابت ، ثم انتقل إلى العوالم البعيدة كل البعد عنا لدرجة لا يتصورها العقل البشرى . بعد ذلك انتقل إلى لجج الفضاء حيث تستمع إلى موسيقى أمواج الأثير . هذه هى السموات . الواقع أنها أعلى من الأرض . وبهذه النسبة نستطيع أن نقول إن غفران الله يفوق إدراكنا البشرى ، فإنه « يكثر الغفران . لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب . لأنه كما علت السموات . . إلخ » .

هذه هى الفكرة التى وضحها الرسول على صفحات الوحى فى إحدى رسائله الرائعة (رو ٥ : ١٢ - ٢١) . لقد كانت وجهة نظره أن كل ما عملته الخطية بددته نعمة الله . فإن كان الموت اجتاز إلى جميع الناس بتعدى إنسان خاطىء واحد ، فبطبيعة الحال يجب أن تجتاز النعمة إلى الجميع عن طريق شخص وأعمال الإنسان الواحد المجيد الذى لم يتعثر قط - الرب يسوع المسيح . وإن كان قد أتيح للموت أن ينشب أظفاره فيملك عن طريق خطية واحدة دفعت إليها محبة الذات ، فيجب أن يكون ممكنا أيضا للحياة الأبدية أن تملك عن طريق ذلك العمل الفريد الذى دفع إليه إنكار الذات ، والذى أضاء من فوق الصليب . « وكما ملكت الخطية فى الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحيوة الأبدية بيسوع المسيح ربنا » .

بل إنه يذهب إلى مدى أبعد فيقول إن الله أعطى الناموس لكى يتبين سم الخطية وقوتها . وكأنه سمح للخطية بأن تأتى آخر ما عندها . عند الصليب - حيث بلغ عهد الناموس أقصى حدوده - كشف النقاب عن الخطية ، فاتضح أنها خاطئة جدا . وقبل ذلك ، لم يكن أحد سوى الله يعلم كنه الخطية وإمكانياتها . ومنذ تلك اللحظة كشف للمسكونة ذلك السر الغامض . ولكن إن كانت الخطية قد غطت قمم أعلى الجبال كمياه الطوفان ، فإن النعمة ، فى قوتها وغزارتها ، سمت فوقها جدا كما علت السموات عن مياه الطوفان لما تدفقت وأتت آخر ما عندها .

ليس هنالك أى وجه للشبه بين غفراننا وغفران الله . ويجب أن لا نقيس غفرانه بغفراننا . فالبشر يقولون : نحن مستعدون أن نصفح إن كانت هنالك ندامة حقيقية واعتراف كامل ؛ أو : نحن مستعدون أن نصفح لو لم تكن الخطية شنيعة بهذا القدر ؛ أو : نحن مستعدون أن نصفح ولكننا لن ننسى . إن الاستعداد للصفح ليس متوفرا ، وكثيرا ما سلكنا بغاية الفتور والحذر مع من صفحنا عن إساءاتهم لنا . أبعد عجيبا ، ولنا مثل هذه التعليمات ، إن كنا لا نستطيع أن ندرك غفران الله الكامل . أو عمق معنى تأكيده لنا بأنه لا يذكر خطايانا فيما بعد ؟ فاترك مقاييسك السقيمة ، سواء عن غفرانك أنت أو غفران الآخرين ، لأنك لن تجد فيها نفعا لك هنا . فإن حبل مقياسك غير مجد ، وتقديرك عقيم . إن استطعت أن تقيس ارتفاع السموات فوق الأرض ، استطعت أن تدرك مقدار عمق غفران الله لمن يرجعون إليه بكلمات الاعتراف فى شفاههم والتوبة الحقيقية فى قلوبهم .

إن أقصى ما يتوقعه الابن الضال هو الصفح المحدود ومركز العبد فى البيت . ذلك لأن تفكيره عن الصفح لا يرتفع فوق هذا المستوى . أما الأب فإنه يركض ، ويقع على عنقه ، ويقبله ، ويخرج له الحُلّة الأولى الفاخرة ، ويقدم له الوليمة الشهية . هذا هو الفارق بين تفكير الإنسان وتفكير المسيح عن الصفح .

حينما يغفر الله لا يعود يذكر . يمحو آثامنا كغيمة وخطايانا كسحابة كثيفة ، لا يعاملنا كمجرمين غفر لهم ، بل يضمنا إلى صدره كأبناء محبوبين . يخلع علينا ثوب البر الكامل ، يعاملنا كمن اكتسوا جمالا رائعا ، يحول نتائج خطايانا الأليمة إلى بركات وفيرة ، حتى إذا ما عدنا من الكورة البعيدة شادت الجبال ترنما وصفقت الأشجار بالأيادى (ع ١٢) ، وعوضا عن الشوك ينبت سرو ، وعوضا عن القريس يطلع آس (ع ١٣) ، ويكون هذا التحول تذكارا أبديا لما تستطيع أن تفعله محبة الاب للخطاة التائبين (ع ١٣) . يقينا أن هذا يعلو عن تفكير الإنسان عن الصفح كما تعلو السموات عن الأرض .

(٣) وهى عالية جدا ولذلك فهى جوادة وكريمة جدا

لأن السموات عالية عن الأرض جدا ، فهى تستطيع أن تجمع بين ثناياها رطوبة الأرض . فالسحب تحمل بضاعتها الثمينة من الأمطار والثلج فوق الأرض الناشفة لتسكب الأمطار فى مجار مخصبة ، وتدفع الثلج ليغطى وجه الأرض ، وهكذا ، لأن السموات علت عن الأرض ، فإن الثلج والمطر ينسكبان من السماء « ويرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطى زرعا للزارع وخبزا للآكل » (ع ١٠) .

إن عظمة الله المتناهية تجعله ملتزما ببعض الالتزامات من نحونا . وسكنه فى أعالى السموات يلزمه بمعونتنا فى حالتنا السفلية الساقطة . إذا ظهر بين البشر شخص عاقل قوى ، كان ذلك باعثا على التزامه بإغاثة الآخرين فى آلامهم وأحزانهم ، فكم هو أحرى بالله الكلى القدرة ، الذى هو محبة . وإن كان بولس قد حسب نفسه مدينا للجميع ، فكم هو أحرى بالله .

وكم كان الله كريما وسخيا فى القيام بهذه الالتزامات ؛ فكلمته تقطر كالندى ، وهى طاهرة كالثلج . من يستطيع إحصاء عطاياه فى المسيح يسوع ، أو تقدير قيمتها ، أو أمجادها .

ينابيع الرحمة التى لا تنضب
تدعو إلى أعمق التسابيح

إن السؤال الجوهرى الذى يتطلب منا الإجابة هو : ماذا نرد للرب من أجل هذه الحسنات التى تنحدر إلينا من قِبَل الله ؟ يخبرنا الكتاب أن الأرض إن شربت المطر النازل عليها كثيرا وأخرجت شوكا وحسكا ، فإنها قريبة من اللعنة ونهايتها الحريق (عب ٦ : ٧ و ٨) . هل هذا ما رَدَدْناه لله من أجل نعمته التى انسكبت على نفوسنا ؟ ويل لنا إن كان هذا هو موقفنا . ومع ذلك فإننا إلى الآن لا زال فى مقدورنا استبدالها بالسرو والآس . وطوبى لمن يستطيعون أن يقدموا الثمار اللائقة به التى زرعت من أجله . ومن أجل من زرعت سوى من أجل يسوع المسيح ربنا ، الذى نحن ميراثه ، والذى أنفق علينا قطرات دمه وتعب السنوات الطوال .

- ٢٨ -

التحويل الذى تفعله نعمة الله

إشعياء ٥٥ : ١٢ و ١٣ [١]

الآن ، القلب الكسير ، وصراع النفس الشديد
وغدا ، النصر الأكيد ، وإكليل الحياة المجيد
الآن ، دور التدريب ، بما يكتنفه من غموض وعناء
وغدا ، الخدمة المقدسة ، وصوت السيد ادخل إلى السماء

(هاڤرجال)

وهنا يبين لنا النبى غنى غفران الله بتشبيهات فى غاية الوضوح ، تستطيع أن تتبينها أبسط العقول . فإن أهل السبى لم يغفر لهم فقط ، ويكمل جهادهم ، ويصفح عن إثمهم بل أعلن لهم أنهم لا بد أن يرجعوا إلى بلاد آبائهم أيضا « لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تحضرون » (ع ١٢) . ولم يعط لهم الوعد بالرجوع فحسب ، بل أيضا بأن تكون عودتهم فى موكب الظفر العظيم . فالطبيعة نفسها تشهد هذا الظفر ، وتعلنه فى مظاهر البهجة « الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنما وكل شجر الأرض تصفق بالأيادى » .

---

(١) « لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تحضرون . الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنما وكل شجر الأرض تصفق بالأيادى . عوضا عن الشوك ينبت سرو ، وعوضا عن القريس يطلع آس ، ويكون للرب اسما ، علامة أبدية لا تنقطع » .

على أن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد . كان ضمن النتائج الحتمية لإخلاء أرض إسرائيل من سكانها ، فساد تربتها . فإن مساحات شاسعة أقفرت من الزراعة ، ومنحدرات الجبال التى كانت تزرع بكل عناية استحالت إلى أكوام من الحجارة ، وحيث كانت حقول القمح تموج بمحصولها الوفير ، وأشجار الفاكهة تُحَمّل بثمارها اليانعة ، تمت النبوة الأليمة : « لاطمات على الثدى من أجل الحقول المشتهاة ومن أجل الكرمة المثمرة . على أرض شعبى يطلع أشواك وحسك » (أش ٣٢ : ١٢ و ١٣) . ولكن هذا أيضا كان يجب أن يقلب وضعه . كان يجب أن يعكس وضع نتائج الخطية السالفة والارتداد السابق عكسا تاما ، سواء من الناحية الحرفية أو من الناحية الاستعارية المعنوية ، « عوضا عن الشوك ينبت سرو ، وعوضا عن القريس يطلع آس . ويكون للرب اسما علامة أبدية لا تنقطع » . علامة أبدية ! هذه تدل يقينا على أن هذه النبوة تحمل فى ثناياها دروسا مقدسة دائمة الأثر والأهمية . لنتأمل فيها فى ضوء ما ورد بالأسفار الأخرى .

« وقال لآدم ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها طول أيام حياتك ، وشوكا وحسكا تنبت لك » (تك ٣ : ١٧ و ١٨) .

« وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه » (مت ٢٧ : ٢٩) .

« أعطيت شوكة فى الجسد . من جهة هذا تضرعت إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقنى . فقال لى تكفيك نعمتى (٢ كو ٢ : ٧ - ٩) .

وهنا نجد أفكارنا تقسم نفسها بنفسها إلى ثلاثة أقسام : أشواك الحياة وحسكها ، مجد الآلام التى نعانيها فى سبيل تحمل هذه الأشواك ، التحويل الذى تفعله نعمة الله .

(١) أشواك الحياة وحسكها

فى كثير من الأحيان نحن نحصد ما زرعه الآخرون ، وفى بعض الأحيان نحن نزرع لأنفسنا ، وفى غيرها نحن نحصد ثمار إهمالنا . كم من المرات أضعنا الفرص التى كانت بين أيدينا ، ولذلك تغطى المحصولات ذكريات الماضى ، والأشواك تهدد المستقبل .

واعتلال الصحة إحدى هذه الأشواك . كثيرون منا لم يعانوا آلام المرض كثيرا فى حياتهم وذلك بفضل عناية الله . والبعض قضوا أياما طويلة مريرة فى آلام المرض المحض ، وإذ نشب المرض أظفاره فى أجسادهم فى بداية حياتهم فقد فت فى عضدهم ، وعمل على التعجيل على نهاية حياتهم . إن إفراط البعض - أو إفراط آبائهم - قد زرع فى الأرض بذارا مُرة لا بد لهم من أن يحصدوها . ضمن هذه الأمراض التى تتعرض لها أجسادنا : سوء الهضم ، والسرطان ، والشلل ، والأمراض العصبية ، والأمراض النفسية ، وغيرها . ولا شك فى أن هذه أشواك . ولعل شوكة بولس كانت رمدا فى عينيه .

والأبناء الأشرار شوكة أخرى . أكان هذا ما يعنيه داود حين قال إن بيته ليس كاملا أمام الله ، وأن الأشرار يجب أن يُستأصلوا كشوك (٢ صم ٢٣ : ٥ و ٦) .

ألم يكن يفكر فى أبشالوم وأدونيا وغيرهما من آل بيته ؟ يقينا أنه كان يصف اختبارات الكثيرين من الآباء الذين قد تمررت حياتهم بسبب أبنائهم الأشرار . حينما تتزوج البنات زيجات غير موفقة ، وحينما ينغمس الأولاد فى شهوات أجسادهم ، فحينئذ يمتلئ البيت شوكا وحسكا مهما توفرت الثروة وكل وسائل الترف .

والميل للشر شوكة أيضا . فالغيرة والحسد وحب المديح من الناس ، والتملق ، والنجاسة ، وعدم الاعتدال ، والطمع ، والطبع الحار السريع الغضب ، والطبع البارد عديم المبالاة ، والتشكك فى كل كلمة ولو كانت صادرة من أخلص الأصدقاء - هذه كلها تملأ الحقل شوكا وحسكا بدرجة قد يتعذر معها الانتفاع بما فيه من خيرات .

والاضطرار لمعاشرة رفقاء غير متجانسين فى المصنع أو البيت شوكة . حينما نضطر لحمل ذلك النير الثقيل نهارا وليلا ، نير معاشرة أولئك الذين لا يحبون الله ولا يعنون بالإنسان . حينما يعيّرنا العدو كل يوم فيصل السيف إلى العظم ويأكل التعيير اللحم . حينما تُنصب الفخاخ فى طريقنا - فحينئذ ندرك شيئا عن هذه الأشواك القاسية . لا زال القصاص الذى أوقعه قديما جدعون على أهل سكوت يتكرر إلى اليوم « وأخذ شيوخ المدينة وأشواك البرية والنوارج وعلّم [1] بها أهل سكوت » قض ٨ : ١٦) .

---

(١) « وعاقب » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « ودرس » حسب الترجمة الإنجليزية .

والمصاعب التى تعطل تقدمنا ، كسياج من أشواك قاسية فى غابة ، يمكن أن تُدرج ضمن هذه القائمة . فالمنافسات فى الحياة التجارية تجعل طريق الكثيرين من رجال الأعمال شائكا . والارتباكات والاضطرابات والمضايقات تمرر حياتنا لأنها تمزق اللحم الغض ، وتدمى القلب سرا ، وتقضى على كل أمل فى النفس ، ومن أجل هذا نتساءل عن حكمة الله وصلاحه فى خلقه عالم كهذا ملىء بمثل هذه المتاعب ، أو فى السماح بوجوده هكذا .

لكل إنسان مثل هذه الاختبارات ، فإن رسل الشيطان تأتى إلينا أجمعين لتعطل سيرنا وتدفعنا أن نتساءل - لا مرة ولا مرتين بل مرارا كثيرة - عما إذا كان ممكنا أن تنتزع الشوكة من الجسد وأن تطلق النفس حرة لتعبده . ويقينا أننا نقدم الحجة لله قائلين بأننا لو تحررنا من كل شوكة لأمكن أن نعيش حياة أسمى وأكثر نفعا . أما الرب فيجيب قائلا : كلا ، لا يمكن أن أنتزع الشوكة ، فهى الوسيلة الوحيدة للسمو بالحياة ، على أننى سأعطيكم نعمتى التى فيها كل الكفاية .

(٢) المجد عن طريق الأشواك

عجيب جدا أن تصير علامة اللعنة علامة للمجد على جبين المسيح . والدرس واضح : إنه حوّل اللعنة إلى بركة ، وإنه قد كشف السر فى إلزامها بأن تقدم المجد .

كانت هنالك إشارة خفية لهذه الحقيقة فى كلمات اللعنة الأولى التى لُعنت بها الأرض « ملعونة الأرض بسببك . وشوكا وحسكا تنبت لك » . ماذا يمكن أن تعنى هذه سوى أنه هنالك قصد خفى وراء هذه اللعنة التى صُبّت على عالم المادة ؟ ليس واضحا تمام الوضوح ماذا كان يتضمنه هذا الحكم الذى حُكم به على الأرض . المرجح جدا أن الشوك والحسك كانا موجودين قبل أن تلوث الخطية عالم الله الجميل ، ولكنهما من تلك اللحظة أصبحا أكثر انتشارا ، أو أن الظروف التى كانت غير ملائمة لنموهما أصبحت أكثر ملاءمة ، أو أنه قد سمح للأيدى الشريرة أن تنثر بذارهما إلى أبعد مدى . ولكن مهما كانت الحال ، فلا شك فى أن قصد الله كان لمحض الخير . ملعونة الأرض بسببك ، أى سوف تخرج لك أسمى وأجل البركات من صلابة تربة الأرض ، وميلها لإخراج الشوك والحسك .

وهذا ما تحقق يقينا . أين بلغ الإنسان أسمى درجات التقدم ؟ هل فى الأرض التى كانت فيها الطبيعة كريمة سخية وقدمت أوفر الخيرات ؟ هل فى الأرض التى لا تحتاج تربتها إلا لمجرد الحرث البسيط لتقدم أينع الثمرات ؟ هل حيث خلت الحياة من العناء كحياة النحل وسط أشجار الحوامض ؟ كلا ، ليس هنالك حيث قدمت الطبيعة للإنسان الغنى الوفير فتعلم البلادة والكسل واسترخت قواه ، بل فى الأرض التى كانت تربتها غير كريمة ، ومناخها غير ملائم ، والجهاد والبقاء فيها مضنيا ، وتوفر الشوك والحسك فيها ملحوظا بشكل ظاهر حتى كادا يقضيان على البساتين والحقول . فى الأرض التى تحتاج إلى المجهود الشاق لإنباتها . هنا وصل الإنسان إلى أسمى درجات التقدم ، وتفتت كل قواه العقلية والبدنية . بسبب شح الطبيعة وبخلها ، بسبب جهاد الإنسان الطويل معها فى الظلام ، بسبب تحمل مرارة العناء والتعب تحول يعقوب الرخو ، والماكر ، الضعيف الأخلاق ، إلى إسرائيل وصار رئيسا مع الله .

لعل هذا هو ما قُصد من وضع إكليل الشوك على رأس المسيح . فإن ذلك يعلمنا أن الإنسان لا يصل إلى العظمة الحقيقية إلا عن طريق مواجهة عناصر التعب والخسائر فى الحياة وتحملها والتغلب عليها . إن قصد الله فى التأديب الشديد الذى يخضعك له إنما هو لمحض خيرك . لقد أقامك وسط تلك الأشواك ليعطيك فرصة لتبديل البرية إلى جنة فيحاء ، وسوف تجد نفسك أثناء عملية التبديل أنك قد سموت وتجددت فجأة . وعندما تحمل الأشواك فوق جبينك ، وتتحملها وتتغلب عليها ، فإنها تتحول إلى إكليل . إنك سوف تفتخر بضعفاتك ، وتجد أن الصليب الذى قد صُلبت عليه وسط الآلام المبرحة قد تبدل إلى عرش .

يا لها من فكرة رائعة نجدها هنا عن إمكانيات الآلام والأحزان . كثيرون من أفاضل الناس يعترضون على الله بسبب تصرفاته معهم فى حياتهم ، وبسبب الشرور التى يسمح بأن تصيبهم . هم يُصلّون دواما مع بولس لإنقاذهم من شوكة الجسد . ولكن صلاح الله لا يسمح باستجابة هذه الصلوات القصيرة النظر فتبقى الأشواك ، ولا يجدون منها مناصا . وعلى قدر ما نُخضع أنفسنا بالصبر لتصرفات العناية الإلهية معنا ، بقدر ذلك نستطيع أن ندرك أن كل مقاصده معقولة ، ونجد أنفسنا مفتخرين بالأشواك ، ونكتشف أنها كانت هى الواسطة لكمال أخلاقنا وسمو وعظمة حياتنا ، وهى الواسطة لجعلنا ملوكا .

(٣) التحويل الذى تفعله النعمة

« عوضا عن الشوك ينبت سرو ، وعوضا عن القريس يطلع آس » . « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » . « أفتخر فى ضعفاتى » .

١- يكشف الله عن بصائرنا فننظر للأشياء المظلمة نظرة جديدة . فما كنا نحسبه قصاصا يتحول إلى تأديب وتهذيب محبة الآب . ونرى أن السكين ليست فى يد المهلك بل فى يد الجراح . وما كنا نحسبه مؤديا للموت يتكشف أمامنا بأنه يؤدى إلى حياة أكمل . والنيران التى كانت تهددنا بالفناء ، لا تفعل أكثر من أن تحل الوثق فنتمشى بسهولة فوق الجمر الملتهب . ويسمح لنا بأن نقف بجانب الله على الجبل حين يجوز ويعلن اسمه ، ويقدم حججه ، ويأخذنا وراء أعمال عنايته . فنرى أن ذلك المرض قد سمح به لإنقاذنا من السموم التى لولا تدخل الله لصارت قاتلة . وتلك الفتاة قد سمح لها الله بتشوه خلقتها نتيجة إصابتها فى حادث مروع لأنه لم يكن ممكنا بغير هذا إنقاذها من تجربة شريرة كان لا بد أن تستسلم لها . وتلك الخسارة التجارية حلت لأن أبناء التاجر كانوا معرضين لفساد الحياة بسبب كثرة الثراء . إذن ، فحينما يقدم الله حججه ، نجد أن الشوك قد تحول إلى سرو وآس .

٢- والله يستخدم الأحزان والخسائر لإعطاء نعمة أعظم . هنالك طريقتان لمساعدة النفس الرازحة تحت عبء ثقيل . أما أن يُرفع ذلك العبء عن كاهلها ، أو أن تُمنح قوة أعظم مساوية للعبء . وهذه الطريقة الأخيرة هى التى يفضلها الله فى معاملة أولاده . ومن الحكمة أن لا نصلى لإخراج الشوكة ، بل بالحرى لإعطائنا نعمة أعظم . عندئذ نتبين عظمة الصليب وعظم قدره . ما أكثر المتألمين الذين يجب أن يباركوا الله ويشكروه من أجل الآلام . وما أكثر الذين تكَشّف لهم أن آلة التعذيب وسيلة للراحة ، وأن غرفة التأديب هى عتبة السماء . وسط هذه الإحساسات يتحول الشوك إلى سرو والقريس إلى آس .

٣- ونعمة الله تُحوّل فعلا الأميال الشريرة فينا وفى الآخرين . فالصلابة تتحول إلى وداعة ، والجبن إلى رقة ، والاندفاع إلى غيرة ، والشح إلى اقتصاد وحسن تدبير ، والبخل إلى كرم ، والقسوة إلى شفقة على الآخرين ، وسرعة الانفعال والتغيظ إلى صبر وطول أناة . لم يحطم الله منابر كنيسة روما عندما سمح لها بالضيقات الشديدة ، بل ملأها بخدام صالحين . كذلك هو لا يلاشى أية ميزة من مميزاتنا الطبيعية عندما يقربنا إلى نفسه ؛ ولكنه إنما ينتزع الشر ويقوى الخير . يطرد الروح الخبيث ويخلى مكانا للروح القدس . وحيث ملكت الخطية للموت تملك النعمة الآن للحياة الأبدية . وشوك الشهوة وحدة الطبع يتحول إلى سرو ، والقريس إلى آس . ينتزع منا القلب الحجرى ويعطينا قلبا لحميا . « فى مسكن الذئاب فى مربضها دار للقصب والبردى » (أش ٣٥ : ٧) .

ما أسعد الزوجة حين ترى أن قساوة زوجها الوحشية قد تبدلت إلى رقة وعطف . وما أسعد الأم المباركة « مونيكا » حين رأت أن ابنها أغسطينوس لم يبق بعد عبدا للشهوة ، بل عاد إلى صوابه ، وجلس عاقلا عند أقدام المسيح . ويا له من برهان قوى على قوة المسيح أن نرى الأمم المتوحشة قد تبدلت تبدلا تاما حتى ازدهرت فيها صناعات الأمم المتمدنة ، وذاعت فيها الخدمات المسيحية ، بعد أن كانت تأكل لحوم البشر ، وتعبد الأوثان .

٤- وحين يُتم التأديب مهمته فإنه يرفع . إن الكرام الأعظم يعرف تمام المعرفة مقدار رقة حبة الحنطة ويدرك قوة احتمالها ، ولذلك لن يعرضها للنورج بصفة دائمة . إنك قد اختبرت الشوك والحسك اختبارا كاملا ، وقد تحملت ولم تخر . أما الآن وقد تعلمت الدرس باتضاع وخضوع ، فإن عصا التأديب ترفع . ابنك يوسف حى ، وسوف تراه ثانية ، وتضمه إلى حضنك . سوف يولد لك ولد ، وتدعو اسمه صموئيل ، وتنسى به تعييرات العدو . سوف تُعوّض سبعة أضعاف عن الخسائر التى خسرتها فجأة . سوف تخرج ثانية من أرض العدو . عوضا عن الشوك ينبت سرو ، وعوضا عن القريس يطلع آس ، لأن الشوك والقريس أتا المهمة التى أرسلا من أجلها .

هذه النبوات الرائعة الجمال قد تمت جزئيا بعودة إسرائيل تحت قيادة عزرا ونحميا ، ولا شك فى أنها كان ممكنا أن تتحقق فى أتم الملء لو كان قد توفر إيمان أوفر فى المواعيد الإلهية .

هذه الكلمات الرائعة سوف تتحقق فى أكمل صورة فى تلك الأيام القادمة حين تحل أوقات الفرج التى تحدث عنها الأنبياء منذ بداية العالم . عندئذ تُعتق الخليقة من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨ : ٢١) . عندئذ تترنم الجبال وتتهلل الأشجار . عندئذ تُرفع اللعنة القديمة عن الأرض ويبطل إلى الأبد التفسير الفاسد الذى لألد أعداء عمل الله . عندئذ تبتسم الأرض وتتغنى كما فى يوم خلقتها . ويكون للرب اسما ، علامة أبدية لا تنقطع . ويحدث إلى الأبد فى كل أرجاء العالم بكفاية محبة الله لمواجهة وغلبة الشر الذى قد يقف فى وجهها .

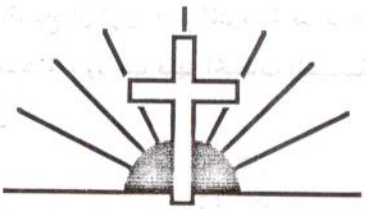

الفهرس

	الصفحة
† مقدمة المعرِّب	٥
† مقدمة المؤلف	٧
١ - عزوا . . عزوا	٩
٢ - أصوات تتحدث إلى القلب	١٧
٣ - لماذا تقول	٢٥
٤ - دعوة الأمم للاجتماع	٣١
٥ - هو ذا عبدى	٣٩
٦ - أنتم شهودى	٤٧
٧ - تغيير المقاصد الإلهية	٥٥
٨ - شهية مقلوبة الأوضاع	٦٣
٩ - نطقتك	٧١
١٠ - اسألونى . . اوصونى	٧٩
١١ - الله حامل أثقالنا	٨٧
١٢ - الدعوة للخروج	٩٥
١٣ - سهم مبرى	١٠٣
١٤ - المحبة التى لا تتخلى عنا	١١٣
١٥ - كلمات فى وقتها للتعابى	١٢١
١٦ - « اسمعوا » ثلاث مرات	١٢٩
١٧ - استيقظى . . استيقظى	١٣٧
١٨ - اعتزلوا . . اعتزلوا	١٤٥
١٩ - كشف حقيقة المسيح	١٥٥
٢٠ - الإيمان كمفتاح	١٦٥

الصفحة

٢١ - ذبيحة إثمك	١٧٣
٢٢ - شبع المسيا	١٨٣
٢٣ - عظمة حامل الخطية	١٩١
٢٤ - ترنمى أيتها العاقر	١٩٩
٢٥ - مدينة الله	٢٠٧
٢٦ - قائدنا الممجد	٢١٥
٢٧ - الآفاق القريبة السماوية	٢٢٣
٢٨ - التحويل الذى تفعله نعمة الله	٢٣١

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤٥٥/ ١٩٩٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 12 - 0033 - 2

طبع بشركة هارمونى للطباعة

ت : ٦١٠٠٤٦٤

٢٠١٥
تشغيلة رقم
قرش جنيه
٥/١٠٠٠

MAHABA BOOKSHOP مكتبة المحبة

٣٠ شارع شبرا ناصية شارع البعثة – ت : ٧٥٠٩ ٢٤٤ – ٧٧٧٤٤٨ – ص. ب. رقم ١٢ قصورة الشوام